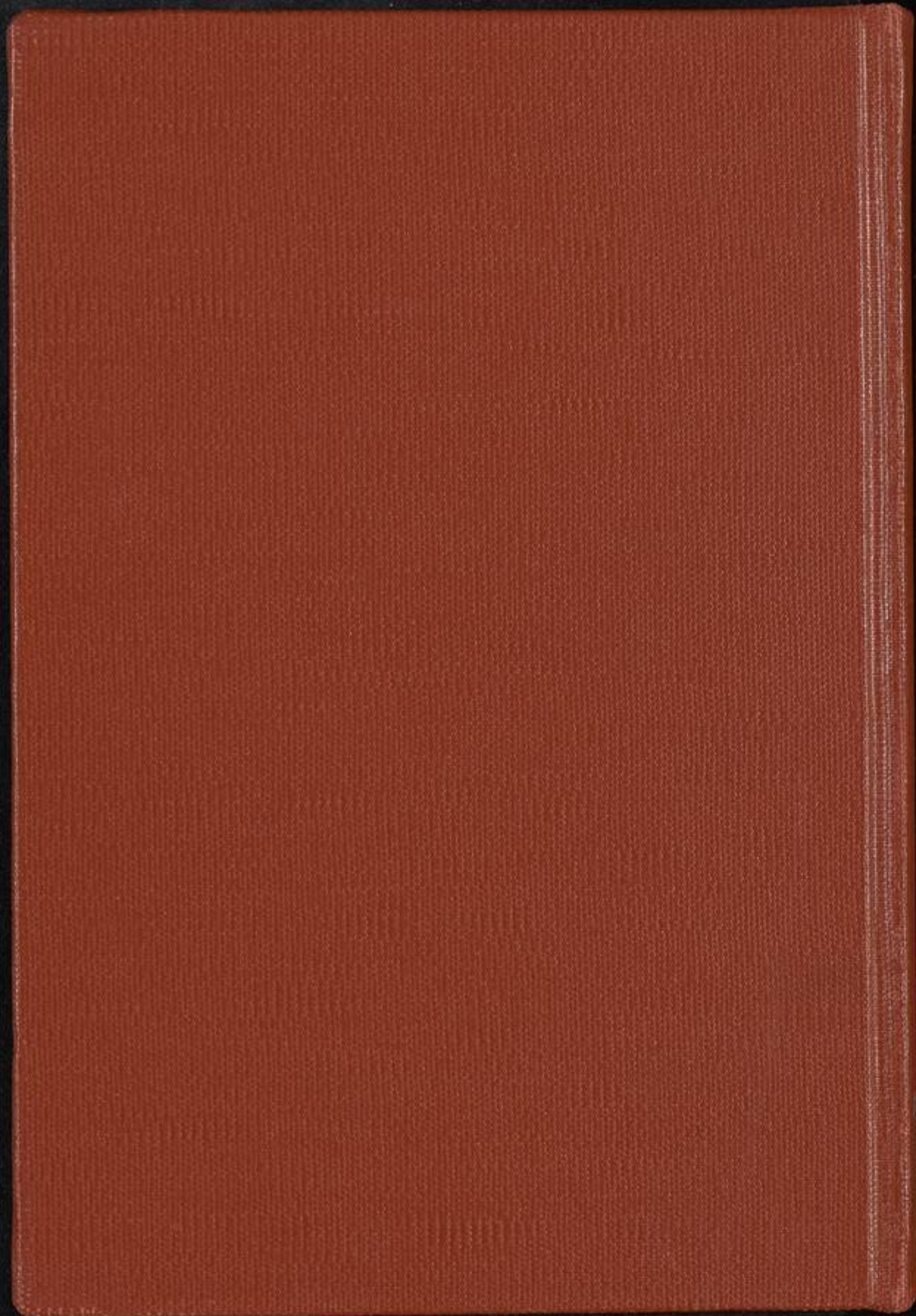
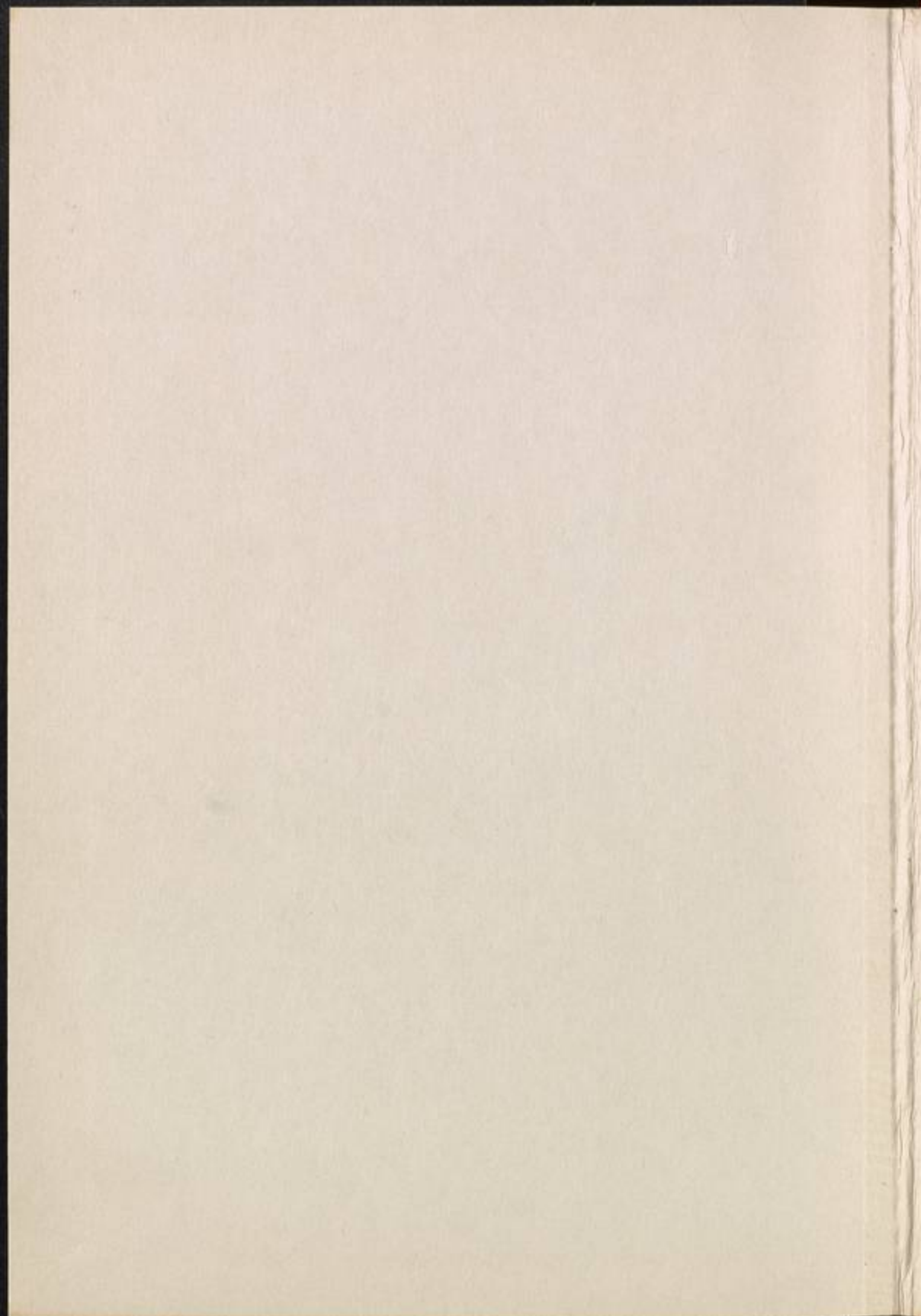
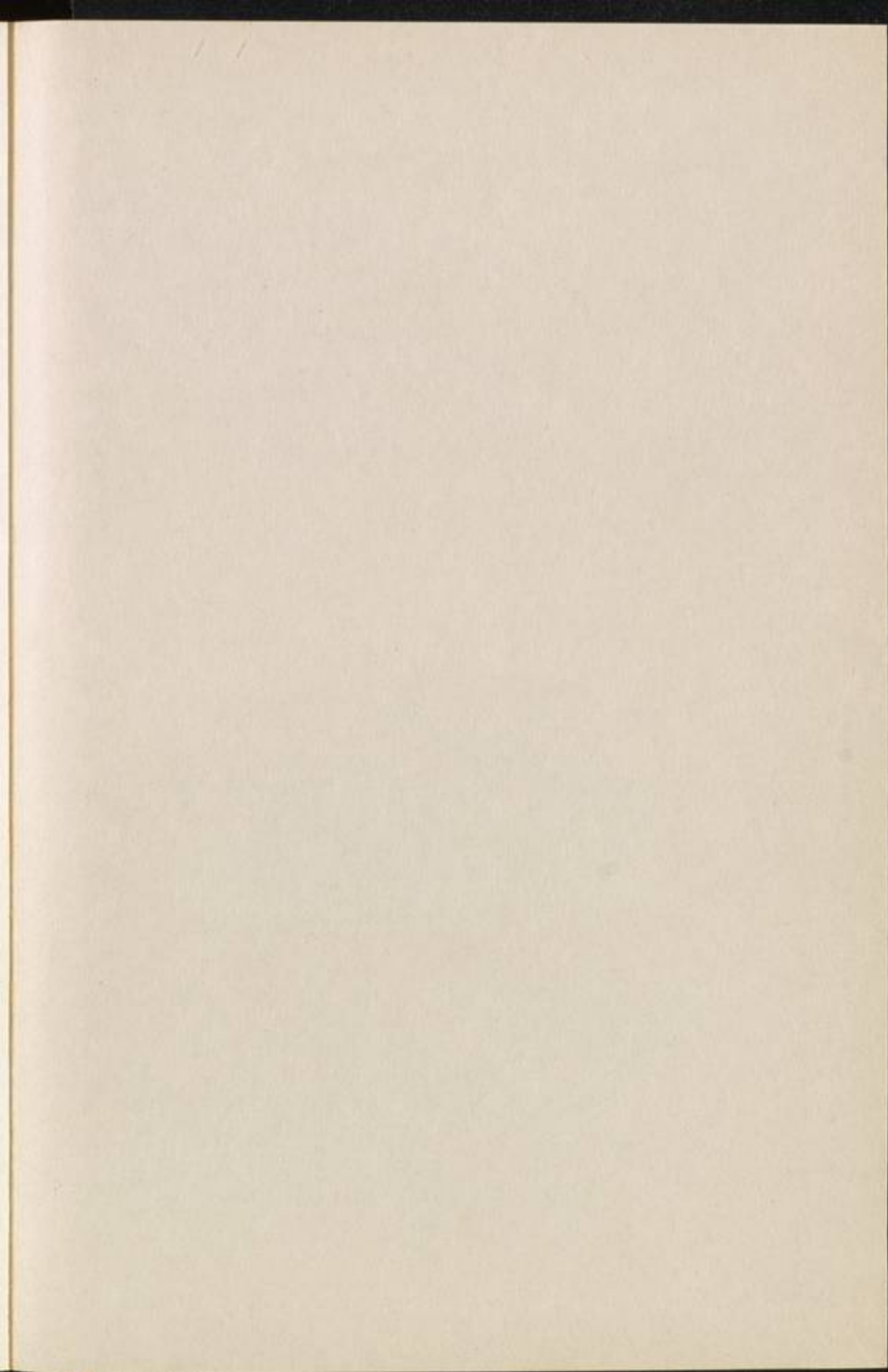


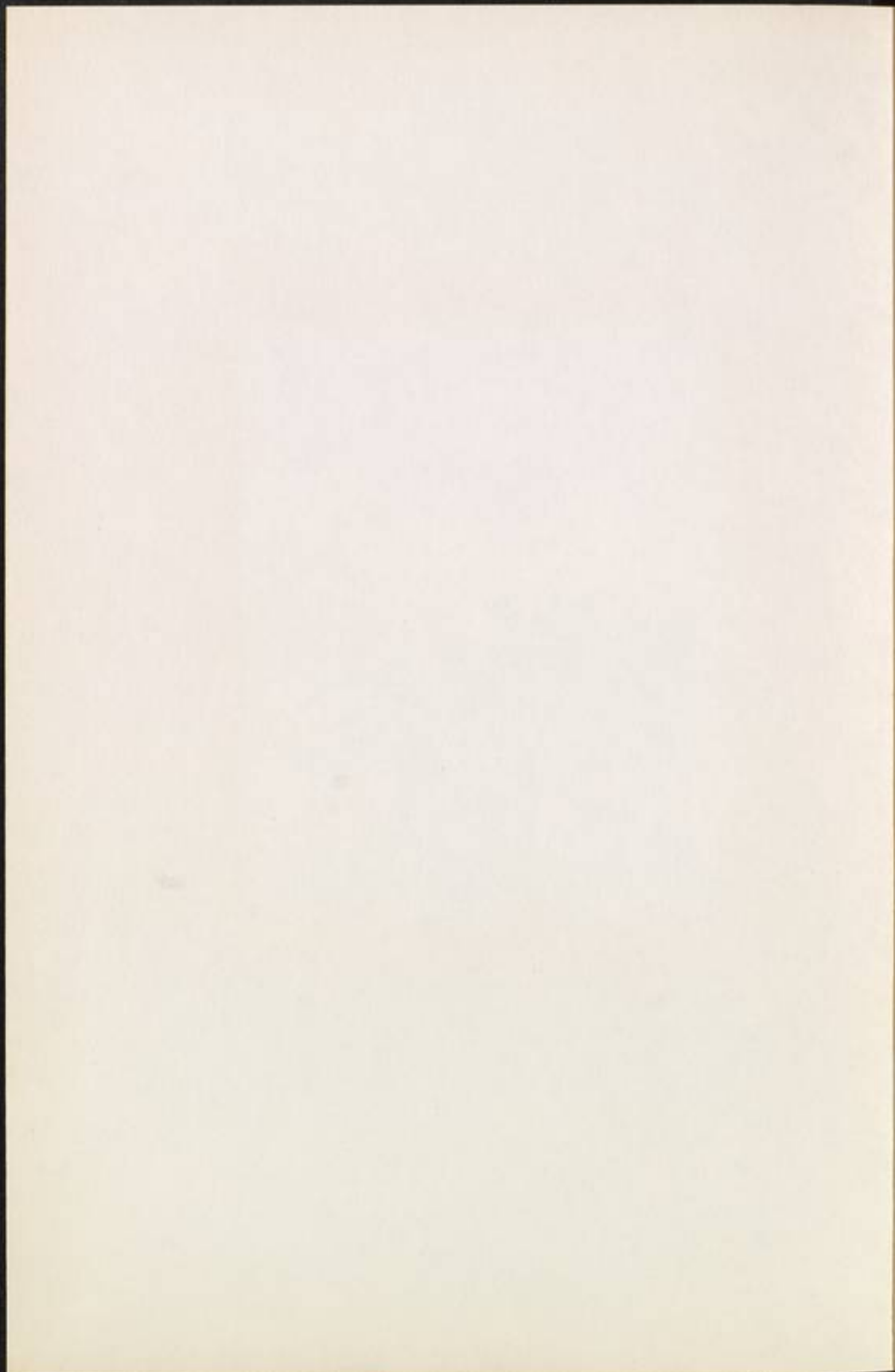


THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY









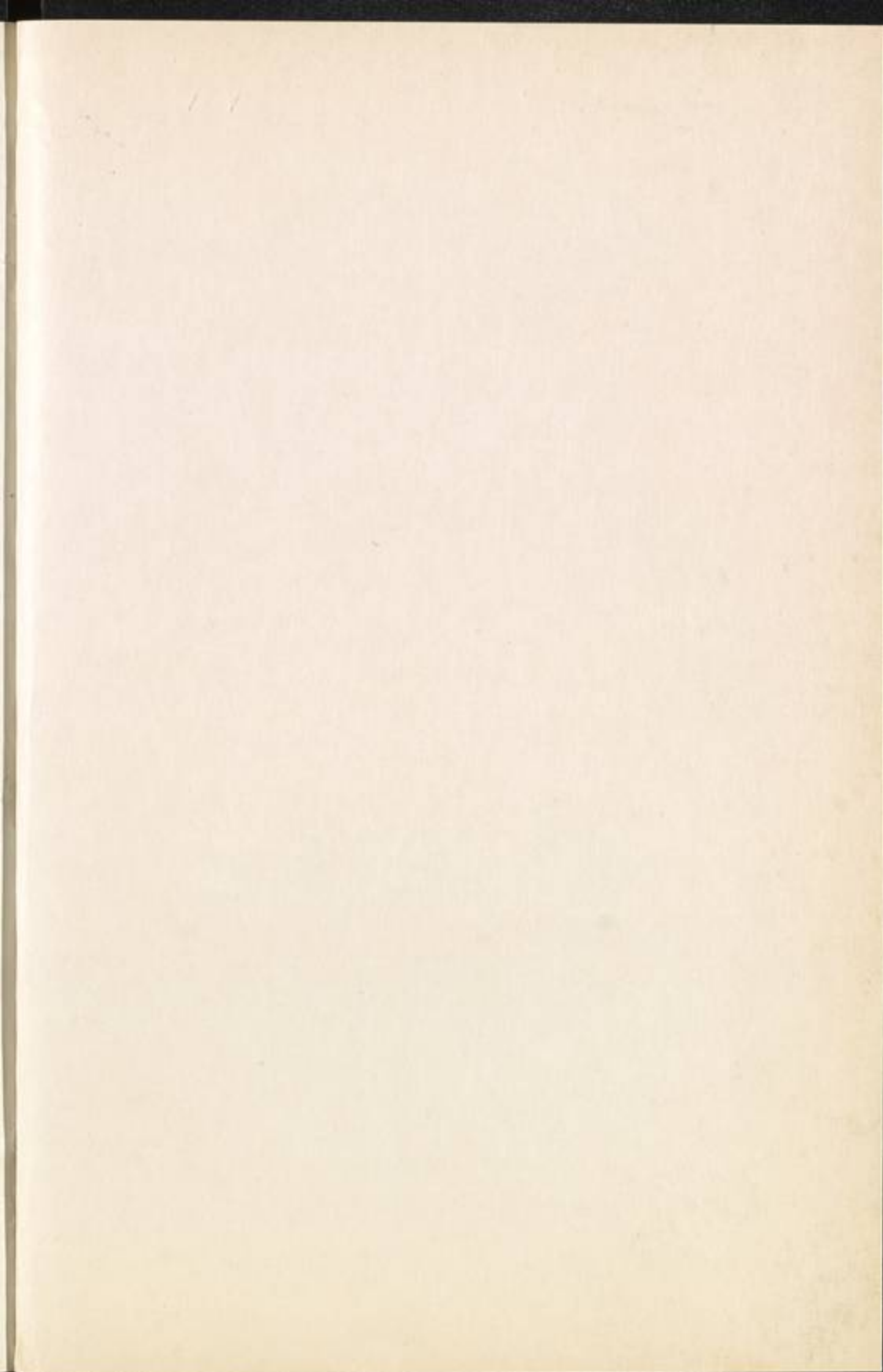


وزارة الثقافة والإرشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة

أرض السحر

شفيق حميري



ارض السحر

الطبعة الاولى

١٩٦٢

هكديكة

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة

أرض السحر

شفيق حبري

893.73115

0

كتب لي أن أرحل الى أميركة رحلتين : الأولى سنة ١٩٥٣ والثانية سنة ١٩٥٦ ولقد جلت في مناكب أرضها من الشرق الى الغرب ومن الشمال الى الجنوب ، فنعنت بكثير من مشاهد طبيعتها وأنست بكثير من جامعاتها ووقفت على بعض خصائص الأميركيين في آفاق تفكيرهم واجتماعهم وعملهم واطلعت على طائفة من مجهوداتهم في مقاومة الطبيعة بعد مقاومة الهنود ، وكنت أدون كل يوم ماتوجيه الي هذه الأمور حتى نشأ هذا الكتاب الذي سميته : أرض السحر ، وشرحت في بعض فصوله السبب في هذه التسمية ، فاذا استطاع القارئ الكريم أن يرى في تضاعيفه ما أبقتة الرحلة في نفسي من مختلف الآثار التي أعربت عنها جرياً على الطبع وحده وبعداً عن أي تكلف وإيثاراً لكل تجرد فقد ظفرت بما أردت .

شفيق جبري

دمشق • آذار ١٩٦٢

فكرة الرحلة

زارني في كلية الآداب في يوم من أيام الصيف سنة ١٩٥٣ الدكتور فليب حتي رئيس قسم لغات الشرق وآدابه في جامعة « برنستن » « Princeton » والسيد دونالد سنوك « Donald Snook » الملحق الثقافي في سفارة أميركة في دمشق وسألاني رأيي في رحلة الى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر الثقافة الاسلامية في جامعة « برنستن » على أن أقضي تسعين يوماً في أميركة أجول خلالها في مختلف آفاقها ، ثم بسط لي فكرة الرحلة ، فان حكومة الولايات المتحدة قد أحبت أن تدعو طائفة من رجال الشرق الى زيارة بلادها حيث يتعرفون الى من يهمهم أمرهم من أهلها ويتناقشون في الشؤون التي تعنيهم .

لقد رضيت بهذه الرحلة دون أن أبالي بها كثيراً لأنني على قدر رغبتني في السفر قبل خمس وعشرين سنة أصبحت رغبتني في الاستقرار والهرب من المتاعب ، فمن عشرين سنة ، أي من بعد رحلتي الى اوروبة والحجاز ونجد ، لم أرحل رحلة فيها تعب ، رضيت بهذه الرحلة واقترحت على الزائرين الكريمين أن يدعى أساتذة كليتنا وأساتذة جامعتنا الى مثلها ، كل واحد في نوبته ، فقال الدكتور حتي : نبدأ اليوم بعميد الكلية وسنكتب الى حكومة الولايات المتحدة بقبولك ، ثم ودعاني وانصرفا .

طال علي بعد وداعهما انتظار جواب الحكومة ، فوقفت موقفاً حائراً ، لست أعلم هل أسافر أم لا ، حتى خفّت في نفسي الرغبة في هذا

السفر ولم أعد أهتم به ، واني في يوم من الأيام لمنحدر الى داري من
متنزه « أبو زاد » في بلودان اذ تبعني في الطريق مجذوب من المجاذيب
جاراني ليسليني ، وفي أثناء المشي أخرج من ثيابه علبة صغيرة فيها صور
متحركة وقال لي : تفرج ، فأخذت العلبة وشرعت أنظر الى الصور
فوقعت عيني على بقعة من بقاع أميركة على المحيط الهادئ ، وعلى
ساحل هذا المحيط نخيل ممتد ورجال من الهنود ، لقد كان لهذه الصورة
أثر في نفسي ، فقد عادت الي الرغبة في السفر وخرجت من الحيرة التي
كنت فيها ، واني لذلك اذ جاء جواب حكومة الولايات المتحدة ، فقد
أعلمتني السفارة الأميركية في كتاب كتبه الي السيد « دونالد سنوك »
بدعوتي من قبل السيد ضودج « Dodge » رئيس مؤتمر الثقافة
الاسلامية الى حضور هذا المؤتمر وجعل سفري يوم الخميس في ٣ ايلول
ثم غير هذا اليوم فجعل يوم الأربعاء في ٢ ايلول .

شؤم الأربعاء

٢ ايلول ١٩٥٣

لما كنت طفلاً كنت أسع في الدار التي نشأت فيها أن جدي رحمه الله يجد شؤماً في السفر يوم الأربعاء وقد رسخ هذا المعتقد في ذهني حتى كبرت وترعرت ، فسلمت من كثير من الخرافات والمعتقدات الباطلة ولكنني على الرغم من هذه السلامة بقي في أعماق نفسي قليل من خوف السفر يوم الأربعاء وللأوهام عمل كبير في الانسان ، غير أن هذا الخوف لم أحفل به كثيراً ، فقد كنت مرة أسافر الأربعاء ومرة غير الأربعاء ، الا أنني هذه المرة لما أبلغني الملحق الثقافي أن سفري سيكون يوم الأربعاء قلقت بعض القلق ورجعت الي أوهام الطفولة ، فان السفر بالطائرة من دمشق الى « نيويورك » غير هيّن علي ، ولكن ما لعمل ، فقد حجز المحل وقطعت التذكرة وقضي الأمر .

قصدت في ٢ ايلول سنة ١٩٥٣ يوم الأربعاء الى مطار المزة فوجدت إخواني أساتذة كلية الآداب حفظهم الله قد كلفوا أنفسهم مشقة الوداع ثم وجدت الملحق الثقافي جاء يعتذر الي بأدبه ورقته من أمر وقع لي في مكتب قنصل أميركة في دمشق .

ودّعني الاخوان وأسرعت الى الطائرة وهذه أول مرة أسافر فيها بالطائرة ، فقد كنت شديد الحذر من مثل هذا السفر وكنت أقول لا يمكن أن أركب الطائرة في حياتي ، غير أنني كنت في السنين الماضية أسامر

جماعة من أصدقائي ركب أكثرهم الطائرة ، فكانوا يقصون عليّ السفر بها ويفيضون في الكلام على سهولة هذا السفر وعلى راحة المسافر ولكثرة ما سمعت من أمثال هذه القصص نزع عني خوف الطائرات وهذا يدل على ما للكلام وترديده من الأثر في بعض الأحوال ، فلما صعدت في سلم الطائرة وجلست مجلسي فيها وشرع ربانها يجريها لم أشعر بشيء من الاضطراب ولا خامرني شيء من القلق وكنت أعتقد أنني في سيارة ، كنت مطمئن البال ، هادئ الفكر ، جلست على مقربة من شباك ، فكنت أضرب بعيني من الشباك ، ولكن الذي ضحكت على نفسي منه أن الطائرة لما تحركت لم أشعر بسرعة حركتها ، فكنت أنظر الى الأرض من تحتها فأرى خطوطاً خضراً ، فكنت أظن أن هذه الخطوط حدود لها توضح لها سيرها ريثما تقطع المطار وتحلق في الفضاء ولم أدرك أن هذه الخطوط الخضر بسايتين صغيرة واقعة على ضفتي بردي وأن الطائرة سائرة سيرها وأنها قطعت المطار ولا خطوط ولا حدود ، وهذا الوهم نشأ عن أن هذه هي أول مرة أسافر فيها بالطائرة .

بعد نصف ساعة وقفت الطائرة في مطار بيروت ، فانحدر الركاب منها ودخلوا المقصف ودخلت معهم وأنا شديد التحفظ ، كنت أخاف أن تجري الطائرة وأبقى في المطار ، فتعرفت الى شاب رقيق الحاشية من دمشق وهو السيد أمين العجة درس في الجامعة الأميركية في بيروت وهو الآن صاحب تجارة مع ابن عمه السيد أكرم العجة في باريز ، وبقيت معه في المطار حتى جاء وقت السفر ، فخرجنا من باب المطار وبلغنا الطائرة .

جرت الطائرة فوق البحر الأبيض ، فأخذت أملاً عيني من مناظر الأرض وإذا رجعت الى دفترتي الذي كنت أدون فيه خواطري وجدت فيه كلمات متقطعة ولكن هذه الكلمات تدل على صور مقتضبة ، فالغيوم قد ملأت السماء وقطع السحاب قد بعثرت فيها ، حتى انكشفت لنا قبرص

ورودس ، فكننت أظن أنني لأزال فوق جبال لبنان ، فكأن هاتين الجزيرتين
تتمة لسلسلة جبال لبنان •

وما زالت الطائرة تسير بنا فوق مناظر متشابهة حتى قربنا من رومة
فاختلفت المناظر ورأيت مدخلا فتانا بطبيعته وبساتينه ، قربنا من رومة
ولكن قربت من الشؤم ، شؤم يوم الأربعاء •

وقفت بنا الطائرة في رومة ، فنزلنا المقصف لنقضي فيه نصف ساعة
وقد سئمت البقاء في المقصف ، فأحببت أن أجول قليلا ، فخرجت الى
دكان في جواره ، فيه بعض مصنوعات ايطالية ، ولما كنت أجهل السفر
بالطائرة توجهت نحو باب من الأبواب لأذهب الى الطائرة ، فاستوقفني
رجل على الباب وقال لي : انتظر في محل عينه لي حتى يأتي الركاب
فتذهبوا جميعا ، فانتظرت في المحل نفسه ولكن وقت الانتظار طال
فنزلت ثانية الى جهة الباب ، ففاجأني رجل وصاح : أين أنت ! لقد
ناديناك باسمك مرات ، ان الطائرة ذهبت وتركتك ، والحقيقة لم ينادني
أحد ، ولم يتفقدني أحد ولا رن المجهار ^(١) في أذني وانما رجال الطائرة
أو فتياتها كانوا مهملين ، فاستسلمت الى الأمر الواقع وأفرغ الله علي
الصبر الجميل ، وبعد دقيقة رأيت السيد أمين العجة فقال لي : هيا بنا
الى الطائرة ، فقلت له : سافرت وتركتنا ، فاضطرب بعض الاضطراب •

من نعم الله علي أنني تعرفت الى السيد أمين صاحب المروءة ، فقد
نسي مصيبته واهتم بمصيبي لأن سفره الى باريزوسفري الى نيويورك •
أحبنا أن نمر على رومة لنبيت فيها ليلة ، فمنعني الشرطي لأن جوازسفري
ليس فيه اشارة من قنصل ايطالية في دمشق ، فظلنا أربع ساعات في
المطار والسيد أمين يعنى بأمرى ويخاطب دار الوزارة السورية وليس
فيها أحد لأن الوقت بعد الظهر ، حتى ردعليه موظف ، فشرح له السيد أمين

(١) مكبر الصوت

حالتي ، فأوعز الموظف الى الشرطة بالسماح لي بدخول رومة ، فدخلت
بعد عذاب أربع ساعات •

هذه أول مرحلة من مراحل الشؤم في سفر الأربعاء !

قلت لصديقي السيد أمين : وقع ماوقع ، فلنذهب الى رومة ولنس
هذه المصيبة •

بتنا في رومة في فندق دلنا عليه رجل من رجال شركة الطيران وقال
لنا سأجيء اليكم غداً لأصحبكم الى المطار وقد كتبت الى باريز بحفظ
عيابكم •

كل شيء في رومة قد تغير ، زرتها سنة ١٩٣٤ وزرتها سنة ١٩٥٣ فما
أبعد الفرق بين العهدين ، عهد موسوليني وعهد الدولار الاميركي ، أيام
موسوليني كنت لأرى امرأة جالسة في مقهى ، كنت أرى الرجال في
المقاهي اذا مرّت امرأة على الرصيف أكلوها بعيونهم ، أما الآن فان
المقاهي في هذا الشارع الذي نسيت اسمه وهو صورة صغيرة لشارع
« الشان اليزه » في باريز قد ملئت مداخلها بالرجال والنساء ، لقد ظهر
أثر النعيم على رومة ، ظهر أثر الدولار ، كثر العمران وغلت الأسعار •

٣ ايلول ١٩٥٣

لا بد في هذا الصباح من زيارة صديقين لي : وزيرنا في رومة ،
ووزيرنا في الفاتيكان ، أما الأول فما كدنا نفرغ من التعانق حتى شكا
الي الضيق وقال إنه لا يستطيع اذا جاءه ضيف أن يسقيه فنجان قهوة !
وأما الثاني فقد صاح بفتاة ايطالية تكتب على الآلة وعرفنا اليها وقال :
انها أدبية تعنى بالشعر انتخبته بالمسابقة ، ولما كانت ذات جمال بارع
قال السيد أمين للوزير : مسابقة جمال !

زرنا الصديقين وعدنا الى الفندق ، فجاءنا رجل من رجال شركة

الطيران وذهب بنا الى المطار ، فركبنا الطائرة ووصلنا الى باريز في العصر ، وقد اختلفت مناظر فرنسة عن مناظر قبرص وروودوس ، فالأودية من تحتنا عميقة والسهول مديدة ، نزلنا من المطار ودخلنا مركز الشرطة ، فرأينا مدير مكتب أكرم العجة في باريز واسمه « بتي » ينتظر السيد أمين . لقد حاولت دخول باريز ، فمنعني الشرطي لأن جواز سفري خال من اشارة قنصل فرنسة في دمشق ، فظل « بتي » يعمل أربع ساعات حتى استطاع أن يسهل لي السبيل الى دخول باريز ، فكيف كانت حالتي لولا أمين !

دخلنا باريز في الليل ، وهي هي لم يتغير منها شيء ، لم يتغير لهوها ومرحها وفتنتها ولكن فكري ليس مشغولا بهذا المثلث : اللهو والمرح والفتنة ، اني أريد أن أصل الى نيويورك ، وقد ذهب محلي المحجوز في الطائرة واشتغل لي « بتي » يوما كاملا فلم ينجح ، لأن الأماكن مملوءة بسبب عودة السياح الأميركان الى بلادهم .

خطر ببالي حينئذ أن أراجع السفارة الأميركية في باريز لعلها تهتم بأمرى ، فذهبت الى السفارة يوم السبت ، فوجدتها معطلة وما زلت أسأل حتى اهتديت الى آنسة قيل لي انها أمينة سر السفير ، فشرحت لها أمري ، فاهتمت بي كثيرا وظلت تكلم شركة الطيران : « Pan American » ساعتين ، فلم تنجح ، فعادت الي وقالت : لقد جعت ، فأنا ذاهبة الى الغداء ، ولكنني أعدك أني بعد الغداء سأرجع الى العناية بأمرى ، فأعطني عنوانك وانصرف ، ففعلت ، وفي المساء جاءني هاتف منها : اني أستطيع السفر في الليل في الساعة الحادية عشرة ، فقد حجز لي محل .

كل هذه الامور شغلتني عن التفكير في عظمة السفارة الأميركية في باريز وفي مظاهر ترفها وغناها .

قبل الساعة الحادية عشرة قصدت الى المطار ، فركبت الى جنبي في سيارة الشركة فتاة عمرها عشرون سنة ، فحدثني وحدثتها وهي تعرف

قليلاً من الفرنسية وأنا أعرف قليلاً من الانكليزية ، فتفاهمنا على قدر
الامكان ، انها في باريز من شهرين للسياحة ، وهي من « واشنطن » وقد
طلبت الي أن أزورها في بلدها وحاولت اعطائي رقم هاتفها ، لقد دوت
هذا الأمر في هذا المقام لأجعله جزءاً من كلامي على المرأة الأميركية وعلى
ثقاوة الفتاة الأميركية .

انتظرت في المطار موعد سفر الطائرة وهي من شركة K. L. M.
واني لفي مثل هذا الانتظار اذ المذيع ينادي : السيد جبري ! السيد
جبري ! فحرت في أمري وقلت : من هذا الذي يناديني في بلد لاأكاد
أعرف فيه أحداً ، فأسرعت الى مخرج الصوت ، فرأيت فتاة من الفتيات
تسألني : أنت السيد جبري ؟ قلت لها : نعم ، قالت : أسرع ! أسرع !
لقد وقفت الطائرة من أجلك ، فأسرعت وأنا لم أفهم شيئاً من هذه الألغاز
فصعدت في السلم وما كاد يستقر بي المقام حتى تحركت الطائرة .

جرت الطائرة ثم وقفت في ارلندة في مطار « Shannon » فنزل
الركاب وشاورت فكري في النزول ، فقصدت الى المقصف وأنا مشغول
الفكر ، فقد خفت أن يصيبني ماأصابني في رومة ومن أين أجيء بالسيد
أمين العجة ولكنني دنوت من راكب وجلست الى جنبه في المقصف وقلت
اذا تحركت تحركت معه ، وأحمد الله على أنني استطعت هذه المرة أن أرجع
الى الطائرة من دون قصة من القصص .

لقد شهدت وأنا في مثل هذا القلق والحذر أن العالم الذي أنا فيه
يختلف عن باريز وعن رومة من حيث ترتيب المطار ومن حيث المطعم ومن
حيث السحن .

قطعت الطائرة المحيط الأطلنطي أو الأطلسي ، ولم أدر على أي
الاسمين اعتمدوا ، حتى بلغنا مطار الكندا « Gander » فصمت هذه المرة
على أن أبقى في الطائرة ، فلم أنزل بنزول الركاب الذين قضوا في المقصف بعض

الوقت ، ثم رجعوا الى طائرتهما واذا نحن حول الساعة الرابعة في
نيويورك ، في مطار « Idelwild »

انحدرت من الطائرة وفرغت من معاملة الجواز وجئت دائرة الجمرك
لتخليص عيابي ، فلقيت سيداً يسألني : هل أنت السيد جبري ، فقلت :
نعم ، هذا السيد اسمه «مارشال روث» « Marschal Rothe » وسيأتي
الكلام عليه في حينه ، أرسله اليّ السيد ضودج رئيس مؤتمر الثقافة
الاسلامية ليستقبلني في المطار ، قربنا من العياب كلها لتخليص عيابي فلم
أجدها ، فقلت : هذه آخر مرحلة من شؤون الأربعاء ، جمعت ذهني قليلاً
ثم فطنت الى الأمر : ان الآنسة التي اهتمت بأمرى في السفارة الأميركية
في باريز أوعزت الى شركة الطيران : « Pan American » وأنا في المطار
بأن تسفرني على أول طائرة الى « نيويورك » وقد كانت عيابي على
طائرة ، ثم لما جاءتني الفتاة في مطار باريز وقالت لي : أسرع ! أسرع !
فأسرعت الى طائرة غير التي تحمل عيابي ، فأنا في طائرة وعيابي في طائرة
ثانية ، ففصلت هذا الأمر للسيد « روث » فذهب الى مكتب شركة
الطيران في المطار وسأل : هل من طائرة ثانية تصل الى نيويورك بعد قليل ،
قالوا له : بعد ساعتين تصل طائرة ثانية ، فانتظرت ساعتين في المطعم ،
فجاءت الطائرة التي تحمل عيابي وكان علي أن أركبها ، فأخذت العياب
وجئنا نيويورك .

هذه عواقب السفر يوم الأربعاء !

٦ ايلول ١٩٥٣

دخلت « نيويورك » في المساء وذهب بي السيد روث الى فندق
« Hudson » وهو فندق وسط واقع في الشارع ٥٧ على مقربة من دار
صوت أميركة وعلى مقربة من شارع نيويورك المشهور « برودوي »

« Broadway » ومعناه الطريق العريض ، الواسع ، وقد تختلف الفنادق في فخامة منظرها أو عظمة غرفها ، ولكن كل غرفة فيها الحمام والهاتف والنظافة ، فالمسافر يجد فيها مايسره ، انما الأزمة أزمة الخدم ، كل شيء يطلب بالهاتف من باب توفير الخدم ، ولا ريب في أن كل شيء يطلب بالهاتف لايلبى في كل حين •

استرحت في الغرفة ثلاث ساعات من تعب السفر ، والحرّ شديد ، وفي المساء جاءني السيد « روث » ودعاني الى العشاء في مطعم قريب ودعا أستاذين آخرين من رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية : شجاع الدين خليفة من علماء الباكستان ونظام الدين أحمد من علماء حيدر آباد ، ثم ودّعنا بعد العشاء وانصرف الى فندقه على أن يعود في الصباح ليذهب بنا الى « برنستن » •

أحب الاستاذان أن يجولا قليلا في شارع « برودوي » فرافقتهما وأذكر أنهما دخلا المطعم الذي يسمونه : الاوتوماتيك « Automatic » ليتفرجا ودخلت معهما ، وقد قرأت عن هذا المطعم في دليل السفر الى أميركة واستغربت أمره وقلت في نفسي : ماهذه الرحلة الى بلاد كل شيء فيها غريب ، حتى أمر الأكل ، يذهب المرء الى معرض من معارض الأكل فينظر الى الألوان المعروضة ، فاذا أعجبه لون منها أخرج من كيسه ثمنه ووضعه في آلة خاصة ، فتحرّكت الآلة وتحرك معها الصحن الذي وقع اختياره عليه ، فأخذه وجاء الى منضدة فجلس وأكل ، واني أعتقد أن ذكر أمثال هذه الأمور في دليل السفر ينفرّ المسافر ، هذا بالنسبة الي ، ولكني أحمد الله على أن المطاعم كلها ليست من هذا الشكل الغريب ، فقي بعضها خدم يخدمون ، وفي بعضها يخدم الرجل نفسه ، فيذهب الى الأنسة ، فتضع له الأكل الذي يريده ، فيجيء به الى منضدة ويأكل ، الا أن بعض الناس يحبون رؤية غرائب الأمور وقد يجوز أن ذكر المطعم

« الاوتوماتيك » في دليل السفر قد جعل لهؤلاء الناس ، ولست منهم ولا شك .

لم أظن الى شيء من عجائب نيويورك في وصولي الى هذه المدينة الجبارة ، فقد كنت مشئت الفكر والبال ولكنها في جيئتي الثانية اليها قد شغلت ذهني كله ، فوفقت على جبروتها وعظمتها وتناقضها وسأشير الى هذا كله في فصل آخر .

٧ ايلول ١٩٥٣

ركبنا في الصباح الى « برنستن » وهي تبعد ساعة عن « نيويورك » وكان في القطار طائفة من جماعة المؤتمر ، بهو القطار فخم جدا ، كل راكب على مقعد خاص متحرك ينقله الى حيث شاء .

وقعت عيني على سيدة أنيقة في ملابسها كأنها من طبقة رفيعة وعمرها على ما يظهر أربعون سنة أو أقل ، والى جنبها شاب امتلأ شبابا يقرأ كتابا لا يكاد يرفع بصره عنه ، ابتسمت هذه السيدة فدنوت منها وسلمت وجرى بيننا حديث السفر ، انها لا تحب ركوب الطائرات ولكنها تحب ركوب البحر ، رغبت كثيرا في معرفة هذا الشاب الذي لا يبالي بها ، فخطر ببالي أن أسألها ، فسألته عنه ، قلت لها : هل هو أخوك ، قالت : لا ، انه زوجي ، وزوجها لم يهتم بهذا كله ولا التفت الي وقد بجوز أن تكون هذه السيدة غنية وأن الشاب تزوجها لغناها ولما وصلت الى موقف القطار نزلت وودعت السيدة فودعتني وكأن بيننا صداقة من سنين وزوجها لم يحفل بكل ذلك ، وهذه هي المرة الثانية التي أجالس فيها امرأة أميركية ، فعلى قدر مارأيت من نقاوة الفتاة الأميركية في مطار باريز رأيت من وداعة المرأة الأميركية في القطار .

لا يهمني شيء في القطار مقدار ما تهمني الفرجة ، فأكاد أغرق في مشاهد الطبيعة ولا أحول بصري عنها . ولكني لم أجدي دفثري وصفا كاملا للطبيعة

من نيويورك الى برنستن وانما الذي وجدته فيه أن على الطريق شجراً كثيراً وسهولاً كثيرة والذي استوقف نظري مرأى السيارات ، ففي مواقف القطار وفي بعض مواقف من المدن نشهد قطعان السيارات بدلاً من قطعان الابل والغنم وهذا أول مظهر من مظاهر الغنى في أميركة ، يكاد الانسان لا يصدق هول مناظر هذه السيارات وهي مصفوفة ، وليست السيارة في أميركة من باب الترف والتبذير وانما الانسان لا يستطيع الاستغناء عنها لبعدها المسافات ، فأكثر الجامعات بعيدة عن المدن ، فلا بد للأساتذة والطلاب منها وأكثر الناس بعيدة دورهم عن المعامل ، فلا غنى لهم عنها .

وصلنا الى برنستن أو على ماأظن الى موقف آخر قبل برنستن فاستقبلنا السيد ضودج رئيس مؤتمر الثقافة الاسلامية الذي كان رئيس الجامعة الأميركية في بيروت من ربع قرن أو أكثر ، ماهذه الشيخوخة المرححة التي لايفارقها ابتسام الثغر ، ماهذه الشيخوخة النشيطة التي لا يكاد الشباب يتولّى عنها ، ماهذا التهذيب العريق ، فقد حبل عيبيتي بيده على ثقلها ووضعها في سيارته وحلفت عليه فلم أنجح ، ثم ساق بنا سيارته حتى وصلنا الى الفندق وأسمه « Princeton Inn » لا يشبه هذا الفندق الفنادق الضخمة في المدن ، وأكثر الفنادق في ضواحي الولايات المتحدة على هذا الشكل ، فهي أشبه شيء بدار الأرياف ، انما الشيء القاتن في هذا الفندق مروجه الخضر وبحيراته المصنوعة ، فالفندق للجامعة نفسها وأحسن شيء فيه هذه الطبيعة الهادئة التي يتمتع المسافر منها في كل صباح ومساء .

بلاد الغرائب :

لأدري كيف دونت الفكرة التالية في دفثري ولكن لا مندوحة لي عن ذكرها سواء آكانت في محلها أم لم تكن ، ان هذه الرحلة عبارة عن

خواطر مبعثرة ، لقد وجدت في دفترتي بعد الكلام على « Princeton Inn »
هذه العبارة : بلاد الغرائب ، ثم وجدت تفسيراً لها : الولايات المتحدة
مجموعة غريبة من الأشكال ، أجسام طويلة كأن أصحابها جبابرة ،
وأجسام قصيرة مختلفة ، فلا تكاد تحس فيها بأمة من أصل واحد ذات
سحن واحدة ، مثل هذه السحن التي شهدت في مطار ارلندة حيث
لايكاد رجل يختلف عن آخر ، ترى من حين الى آخر شيخوخات وكأنها
شباب نضير ، وسيارات تسوقها العجائز ، فكان الناس في أميركة لا يعرفون
الموت ، فهم لا يذكرونه ولا يخطر لهم على بال ، فلم يخلقوا للتفكير في
الحزن والكآبة في كل ساعة ، فلا تسمع في كل دقيقة : الدنيا زوال ! الدنيا
زوال ! ثم تجد الافراط في حرية النساء ، فتأخذ عينك في الطريق نساء
عاريات السيقان من الحر. ولا تكاد تجد انسانا يحملق لينظر اليهن •

افتتاح المؤتمر

٨ ايلول ١٩٥٣

ندع الآن « Princeton Inn » وندع حدائقه ومروجه وندع هذه الخواطر السريعة التي مرّت بي ونسرع الى القاعة التي احتفلوا فيها بافتتاح المؤتمر .

خطب في هذا الافتتاح ثلاثة خطباء ، خطب الدكتور Brown عميد الكلية في جامعة برنستن ، هذا هو لقبه وخطب السيد « Clapp » من مكتبة الكونغرس في واشنطن وخطب الدكتور فيليب حتي رئيس قسم لغات الشرق وآدابه في جامعة برنستن ، وقد استغرقت هذه الخطب الثلاث نصف ساعة .

رحّب الأول باسم رئيس الجامعة برجال مؤتمر الثقافة الاسلامية ، ثم أتى على ذكر السنة التي أسست فيها برنستن ودل الحضور على صورة الملك جورج الثاني المعلقة على الجدار وأتى على تاريخ هذه القاعة التي اجتمع فيها في الماضي مجلس أميركة ليفصح لجورج واشنطن عن شكره له ثورته في تحرير أميركة ، ثم ذكر يسيراً من أشياء ثانية تتعلق ببرنستن وبعض الرؤساء .

وأشار الثاني في كلمته الى مشاركة مكتبة الكونغرس لجامعة برنستن في هذا المؤتمر الذي هو الأول من نوعه ، هذا المؤتمر الذي

جمع علماء مشهورين من بلاد مختلفة للمناقشة في موضوعات شتى ورحب باسم الشعب الأميركي وباسم الولايات المتحدة بهؤلاء العلماء، وكانت كلمة الخطيب الثالث بالعربية وهي تشتمل على الترحيب وقد دعي أساتذة المؤتمر بعد هذا الاجتماع القصير في قاعة « Nassun » المشهورة الى شرب الشاي في قاعة ثانية من قاعات الكلية. ليس هذا كله بهمهم ، انما المهم في نظري أن أرى أثر الشرق في هذه القاعة .

خطب أستاذ فاضل ذو شهرة واسعة قضى في الولايات المتحدة على ما قيل خمساً وعشرين سنة ، وكان له أثر بالغ في المؤتمر ، وصل الأستاذ الموماً اليه الى مطار نيويورك قبل افتتاح المؤتمر بساعة ، ففوجيء في المطار بأنه سيقول كلمة في افتتاح المؤتمر ، فلما جاء دوره قال :
« قبيل ساعة فوتحت بأني سأقول كلمة فصعقت ... »

يقال في لغتنا : صعق كسمع غشي عليه ومن مشتقات هذه المادة انصاعقة ، ومن معاني الصاعقة الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب والمحراق الذي بيد الملك سائق السحاب ولا يأتي على شيء الا أحرقه أو نار تسقط من السماء ..

فلننظر في المعاني المختلفة التي تدل عليها هذه المادة ومشتقاتها وحسب هذه المعاني أن يدخل فيها الموت أو العذاب حتى نشعر بشدتها فاذا كان أحدا يصعق أي يغشى عليه من أجل ارتجال كلمة لاستغرق خمس دقائق وهو مدرب على الارتجال فكيف تكون حالته اذا نزلت به نازلة من نوازل الدهر وأراد الافصاح عنها ، بأي لفظ يفصح عن هذه النازلة اذا أصيب بفقد عزيز أو بمرض عضال أو بضياح ماله أو اذا أصيب بوطنه .

هذا هو أثر الشرق الذي أشرت اليه وأعني بهذا الاثر هذه اللغة الشعرية التي درجنا على استعمالها في مخاطباتنا حتى كدنا نبعد عن واقع الحياة .

مؤتمر الثقافة الإسلامية

٩ ايلول ١٩٥٣

حدث خلال الصيف سنة ١٩٥٣ أن عدداً كبيراً من العلماء المسلمين المشهورين كانوا في الولايات المتحدة ، بعضهم كانوا أساتذة زائرين ، وبعضهم دعيتهم الحكومة الى زيارة بلادها وبعضهم أرسلتهم حكوماتهم الى أميركة لأغراض شتى ، فاجتمعت جامعة برنستن ومكتبة الكونغرس هذه الفرصة لعقد مؤتمر أطلق عليه اسم : مؤتمر الثقافة الإسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، وجعلت اللغتان في هذا المؤتمر : العربية والانكليزية ، وكان الاجتماع مرتين في النهار ، قبل الظهر وبعد الظهر .

اشترك في هذا المؤتمر سبعون عالماً على ماأظن وحضره أربعة وعشرون أو خمسة وعشرون زائراً ، أما الأساتذة الذين اشتركوا فيه فبعضهم من أميركة وبعضهم من الشرق : من الملايو وأندونيسية والهند والباكستان وأفغان وفارس والعراق وتركيا والشام ولبنان وشرقي الأردن ومصر واليمن .

أقيمت في المؤتمر خطب كثيرة وجرت مناقشات مختلفة ، وقد جمعت هذه الخطب وخلاصة هذه المناقشات باللغة الانكليزية في كتاب أخضر اسمه : مؤتمر الثقافة الإسلامية وعلاقتها بالعالم المعاصر ، وأتي في الكتاب على تراجم الذين اشتركوا في المؤتمر والذين زاروه ، والكتاب مطبوعه جامعة برنستن سنة ١٩٥٣

أظن أن هذا المؤتمر انما هو الأول من نوعه في أميركة ، فهل ترمي الولايات المتحدة في مثل هذا المؤتمر الى الاتصال برجال الشرق على مختلفه : أقصاه ووسطه وأدناه ، هل تحولت سياستها عن نيويورك الى سان فرانسيسكو ، عن المحيط الأطلنطي الى المحيط الهادي ، وبعبارة أوضح ، عن الغرب الى الشرق ، فهل تريد معرفة هذا الشرق ودارسة أوضاعه وتمكين الأواصر بينها وبينه ، هل يئست من المحيط الأطلنطي ، من أوروبا ، فانصرفت الى المحيط الهادي ، الى الشرق كله ، فهي تدعو رجال هذا الشرق الى زيارة بلادها والتفرج في معاملها ومصانعها وجامعاتها .

مالي ولهذه السؤالات ، فلنبادر الى حضور المؤتمر ، ولا بد لي من الاشارة في هذا الموطن الى أنني لا أتوخى الاحصاء في كلامي على المؤتمر ، فالذين يهمهم الوقوف على خطبه ومناقشاته فليرجعوا الى الكتاب الأخضر ، ففيه كل ما يهمهم الوقوف عليه باللغة الانكليزية ، انما أتوخى في الأوراق التالية الأتيان على ذكر مالفث ذهني اليه من الموضوعات والسؤالات والجوابات ، اني ادون خواطري وأنا أسمع الأقوال كما كنت أدون خواطري في القطار والسيارة وأنا أنظر الى الطبيعة .

اليهود في المؤتمر .

قليل قبل الشروع في المؤتمر أن بين رجاله جماعة من اليهود ، فطلب إلي بعض أعضاء المؤتمر أن أجتمع الى الرئيس ضودج وأن أسأله : هل في أعضاء المؤتمر يهود ، فاجتمعت اليه وذكرت ماله من المكانة في قلوب أهل لبنان والشام ولقت نظره الى مسألة اليهود في مثل هذه الأحوال ومقدار ألم العرب منهم وتلظفت في سؤاله : هل في المؤتمر يهود وبينت له مبلغ الأثر السيء الذي يتركه وجودهم وقلت له قد ينسحب بعض الأعضاء اذا كان في المؤتمر يهود .

اهتم السيد ضودج بهذا كله وقال : ليس في المؤتمر الا ثلاثة أساتذة يهود من جامعة برنستن لا يمكن اهمال دعوتهم وفيه أستاذان آخران من جامعات ثانية وهؤلاء الأساتذة كلهم مشهورون في الولايات المتحدة بحيدتهم ، وهم يستمعون ولا يدخلون في المناقشات ، ثم أضاف الى هذا كله : اني لم أدعهم الا بعد أن عرضت الأمر على بعض سفراء الدول العربية فوافقوني على ذلك ولا سبيل الى إغفالهم لمكاتتهم في الجامعات فأنتهت نتيجة هذا الحديث الى الأساتذة الذين كلفوني الوساطة في ذلك وحقاً ان اليهود لم يدخلوا في مناقشة من المناقشات ، فكأنهم لا أثر لهم في المؤتمر .

يوم الأدب

٩ ايلول ١٩٥٣

هذا أول يوم من أيام المؤتمر وقد جروا فيه على القاعدة الآتية : يترأس أستاذ وعلى يمينه وشماله أستاذان من رجال المؤتمر ، كل واحد منهما يلقي بياناً ، واحد يستغرق بيانه عشرين دقيقة وواحد عشر دقائق وبعد فراغهما من البيان تطرح عليهما السؤالات ، فتجري المناقشات وقد يكون الأساتذة على المنبر في بعض الأحيان أكثر من أستاذين . هذه هي الطريقة الأميركية في المؤتمرات .

جعل اليوم الأول للبحث عن اتجاهات الأدب الحديث في بلاد الاسلام وعن السبل الى المحافظة على الأدب القديم في الاسلام وعن أمور تتعلق باللغة .

تقاسم هذا البحث أساتذة من مصر والشام ولبنان وفارس ، تقاسمه أستاذان قبل الظهر وأستاذان بعد الظهر ، قبل الظهر الأستاذ محمد خلف الله أحمد ، عبيد كلية الآداب في جامعة الاسكندرية وصاحب هذه الرحلة ، فصل الأستاذ خلف الله الثقافة في مصر خلال المائة السنة الماضية تفصيلاً

بارعا ، وهو أستاذ رصين ، ثاقب الفهم ، متمكن من الانكليزية وأمضيت القول في الأدب الحديث في سورية ، ولما نهضت للكلام قال لي الدكتور فيليب حتي وهو رئيس الجلسة : معك عشر دقائق ، فاعتنمت الفرصة قبل الشروع في بياني وقلت :

على قدر ما شعرت بكرم الأمريكيان في هذه الديار شعرت ببخل الدكتور حتي ، لقد كلفني الخوض في بحث طوله طول السموات والأرض وقال لي : معك عشر دقائق ، فكأنه أراد أن أكون مليارة نقائه من النقائث في العقد ، فأنا بدلا من أن أبدأ بقولي على عادة الدكتور : بسم الله الرحمن الرحيم ، فاني أبدأ بقولي : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ولما وصلت الى الشيطان الرجيم التفت الى الدكتور فيليب حتي فوسع صدره حفظه الله هذا المزح وابتسست الثغور ، ولاغنى لي في هذا المقام عن الإشارة الى فضل الدكتور المومأ اليه في المؤتمر ، فقد كان روحه وحياته ومحوره ، فهو متشدد في المحافظة على النظام وتنسيق الأمور في عمله وان بلغ خمسا وستين سنة ، ولما فرغ المؤتمر من مباحثه اختصر الدكتور حتي هذه المباحث كلها في جلسة خاصة ، فكان اختصاره مثار إعجاب كثير من رجال المؤتمر ، حتى سمعت أستاذاً يقول : هذه خلاصة ممتازة •

وبعد الفراغ من البيانين كثرت السؤالات ، فتبين لي أن هذا الطرز من المناقشة مضيعة للوقت ، يخرج رجال المؤتمر من الموضوع ثم والتنكيت حتى يخف عناء الجد ، والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح والتنكيت حتى يخف عناء الجد والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح والراحة من حين الى آخر ، ففي كل ساعة يترك الأعضاء القاعة ويدخلون المقصف لشرب الشاي ، فكأن النفوس يتعبها الصبر على الجد والتفكير • لا أريد الاتيان على ذكر كل ماجرى في هذا اليوم قبل الظهر وبعده ،

وانما اکتفي بتدوين بعض خواطر •

في هذا اليوم کثر السؤال عن أثر الشيوعية في أدب العرب ، فکنت أقول اذا جاء دوري : لا أعرف في سورية أدبا شيوعيا وانما الذي أعرفه أن كثيرا من الأدب الشيوعي ينقل الآن الى أدبنا ، فقد كثرت ترجمة الروايات وبعض الكتب الشيوعية وهذا لا يعني أن الأدب في سورية أصبح شيوعيا ، فقد تترجم الروايات الشيوعية كما تترجم الروايات الانكليزية والفرنسية • ثم طال البحث عن تبديل الحروف العربية بحروف لاتينية ، وهذان الأمران لم يصدرا عن أستاذ أميركي وانما صدرا عن أساتذة من الشرق حتى قال أحد الأساتذة الأميركيين :

« الأميركيان آخر من يجب عليهم أن يخوضوا في الكلام على الحروف العربية وتبديلها بحروف لاتينية لأن لغتهم نفسها في حاجة شديدة الى الإصلاح »

وهذا منتهى الانصاف ، وقال أستاذ أميركي آخر :

« يجب المحافظة على الحرف العربي بالنظر الى محاسنه ولا يجوز التفكير في تبديل الكتابة العربية » •

يوم التاريخ

١٠ ايلول ١٩٥٣

خاض في موضوعات التاريخ أساتذة من لبنان والباكستان وتركيا ومصر والعراق وواشنطن ، خاضوا في كل شيء ، بحثوا عن السبيل الى حمل المسلمين على الاعتناء بتقاليد التاريخ وعن السبيل الى خلق وعي في النشء وعن مشكلات دراسة تاريخ الاسلام وعن الأزمة في دراسة آثار الاسلام وفن العمران فيه وفنونه الرفيعة والبحث الأخير تعرض له الدكتور « سميث » وهو من مكتبة الكونغرس في واشنطن •

المباحث كلها مدونة في كتاب المؤتمر ، فقد تعرضوا في هذا اليوم لكتابة التاريخ بأسلوب علمي ، فأراد بعض الأساتذة أن يطبقوا أساليب العلم على الدين والأساتذة الذين جالوا هذا المجال كلهم من الشرق والأميركان يصغون إليهم .

تطبيق أساليب العلم على الدين لا يخلو من نيات مخبوءة ، فكأن أصحاب هذه الفكرة يريدون أن يشبوا وحدانية الله أو نبوة محمد بن عبد الله بالأساليب العلمية ، والايان انما هو مسألة اعتقاد قبل كل شيء فان نبوة محمد بن عبد الله لا تثبت بمعادلات جبرية .

أما أن يكتب التاريخ على الطريقة التي أنشئت له في هذا العصر، أي على طريقته العلمية فهذا لاسبيل الى الاعتراض عليه وأما أن يقفز رجال هذه الفكرة الى إثبات النبوات بطريقة علمية فهذا أمر آخر ، ماأظن أن العلم يدخل في مثل هذه الأمور ، فاما أن أومن بوحداية الله أو بنبوة نبي قلبي واما أن لاأومن بشيء من ذلك ، فاذا دخلت المعادلات الجبرية في أشباه هذه الأمور أفسدتها ، فخير للايمان أن يكون مصدره القلب وحده ، على أن بعض المسلمين في القديم كالمعتزلة أدخلوا العقل في مباحثهم الدينية .

كانت مباحث التاريخ جليلة القدر وانما الاعتراض على طريقة البحث ، فكرة من الشرق وفكرة من الغرب دون شيء من الانسجام وانهم ليبحثون عن البيئة والآثار اذ يبحثون عن المرأة المسلمة .

من طبيعة المؤتمرات أن تنطلق الألسن في كل شيء ، ولذلك لا تؤدي المباحث في المجالس العامة الى نتائج قاطعة في كثير من الأوقات ، على أن بعضهم يرون أن الألسن اذا أفاضت في كل شيء انكشفت الامور ، فتم الاهتمام الى الحقيقة ، قد يكون هذا صحيحا من بعض الوجوه وكيف كان الأمر فقد كان مؤتمر برنستن نتيجة واحدة لا بأس بها ، فقد وقف

الأميركان وأساتذة الشرق على الآراء المختلفة ، وهذه فائدة من فوائد المؤتمر •

دخل أحد الأميركيكان هذه المرة في المناقشات وكان دخوله ذا معنى فقد أراد أن يبحث الباحثون عن نصوص جديدة للقرآن وأظن أن القارىء لا يجهل الغاية من ذلك ، ولكن هذه الفكرة مرت مر السحاب وقيل لي إن هذا الأميركي راع من رعاة إحدى كنائس البروتستان •

يوم التربية

١١ ايلول ١٩٥٣

حدثنا في هذا اليوم أساتذة من الباكستان والهند والأفغان والملايو، موضوع أحاديثهم التربية في بلاد المسلمين •

ولما كنت لأدوّن الا الخواطر التي خطرت ببالي وأنا أسمع الأحاديث رأيت ان أقتصر على حديثين منها ، الأول حديث الأستاذ خليفة شجاع الدين وهو الذي تعرفت اليه في وصولي الى نيويورك ، ثم صادفته بعد شهرين ونصف في القطار على مقربة من سان فرانسيسكو في طريقه الى وطنه ، تكلم على التربية في بلاد المسلمين واذا فتحت دفترتي وجدت فيه بعد أن سمعت كلامه هذه الألفاظ المتقطعة : بحث منسق ، يدل على معرفة واسعة وعلى اطلاع عميق وعلى اختصاص ويظهر أن صاحب هذا الحديث تقلب في مناصب كثيرة وآخرها على ماهو مذكور في ترجمته منصب عضو في المجلس التشريعي في بنجاب ولم يسعني بعد فراغه من محاضراته الا تهنئته وشكره •

والثاني حديث الأستاذ زين العابدين بن أحمد كبير المحاضرين في جامعة الملايو ، فقد وضح هذا الأستاذ أصل الاسلام وتاريخه في الملايو ، لقد توثقت بيني وبينه صداقة متينة ، كنت أمارحه ولم يكن ضيق الصدر

انه خفيف الروح والقل، مسح النفس وهيئته مثل هيئات أهل الشرق الأقصى وله دعاء بالعربية لا يستطيع ذكر كل ألفاظه في مثل هذا المقام : اللهم ارزقني رزقا واسعا و... ضيقاً ، ونعمته وهو يقطع بيتاً من الشعر من أعذب النغم ، يبدأ بالبيت حتى ينتهي منه وكأنه رحي طاحون تدور ، دعانا محمد هاشم ميوندوال القائم بأعمال سفارة الأفغان في واشنطن الى غداء في قصر السفارة وكنا ثلاثة في حديقة هذا القصر التي لا يصل إليها شعاع الشمس من التفاف شجرها وقد اندفعت الألسن في الممازحات اندفاعاً عجيباً لانسجام أرواحنا نحن الثلاثة ، فالقائم بالأعمال السيد محمد هاشم من أهدأ الناس في الظاهر ومن أميلهم الى المزح في الباطن .

فصل الاستاذ زين العابدين بن أحمد حالة التعليم في الملايو ، فكل طفل يجب عليه أن يتعلم القرآن سواء أفهمه أم لم يفهمه ، فالقرآن هو الصلة الوحيدة التي تجمع بين ملايين المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، هذه الصلة يريدون تمزيقها ، إما بالتفتيش عن نصوص جديدة للقرآن وإما باخضاع الايمان للمعادلات الجبرية .
انتهت المحاضرات وشرعوا في المناقشات بحسب العادة ، فكثرت السؤالات ومن جملتها :

هل من سبيل الى تعليم الطفل حتى يستطيع أن يفهم الأشياء بنفسه من دون أن يحفظ الكلام ولا يفهم معناه .
هل من سبيل الى تعليم سكان إفريقيا الذين ينسبط عليهم سلطان الفرنسيين .

كيف يمكن إدخال التعليم الديني على المدارس في البلاد التي فيها أديان مختلفة ، فماذا يكون مصير النصراني في مدرسة إسلامية .
ثم اعترضوا على صعوبة تعليم العربية في بلاد المسلمين وقفزوا قفزة واحدة من هذه الفكرة الى البحث عن القضاء على الأمية في الأماكن البعيدة عن مراكز التعليم .

علق بذهني الاعتراض على صعوبة تعليم العربية في بلاد المسلمين ،
كالملايو وجزء من الهند والباكستان والأفغان وغيرها ، فكأن المسلمين في
الماضي من غير العرب عجزوا عن تعلّم العربية وكان الأعاجم من المسلمين
لم يؤلقوا في لغة العرب التآليف المنقطعة النظير التي كانت مفاخر ميراثنا
الفكري على وجه الدهر ، ولكن لا بد من الاعتراضات !

يوم الإصلاح الاجتماعي

١٢ ايلول ١٩٥٣

تجاذب أطراف الكلام في هذا اليوم أساتذة من لبنان ومصر والهند
وأميركة ، تكلموا على الإصلاح الاجتماعي ولا ريب في أن هذا الموضوع
ذو شأن عظيم .

في جملة المتكلمين سفير مصر في واشنطن الدكتور أحمد حسين ،
ولم نر سفير سورية في المؤتمر وقد قال لي في رحلتي الثانية إنه كان
مشغولا يوم المؤتمر ، دعا سفير مصر أساتذة المؤتمر الى غداء في قصر
السفارة في واشنطن ماأظن ان العقل يمكنه أن يتصور أفخر منه وكانت
السيدة زوجته المحترمة تطوف على الضيوف وتؤنسهم .

بحث السفير عن أطوار الإصلاح الاجتماعي في مصر وقيل إنه
مختص بأمثال هذه المباحثات وله فيها شهرة ذاهبة ، جرى البحث عن
ربط الإصلاح بالدين ، معنى ذلك أن الشيخ في القرية أو المدينة ينبغي له
أن يفهم السكان مقدار موافقة صور الإصلاح الاجتماعي للدين .
ثم نهض ممثل الاخوان المسلمين في مصر ولا يحضرني اسمه وقال
كلمة في الإصلاح الاجتماعي :

الأخلاق لا تعلم الا بالدين

الإصلاح الاجتماعي لا يتم الا بالدين .

أكثر الكلام على الإصلاح الاجتماعي كان على ازدياد عدد السكان في مصر وعلى السبيل الى معالجة الإصلاح في هذه الزيادة .

حضرت بعد الظهر سيدة فاضلة وهي عفيفة سفير مصر وقد درست في كلية الأميركان في مصر ، افتتحت هذه السيدة الجلسة وأذكر أنا لم نجد على منبر المؤتمر سيدة غيرها في كل أيام المؤتمر ، فالسيدات الشرقيات بدأن بشاركة الرجال في أعمال الثقافة والسياسة في الحياة العامة .

تكلمت هذه السيدة بالانكليزية وخاضت موضوع المرأة المصرية وأطوارها ، ولما انتهت من كلامها وكنت اخبر في ذهني عبارة أفصح بها عن شكري لها سبقني الى الكلام استاذ آخر فسألها هذا السؤال : هل ترضى السيدة الفاضلة بما يقع على سواحل البحر في حمامات الاسكندرية في الصيف ، هل ترضى بشئ هذه المشاهد ، وهل هذا كله نتيجة تطور المرأة المصرية ، فظهر عليها أثر التلبك ، فنهض زوجها السفير وقد ظهرت عليه آثار غضب أحب أن يكتمه ، فالتفت إلى الأستاذ السائل وقال له في شيء من الحدة : الشرف يا أستاذ لا يكون وراء الحجاب وحده ، الشرف يكون في الحجاب وفي السفور ، فالحجاب وحده لا يضمن الشرف ، ان هدى الشعراوي لما عادت من اوروبا ومزقت حجابها اعتاضت عنه البرقع على رأسها وهي لم تدع الى الخلاعة والفسق .

يوم الراحة : الأحد

١٣ ايلول ١٩٥٢

سبحان من أراحنا في هذا النهار من السؤالات والجوابات والمناقشات التي لأول لها ولا آخر ، سبحان من متع عيوننا وقلوبنا من مشاهدة جامعة لا أستطيع إفراغ صورها في الألفاظ ، فقد طغنا في هذا

النهار بجزء كبير منها ، طقنا حول دور الطلاب وكلية الهندسة ومعهد الدراسات العالية ومطعم هذا المعهد .

لم يؤثر في شيء في أميركة مقدار تأثير الجامعة وملعبها وحريتها ، فهي عالم مستقل منفرد ، فيه صورة الولايات المتحدة كلها ، فيه صورة الحرية على أوسع معانيها ولا سيما حرية الطلاب والطالبات ولا ريب في أن لبناء تأثيرا قويا في عقول التلاميذ وقد يقال المهم الدرس سواء أدرس الطالب في قاعة وسط أم درس في بناء فخم ، هذا صحيح ولكن أصح منه في معتقدي أن العقل الذي يدرس في جامعة تحيط بها حدائق غلب ومروج خضر وشجر باسق وعشب ناضر لا بد من دخول النشاط عليه ، فإن العقول تتفتح مسالكها في نظير هذه المشاهد وليس الظلام مثل النور ولا الكآبة مثل الفرح والدرس في مثل هذه الجامعة يدخل النور على الأبصار والفرح على القلوب ، يجد الطالب في الجامعة كل ما يحتاج اليه ، يجد المكتبة وفيها كل مصادره ويجد دار الطلبة وفيها غرفته وحمامه ، فلا يسكن أن يتصور عقل شرقي عظمة جامعة برنستن لا من حيث عدد مبانيها ولا من حيث ترتيبها ولا من حيث مكتبتها ولا من حيث سحر الطبيعة فيها ولكني لأعني بكل ذلك ، انما السحر كل السحر في طبيعة الجامعة ، في شجرها ومروجها وخضرتها وهدوئها وصفائها ، هذا أهم شيء في نظري : جامعة في غوطة مثل غوطة دمشق .

ان للعلم منزلة ، ينبغ عالم من علماء الغرب أو رجل من رجال الفن والأدب فتجعل له دار في جامعة برنستن تضحك فيها حديقة زاهية ويقال له : اسكنها وادرس وابحث وتقب ، والحقيقة انه لا يسكنها الا للراحة لأنه درس وبحث وتقب كل حياته وقد حق له أن يستريح ، وفي الدار كل ما يفتقر اليه ، هذا جزاء العلم .

ماأفتن هذا النهار ، لقد طقنا بالجامعة ، ماذا أقول ، انها مدينة قائمة بنفسها ، القرية اسمها برنستن ، فيها شوارع ومخازن وقصور ،

قصور المياسير من أهل نيويورك الذين يفرون في المساء من ضوضاء المدينة الجبارة ، ولكن شهرة الجامعة غلبت على كل ذلك فان برنستن شهرتها بجامعة •

كانوا قديما يقولون لاتكاد تحضرني عبارة للافصاح عن كذا وكذا •• فكنت أقول ماهذه المبالغات ، ولكنني لما دخلت مطعم معهد الدراسات العالية ورأيت رونقه فتشت عن عبارة أصف بها هذه القاعة فلم أهتمد إليها ، فتحقق عندي أن الكاتب لا يستطيع في بعض الأحيان أن يفرغ فكره وشعوره في الألفاظ •

دعني في هذا العجز والضعف ولنبادر الى دار رئيس الجامعة السيد « Dodds » فقد دعانا الى شرب الشاي في داره ، وهو رجل في حدود الرابعة والستين ، له هيئة العلماء ، يسكن قصرأ يسكنه كل رئيس تنتخبه الجامعة والرئيس ينتخبه الأساتذة ويعزلونه ولا حدود لمدة رئاسته ، القصر بسيط ولكنه عظيم ببساطته وحديقة هذا القصر كأنها قطعة من حديقة فرساي •

على احد المناضد تمثال نمر وهورمز جامعة برنستن ، فلكل جامعة رمزها الخاص ولا أدري لماذا اختير النمر ليكون رمز جامعة مثل جامعة برنستن ، قال لي السيد ضودج رئيس المؤتمر ، اختير هذا الرمز لألوانه ليس غير •

لقد كان الرئيس « ولسن » في الماضي رئيسا لجامعة برنستن وكان الطلاب على ماذكر لي يحبونه واذا تأخر عن تدريسه نصف ساعة هاجوا وماجوا ولما رشح نفسه لرئاسة الولايات المتحدة قيل له : انت رئيس جامعة ، فكيف ترشح نفسك لرئاسة الجمهورية ، فقال : رئاسة الجامعة أصعب من رئاسة الجمهورية •

فرغنا من شرب الشاي ومن الفرجة ومن وداع الرئيس وخرجت وفي

نفسي أمنية واحدة : لم أشته أن أكون أستاذ جامعة ولا رئيس جامعة
ولكنني اشتيت أن أكون طالبا في جامعة برنستن •

يوم الشريعة

١٥ ايلول ١٩٥٣

نعود الى المؤتمر ، الى الأخذ والرد ولكنني أحمدا الله على أن نزهة
أمس سهلت علينا الصبر على مناقشات هذين اليومين •

خاض في اليوم الأول في موضوع الحقوق والفقهاء أساتذة من لبنان
واسطنبول وأميركة واليمن •

وخاض في اليوم الثاني في موضوع الشريعة استاذان من سورية
وشرقي الأردن •

والخواطر التي خطرت ببالي في هذين اليومين واحدة ولذلك لم
أفرق بين يوم ويوم كما فعلت في أيام المؤتمر الماضية •

أي السبيلين أصلح ، الاجتهاد أم المحافظة على النص ، وقد رأوا
بعد هذا السؤال أن الأصلح إنما هو الرجوع الى مبادئ الاسلام
الموافقة للزمن والثقافة ، ثم تعرضوا للأسباب التي وقفت بالمسلمين ومنها
سد باب الاجتهاد ، فبهذا السد وقف التفكير في الاسلام وقالوا ان
الشريعة لا تقبل سد باب الاجتهاد •

استاذ يريد المحافظة على روح الشريعة بأخذها بأسباب الاجتهاد
واستاذ يرى ان ينقض الشريعة تقضا ، وقد كثرت في هذا الباب السؤالات
والجوابات والمناقشات وهذا مايدلنا على أن أمور الدين حساسة على
تعبير هذا العصر ، فالمناقشات كثرت في هذه الأمور كما كثرت في الأدب
في الأمور المتعلقة بتغيير حروف الكتابة أو بتعديل قواعد النحو لأن

نظائر هذه الموضوعات تدخل في امور العاطفة والعاطفة لا تقبل عادة الأخذ والرد على خلاف العقل الذي خلق لمثل هذا الأخذ وهذا الرد .

كثرت المناقشات وأظرفها هذه الطريقة : يطرح أحدهم سوآلا باللغة العربية ثم يطلب الى أستاذ آخر أن ينقل سوآله الى اللغة الانكليزية ، فتضيع المناقشة بين أصل السؤال وبين ترجمته، ثم يطرح على أستاذ سوآل باللغة العربية ويطلب الى أستاذ آخر أن ينقله الى اللغة الانكليزية ، فيلقي الأستاذ الأخير السوآل باللغة نفسها أي اللغة العربية فيشتد الضحك ، وهكذا تجد أن المناقشات لا بدء لها ولا منتهى .

وبعض المحاضرين يعرضون موضوعهم على الوجه الآتي : انهم بدلا من أن يعرضوا مبدأ عاماً واحداً فانهم يدخلون في التفاصيل ، فيفتحون باباً للاعتراضات الكثيرة .

بلغت النوبة في اليوم الأول لمثل اليمن وهو شيخ في حدود السبعين ، قصير القامة ، نحيف البنية ، قوي المعدة ، جلست وإياه في فندق وسط في واشنطن فجعل يسر يده على مقاعد هذا الفندق وهي غير وثيرة ويقول : ماشاء الله ! من أين يؤتى بهذه الخيرات ، فعجبت من هذا العجب وقلت له : كيف تجلسون في بلادكم ، أعلى الحصير ، قال : نعم .

بحث هذا الشيخ عن الحرية ، فأباح للناس سرقة الحكومة وأباح السرقة في الجوع ولذلك لا تطبق على السارق الحدود في مثل هاتين الحالتين ، لم يغادر كبيرة ولا صغيرة ، تكلم على الدين وعلى اتساع اليمن ورآء البحار وعلى التأليف وعلى البعثات ، على كل شيء ، لقد عرض علينا صورة اليمن سوآء أكانت هذه الصورة سريعة أم كانت بطيئة .

لم أجد في دفترتي تعليقا على المناقشات في الشريعة ولكنني أذكر أن الأستاذ السوري وهو زميلي الشيخ مصطفى الزرقا أحب في محاضراته

أن يعرض على رجال المؤتمر شريعة الاسلام مجملة حتى يحيط كل واحد منهم ولا سيما الأميركان بجملة مبادئها وقد يجوز أنه أصاب بعض الاصابة في هذا الاسلوب ، ولو كان المؤتمر يجمع رجالا مسلمين كلهم ، يعرفون العربية حق المعرفة لكان من المستحسن عرض ناحية واحدة من نواحي الشريعة ، فان حصر الموضوع في زاوية واحدة خير من تبديده في زوايا شتى ، أما وقد جمع المؤتمر رجالا مسلمين وغير مسلمين ، بعضهم يعرف العربية وبعضهم لا يعرفها فلا بأس بأن تعرض عليهم تفاصيل موضوع لاجملته ، حتى يكون لهم رأي عام في هذا الموضوع .

ثم كثرت السؤالات والجوابات .

هل خالف العباسيون الشريعة كمثّل ايراثهم الخلافة أبناءهم .
 هل تبنى الشارعون المسلمون شيئا من الشرائع المجاورة كشرائع الفرس والروم وغيرهم .

هل في الاسلام ما يمنع عن الأخذ عن فقه بعض الأمم .
 هل من الضرورة أن يكون الامام فرداً أم جماعة .
 مناقشات طارت في الهواء كما كان يطير دخان السجائر .

يوم العلم

١٥ ايلول ١٩٥٣

كانت المناقشات في العلم بعد الظهر هادئة لأن موضوعها العلم واللعلم هبة لا يتعرض له كل واحد . دخل في موضوع العلم أستاذان ، الأول من انقرة وهو رئيس قسم الرياضيات في جامعتها والثاني استاذ في جامعة Michigan وأظنه سوري الأصل : الدكتور لطفي السعدي . جرى ذكر مقدار حث الدين على العلم وقالوا إن العلم لا يتصل بالاسلام ، فخطر ببالي أن أستشهد بالجاحظ في هذا المقام لأرد على الذين

قالوا إن العلم لا يتصل بالاسلام ولكني آثرت أن أجعل هذا الموضوع في محاضرة خاصة فيها في واشنطن في المركز الاسلامي في المسجد وهكذا فعلت .

قال رئيس الرياضيات في جامعة اقنرة في بيانه : ولكن العلم بحد ذاته غير مرتبط ارتباطاً منطقياً بالأخلاق فسألته هذا السؤال وقلت :

ان للعلم هبة فلا يستطيع المرء أن يناقش فيه من دون أن يجعل يده على قلبه وأنا أطرح سوآلي ويدي على قلبي بدلا من الواحدة ، يقول الأستاذ الكريم في بحثه الموجز : ولكن العلم بحد ذاته غير مرتبط . . الى آخر العبارة .

يرى بعض العلماء في عصرنا هذا أن تكون الأخلاق بعد اليوم مرتبطة بالعلم وحجتهم في ذلك أن للعلم قواعد ثابتة ، ان له طرائق خاصة في انصدق والأمانة وطلب الحقيقة وما شابه ذلك ، فاذا ارتبطت الأخلاق بالعلم استفادت بهذا الارتباط ونحن الآن أمام فئات مختلفة في تقرير الأخلاق :

فئة تريد أن تكون الأخلاق راجعة الى الدين .
وفئة تريد أن تكون الأخلاق موضوعا مستقلا من موضوعات الفلسفة .

وفئة تريد أن تكون الأخلاق راجعة الى العلم .
فما هو رأي الأستاذ في هذا الباب وأنا أطرح سوآلي عليه ولست مستعداً للمناقشة .

فقال الأستاذ ما خلاصته :

ان العلم ليس له أخلاق وضرب لنا مثلا لذلك : اذا رجعت عاملا بحجر يعمل على مقربة مني فان هذا الحجر ينطلق من يدي فيصيب العامل بقانون ميكانيكي ، فيكسريده ، فكسر اليد تابع لقانون من قوانين

العلم ، فكيف نريد أن نجعل الأخلاق مرتبطة بالعلم ، ثم خلا الي بعد المناقشات وضرب لي مثلاً آخر بيني وبينه وقال لم أستطع ذكر هذا المثل في الجلسة :

ان القبلة الذرية التي يخترعونها إنما هي من العلم ومع هذا فانها تهدم المدن وتقضي على الناس ، فهل هذا من الأخلاق ، فالإنسان ينبغي له أن يستخدم العلم لأمر خلقية •

إن بيني وبين الأستاذ شيئاً من سوء التفاهم ، اذا كان العلم بذاته لأخلاق له فان طريقته مبنية على أمور خلقية كالصدق والأمانة والحقيقة وما شابه ذلك ، فالذين يريدون أن يجعلوا الأخلاق راجعة الى العلم انما يريدون أن يجعلوها راجعة الى طريقته ، الى هذا الصدق وهذه الأمانة وهذه الحقيقة ، لا اليه نفسه •

يوم الفلسفة

١٦ ايلول ١٩٥٢

كان موضوع الفلسفة من أخضب الموضوعات ، فقد تصدى له أساتذة أفاضل ، منهم الدكتور محمد البهي أستاذ الفلسفة في جامعة الأزهر في مصر ومنهم الدكتور شفق من طهران وكان في خلال المؤتمر أستاذاً زائراً يحاضر في جامعة كولومبيا في نيويورك ، ومنهم الدكتور فضل الرحمان المحاضر في جامعة « Durham » في انكلترا وغيرهم •

سمعنا الدكتور البهي وقد تعرفت اليه واتفقت صداقة بيننا وهو رفيق الأستاذ خلف الله عميد كلية الآداب في الاسكندرية ، انه أسمر اللون قصير القامة ، مملوء البدن ، منسق العقل ، درس في المانية وتغلب عليه نزعة دينية قوية كما تغلب على رفيقه الأستاذ خلف الله ، موضوع محاضراته على ما أذكر : الاتجاهات الفلسفية في الاسلام وموقفها من الأفكار الحديثة في جماعات المسلمين ، دافع دفاعاً قوياً

وكان أثر الاتفعال الصادق ظاهراً عليه ، تكلم على الذين يريدون أن يفصلوا الدين عن الدولة وضرب أمثالا من التاريخ ومن أقواله : الناس يتكرون او يتبعون أو يقلدون والناس ينقدون أو ينون وهو يرى أن بعض الخطب التي ألقيت في المؤتمر يرمى فيها الى الهدم لا الى البناء، هذا لا يصوم فيقول لماذا يصوم الانسان شهراً وهذا لا يصلي فيقول لماذا لانعدل الصلاة والأستاذ بليغ في دفاعه •

ثم فصل حركة الاصلاح والمصلحين في الاسلام من ابن تيمية الى محمد بن عبد الوهاب ، الى الأفغاني ، الى محمد عبده ، الى محمد اقبال في الهند ، الى السنوسيين وشرح رأي كل واحد من هؤلاء المصلحين وبين أسلوبه في الاصلاح وذكر أن كل حركة من حركات المصلحين في هذا العصر كانت ترمي الى مقاومة المستعمرين والخلاصة إن الاسلام في العصر الحديث يأخذ عن اتجاهات الفلسفة الغربية الحديثة ما يعين على حرية الفرد وتوجهه نحو أفق أعلى في الفلسفة ويقاوم غير ذلك •

هذا نموذج من آرائه ولم أذكر ما ذكرت الا للقوة التي رأيتها في وضع الخطيب وكلامه ، أما أفكاره فلكل واحد حرية تامة فيها • ثم أخذت السوالات تنصب بحسب طريقتهم في المناقشة :

هل كان للأفغاني ومحمد عبده وغيرهما صلة بالسلطان عبد الحميد، وهم يريدون بذلك أن يقولوا : هل ثار المصلحون على المستعمرين وحدهم أم على السلطان عبد الحميد أيضا •

هل في اصلاح محمد بن عبد الوهاب فتح لباب الاجتهاد •

وقد كانت الجوابات أن ثورة محمد عبده كانت على عبد الحميد وعلى العلماء وأن محمد بن عبد الوهاب رجع الى ابن حنبل ، وابن حنبل من المتشددين •

أما الدكتور شفق فقد تكلم على الغزالي وفصل فلسفته وكان يظهر

على كلامه أنه متمكن من موضوعه ، قابض على زمامه ، وليست غايته التلخيص وانما أذكر في هذه الفصول ما قيد نظري في خلال المؤتمر ، فمن السوالآت التي طرحت سوال أحد الأميركان ، قال :

لم أقرأ في كتاب الاحياء للغزالي ولكني سمعت أن فيه آراء في الاشتراكية والشيوعية ، فهل أثر بأرائه الشيوعية في المسلمين الشيوعيين؟ الشيوعية غول أميركة ، فهي تسمح بكل شيء الا باتتشارها في بلادها . وآخر ما استمال ذهني اليه في هذا اليوم ، يوم الفلسفة ، كلام للأستاذ الهندي الدكتور فضل الرحمان المحاضر في جامعة « درهم » وهو أستاذ هادى المزاج ، دافع عن فلسفة الاسلام ، لأن من الأقوال التي استفاضت في اروقة المؤتمر قول أستاذ شرقي سمعته عرضا يقول : الاسلام ليس له فلسفة .

قال الدكتور فضل الرحمن :

يقول المستشرقون ان العرب لم يخلقوا فلسفة وان لغتهم تضيق عن الفلسفة ، وقد أثر هذا الرأي في العقول ، فأنا أقول إن الاسلام أخذ الفلسفة عن اليونانيين ، وهم وثنيون ، فلم يقبل المسلمون هذه الفلسفة على علاتها وانما أفرغوها في قالب إسلامي وهذا الافراغ يعد إبداعا في الفلسفة الاسلامية .

هذا كلام مختصر ولكن فيه روحا .

وكان آخر الخطباء في مؤتمر « برنستن » الحاج اغوس سليم احد وزراء الخارجية في « اندونوسية » تكلم على المسلمين في العالم واندونوسية ، وكانت فاتحة كلامه شكر جامعة برنستن والاشارة الى مؤتمرها الذي مهد لعلماء المسلمين سبيلا الى الاجتماع والتعارف والتجادل في موضوعات جلية .



نخرج في هذا المساء من مؤتمر « برنستن » وقد شهدنا فيه كل شيء ، سمعنا مباحث منسقة ، وسمعنا مناقشات فوضى ، رأينا اساتذة متزينين ورأينا اساتذة غايتهم الظهور ، سمعنا سوآلات مطابقة للعقل وسمعنا سوآلات من ورآئها التهديم ، ولمسنا جمودا في العقول ولمسنا مرونة في الأذهان ، وتبين لنا اعتدال في التفكير وتبين لنا اشتطاط في التجديد ، ووقفنا على نيات مخبوءة تستعد للظهور وتخشى المقاومة .

كل هذا رأيناه في رجالات المؤتمر ، أي في رجالات الشرق ، وكيف كان الأمر إن مؤتمر الثقافة الاسلامية كان له صدى بعيد في أميركة ، ففي كل جامعة من جامعاتها كانوا يسألونني : كيف كان المؤتمر ، لاشك في ان جامعة « برنستن » لم تضع وقتها في خلق هذا المؤتمر ومن يدري فقد تنشط جامعات في المستقبل الى خلق مؤتمرات من هذا النوع في ربوع أميركة كلها ، فيتم التعارف والتقارب .

١٧ ايلول ١٩٥٣

شرعت في هذا الصباح في الاستئناس بالطبيعة في أميركة لقد أنهى المؤتمر أعماله في « برنستن » وكان علينا أن نتممها في « واشنطن » فركبنا القطار الى العاصمة ، وقد رجعت الى دفثري فلم اجد فيه جملا منطقية وانما فيه كلمات متقطعة ، وهذا خطأ كاتب الرحلة ، فقد يلزمه أن يدون خواطره في النهار على أي شكل كان وأن ينسقها في المساء أو في الليل حتى لاتضيع الصور في ذهنه ، ولم أفطن الى هذا العمل الا بعد وصولي الى « سان فرنسيسكو » وكنت قبل ذلك ادون في دفثري صورا متقطعة واعتقد انها ترسخ في الذهن الى حين الكتابة وهذا خطأ ، وعلى الرغم من هذا كله إني أذكر استناداً الى الصور المقتضية أن العين في الطريق كانت تقع على صحارى من شجر بدلا من أن تكون صحارى من رمال ، فالشجر على الطريق آخذ بعضه برقاب بعض وهذا يدل على أولية

أميركة ، فقد كانت غابات ، ثم قطع أكثر الشجر وحولت الى مدن ومصانع
فكنت أرى الشجر من جهة والمصانع من جهة ، ثم أرى الأنهار وقد كنت
دونت اسماء المواقع التي مررنا بها ولكن ما الفائدة في هذا التدوين
ولعل Philadelphia أشهر المدن التي قطعناها ، وهل أنا أولف
كتابا في تقويم البلدان ، ان هي الا خواطر خطرت وأنا على الطريق ، من
هذه الخواطر دهشتي للاعلانات ، فلاتر على موقف إلا وجدت الاعلانات
على الجدران وأي غرابية في ذلك ، فان الصناعات في أميركة كثيرة ولا بد
لها من الرواج ، والاعلان اعظم مروج في هذا العصر .

تخرج من موقف الى موقف ، فعوضا عن أن تجد سلاسل من جبال
فانك تجد سلاسل من شجر يتصل بعضه ببعض وتجاوز من حين الى آخر
أنهاراً كأنها بحيرات يطيف بها الشجر ، ثم تمر بموقف واقع على البحر
« Perville » فتمر بمنظر رائع ، يجري القطار بك والبحر من جهة
والغابات من جهة والجسور معقودة على البحار ، فمن رؤية البحر الى
رؤية الغابات ، ومن رؤية الغابات الى رؤية البحر ، والقطار سائر بين
هذين المشهدين في هذا النهار الذي صفا جوه وأشرقت شمسه ، فكأنك
في الشرق ، فما أروع هذه المناظر بعد مؤتمر تعبت فيه العقول وكثر فيه
الأخذ والرد ، ما أروع هذه الرياضة البدنية بعد تلك الرياضة العقلية .
ومما يزيد في محاسن هذه الغابات التي نستع العين منها دور صغيرة
مبعثرة بين شجرها ، فالمعامل الى جنب الغابات ، والغابات الى جنب المعامل
وقد يكون بين الدور مسافة في بعض الأحيان ، وقد تكون في أحيان ثانية
ملزوزة ، كل دار قد لزت الى أختها .

ماذا هجس في صدري وأنا أشهد هذه المشاهد ، لقد وجدت في
دفثري هذه العبارة : أميركة بنت العلم ، بنت الآلة ، انها لا تؤمن الابسا
تراه العين وتلمسه اليد ، فالكلام وحده لا يقنعها ، انها تريد العمل ، انها
تسمع الكلام على شرط ان يكون مؤيدا بالعمل .
لقد أسمعنناها كثيراً من الكلام ولم نرها شيئا من العمل .

واشنطن WASHINGTON

لم أظن في دخولي « واشنطن » الى شيء من خصائصها ، فالانسان في مثل هذه الحال همه الأول أن يستقر في الفندق وأن يطمئن الى غرفته وهكذا كان الأمر ولعل أول شيء حبس ذهني أمر لا يخطر على بال أحد، في الفندق الذي قصدت اليه في جيئتي الأولى الى « واشنطن » واسمه : Continental Hotel حلاق وأكثر الفنادق فيها حلاقون وقد كان شعري طويلا ، فذهبت الى الحلاق لقصه ، فلما فرغ من القص وقست عن الكرسي جاء بمكنسة وحاول تنظيف ثيابي مما تناثر عليها من الشعر ، فدهشت في أول الأمر ثم ضحكت وأخذت بيده وأبعدتها عن ثيابي وشكرت له هذا الاهتمام البالغ ، مدينة مثل « واشنطن » لا يستعمل فيها الحلاق منفضة لتنظيف الثياب وانما يلجأ الى مكنسة ، أفليس هذا من غرائب الأميركان .

مالي وللغرائب ! كان علي أن أحضر مؤتمر الثقافة الاسلامية في « واشنطن » ثلاثة أيام متوالية : ١٧ ايلول و ١٨ ايلول و ١٩ ايلول ، في اليوم الأول جلستان ، جلسة بعد العصر وجلسة بعد العشاء وفي اليوم الثاني ثلاث جلسات : جلسة في الصباح وجلسة بعد الظهر وجلسة بعد العشاء ، وفي اليوم الثالث جلسة واحدة في غروب الشمس ، لقد حضرت المجالس كلها ولكنني أعترف في هذا المقام بأن انتباهي قد قل واهتمامي قد ضعف ، فكاد الضجر يدخل على صدري ، فلو انتهى المؤتمر في

« برنستن » لكان هذا الانتهاء خيراً ، فقد طفقت أشعر بأني أصبحت آلة ميكانيكية لإرادة لي في حركتها وسكونها ، تأتي السيارة لتتقلني الى المؤتمر ، فأركب ، ثم تأتي لتخرجني الى الفندق فأخرج ولم تبق لي لذة في هذا كله وانما لذتي في البعد عن المؤتمر حيث طفقت أشعر بأني مقيّد بالمجيء والذهاب ولم أفطن الى هذا الشعور في « برنستن » فقد كنت أحضر المؤتمر وأنصرف واللذة تملأ نفسي ولست أدري لماذا أوشكت هذه اللذة أن تصير الى ألم في « واشنطن » وأظن ان هذا ناشيء عن ان المؤتمر طالت أيامه .

من أجل هذا كله لم أدون شيئاً في الأيام الثلاثة ، ما خلا الإشارة الى خطبة خطبها أستاذ الفلسفة ، سيأتي ذكرها ، على أن أكثر الذين تولوا الكلام في هذه الايام الثلاثة هم أميركان ، جماعة منهم من مكتبة الكونغرس ، بعضهم رحب بأعضاء مؤتمر الثقافة الاسلامية في مجيئهم الى « واشنطن » وبعضهم تكلم على شيء من آثار الاسلام وعمرانه وفريق لخص طائفة من المناقشات في مؤتمر « برنستن » وفريق يمين المجموعات الاسلامية في مكتبة الكونغرس ، وأستاذ من الهند استأنف الكلام على قضايا تتصل بالاسلام كالايمان مثلاً ، لم أدون شيئاً من هذا كله على أن الخطب كلها أو خلاصتها مذكورة في كتاب المؤتمر ولكنني لاأستطيع أن أمر بخطيبين دون الإشارة اليها .

الاول الدكتور Evans مدير الاونسكو العام وكلامه على الاونسكو كان هذا الخطيب وهو جالس على الكرسي قبل الخطابة كالرمح المركز في الأرض على تعبير الجاحظ ، لايتلحح ولا يهيج ولا يبالي بخطبة خطيب أو بعبارة رائعة أو بفكر صائب وهو قوي التركيب ، قوي الدماغ لقد قرأ خطبته وكأنه آلة صماء .

والثاني الدكتور Northrop أستاذ الفلسفة والحقوق في جامعة Yale ولم أجد عنواناً لخطبته ولكن لها صلة بالاسلام وبفلسفة

أفلاطون ، هذا الخطيب مناقض للخطيب الأول ، انه من طراز آخر ، انه هائج مائج ، كثير الحركات في خطبته ، كثير الانفعالات ، ملك شعور الجمهور واستولى على قلوبهم ، لقد شهدت في هذا المساء أثرا من آثار بلاغة الخطابة ، ارتجل خطبته ارتجالا ، فكاد يخرج عن نفسه وهو يقذف بالكلام كالبحر الهادر ، كان « هوغو » يقول : اذا أردت أن تستبكي فابك ، والدكتور « نورثروب » لم يشأ أن يستبكي وانما شاء أن يحرك ولذلك تحرك في خطبته حتى كنت أعتقد أنه كاد يخرج عن موضوعه لكثرة اهتزازاته وحركاته واحمرار وجهه ، فكان يميل من الشمال الى اليمين ومن اليمين الى الشمال ولكنه لم يخرج عن موضوعه ، وانما ضبط هذا الموضوع أدق ضبط ولما بلغ منتهاه هدأت حركاته وخف صوته وضعف انفعاله ، وهذا ما أثبت لي أنه كان يقبض على زمام الموضوع وما فرغ من آخر كلمة في الخطبة حتى دوى التصفيق في القاعة وحتى تراحم الناس عليه لتنهئته وهو واثق ببلاغته وبعظمته ، فلم ينبس وكنت في جملة المهئين وطلب الي أن أكتب له اسمي •

لقد استغربت هذا الموقف الاستغراب كله ، لأن الذي أعرفه أن خطباء الانكليز كلما كثرت حركاتهم واساراتهم ومظاهر بلاغتهم قل تأثيرهم في الجمهور فالخطيب الانكليزي يجب عليه أن يكون كالصنم ، أما الخطيب الأميركي الذي شهدته فلم يكن الا لحما ودما وروحا ، قيل لي انه قذف في خطبته بعبارة وأنا لم أفطن اليها ، فانه تكلم على حضرة الرسول ، فقال في جملة ما قال : لقد بلغ من صوفية محمد أنه اتصل بالاله فلم يكن حجاب بينه وبين الله عز وجل وفتشت وأنا أكتب هذه الخواطر في خلاصة خطبته المدونة في الكتاب الأخضر فلم أهتد اليها •

هذا آخر مشهد من مشاهد المؤتمر الثقافية الاسلامية ، فلنودع هذا المؤتمر في هذه الأمسية اللينة الناعمة ولكننا لم نودعه الا بعد أن زرنا في خلال أيامه الثلاثة في « واشنطن » مكتبة الكونغرس ودار المتحف

وشربنا الشاي في ساحة مكشوفة كأننا في دار من دور دمشق القديمة .

أما المكتبة فأظن أنني عاجز عن وصفها وأظن أن اللغة تضيق عن وصف دقائقها ودقائق بنيانها وفسيقاتها ، يكاد الانسان يضيع في أروقتها ، فإذا عرف المدخل فلا يهتدي الى المخرج ، فهي لم تنل هذه الشهرة في العالم عبثا وقد بني المتحف بهبة رجل انكليزي لا يعرف أميركة ، هذا ما قيل لي ولا أستغرب ذلك بعد أن رأيت أن أكثر المباني في جامعات أميركة قد بنيت بأموال أفراد من الأميركان .

وأما دار المتحف فإن الانسان يبلغ عجبه منها كل مبلغ ، يعجب من هذه البسط الفارسية ومن هذه القناديل والآواني التي كانت في عصور الاسلام .

٢٢ ايلول ١٩٥٣

دعانا الرئيس ايزنهاور الى زيارته في القصر الأبيض ، وأرسلت دعوة خاصة الى كل رجل من رجال المؤتمر وقد احتفظت بهذه الدعوة ، فقد تقعتني في خروجي من كندا وسأذكر ذلك .

لا يقعن في خلد أحد أن القصر الأبيض الذي ذهبته شهرته في الدنيا قصر فخم منيف ، انه بسيط جدا وأقل غني يسكن قصرا أفخم منه ، وقيل لي إن الأميركان لا يحبون المظاهر العظيمة لأنها تخالف مبادئ الديمقراطية ، فإذا صح هذا القول فاني أستغرب هذه الفكرة الاستغراب كله .

يقع القصر في هذه الجهة من واشنطن التي تشبه « الشان اليزه » في باريز ، دخلنا باب الحديقة ، فاستوقفنا شرطي على الباب وطلب الينا أن نكتب أسماءنا ، ففعلنا ، ثم دخلنا القصر فوجدنا الناس ينتظرون في غرفة الانتظار وأكثرهم من رجال الصحافة ، فانتظرنا في غرفة خاصة قريبة من

غرفة الرئيس مقدار خمس دقائق ، ثم طلب اليّنا أن ندخل صفا مستطيلا ، كل واحد وراء الآخر ، وقد رتب الدخول بحسب الدول التي نسلها ، دخلنا الغرفة فوجدنا الرئيس جالسا امام منصدته ، رئيس بسيط ليس عليه أثر من آثار العظمة ، وغرفة بسيطة ليس فيها شيء من الفخامة ، لافي زينتها ولا في فرشها ولا في تصاويرها ، فقدمنا السيد ضودج ، ثم وقفنا على يمين الرئيس وعلى شماله وصورونا صوراً كثيرة وعرضت هذه الصور في دور السينما ولما استقر بنا الوقوف ارتجل الرئيس ايزنهاور كلمة ليس فيها شيء من التصنع ، وأذكر أنه قال في جملة ما قال : ان أميركة أهملت في الماضي صلتها بالشرق ، أمّا اليوم فانها تريد أن تتلافى هذا الأمر فتتصل بالشرق كله ، وترغب في أن يكون هذا الاتصال مبنيا على اسس الثقافة ، لأن الثقافة وحدها هي التي تؤلف بين الشعوب ، هذا بعض ما بقي في ذهني من كلام الرئيس ، وقد تكلم على الشرق وعلى عدد المسلمين في العالم كله ولكن كلامه لم يطل وقضينا في حضرته نصف ساعة ثم ودعناه وانصرفنا .

أذكر اني سألت بعد الانصراف رجلا من رجال وزارة الخارجية قلت له : هل تقرأ خطبة الرئيس في صحف المساء ، قال : اني أشك في ذلك ولا يخفى عليك السبب ، لقد فهمت مرمى قوله ، كأنه يقول إن الخطبة لايسكن أن تظهر في الصحف مراعاة لليهود ، فلنتدبر مبلغ تأثير اليهود في أميركة .



هذا آخر يوم من الايام الرسمية ، انطلقنا من كل قيد ، من قيود المؤتمر وقيود الزيارات وخلا كل واحد منا الى نفسه ، يتصرف في أموره كيف شاء ، لقد أصبحت أستطيع الجولان في واشنطن ورأيت أن أحسن شيء في معرفتها انما هو ركوب سيارة عامة والتفرج في المدينة ، لم ادوّن

في دفترتي خواطري التي خطرت في هذه الفرجة ولكنني أذكر أنني مررت
بحديقة الحيوانات وبيحيرات ودخلت بناء عظيمًا فيه تشال الرئيس
« واشنطن » وشهدت على بحيرة تشال الرئيس « Lincoln » ثم
أذكر أن « واشنطن » كان لها أثر عظيم في نفسي ، انها قبل كل شيء
خالية من المعامل والمداخن وليس في قلبي أيسر ميل الى المدن التي يخنقها
دخان المعامل ولا يضيق صدري في موضع مقدار ضيقه في المعمل ، أمافي
شلالات « نياكرا » فقد تمنيت أن يمضي علي أسبوع فيها لانهار واحد
أجل ، « واشنطن » خالية من آثار هذه الحضارة المادية القتالة ، انها
مدينة العظمة ، تظهر آثار العظمة على أجوائها وعلى مكتبة الكونغرس
وعلى يسير من المباني العامة ، على الرغم من زهد الأميركان في مظاهر
العظمة ، بنيت « واشنطن » على طرز باريز ، قيل لي ان المهندس الذي
خططها فرنسي ، حقا ان الشارع الممتد من الفندق الذي نزلته الى القصر
الأبيض والكونغرس ومكتبة الكونغرس يشبه شوارع « الشان اليزه »
فيه حدائق رحبة وفي الحدائق برك ماء وابن دمشق يؤنسه الماء قبل كل
شيء ، « واشنطن » فيها للطبيعة مجال واسع ، فيها الضواحي الضاحكة
وقد أقامت السفارات في حي يغطيه الشجر من جميع النواحي ، فلوخيرت
ما اخترت الا الإقامة بواشنطن بسبب هدوئها وعظمتها ، وعلى الرغم من
هذا كله يجد الانسان أن شوارعها تحتاج الى شيء من النظافة ، فقد
جلت في هذه الشوارع أنا وصديق درس في ألمانية ، فقال لي لو كانت
« واشنطن » ألمانية لاستطعت أن تشعر بمبلغ نظافتها وأظن أن هذا كله
انما سببه أزمة الخدم ، وللعبيد في « واشنطن » حي خاص ومطاعم
خاصة ، فكأنهم هربوا من ضغط الجنوب ليدوقوا في « واشنطن » بعض
الحرية وبعض المدن في أميركة فيها أحياء خاصة للعبيد ولكن طرز الدور
في هذه الأحياء لا يختلف عن طرز الدور المجاورة ، انما خصائص هذه
الأحياء زحمة السكان وقلة النظافة .

عشاء .

فرغت من كل شيء في « واشنطن » ولم يبق علي الا تلبية دعوة موظف من وزارة الخارجية لايحضرنى اسمه الى العشاء في داره ، لابل في قصره ، انه يقيم بالضواحي ، فقد سار بنا في سيارته من واشنطن الى الضاحية وكنا ثلاثة أو أربعة ، سار بنا في طريق ثرت عليها البحيرات والشجر والحدائق والتلال حتى وصلنا الى قصره ، انه قصر رائع ، تتصل حديقته بالبحيرة .

جلسنا في البهو ريثما يهيء لنا العشاء ولما هيء الأكل دعينا الى الطعام والذي رأيته أن صاحب الدعوة صاحب دين راسخ ، فقد بدأ بالصلاة قبل أن يبدأ بالأكل ، ثم جيء بالطعام ، إن في القصر طاهيا من حلب ، لقد سئنا الأكل الأميركي واشتقنا قليلا الى أكلنا وستأتي الإشارة الى أكل الأميركيان ، ملنا الى أكلنا في الشرق ولست أدري هل من قلة الذوق أن أقول انا أكلنا أكلا لاشرقيا ولا أميركيا ، فما كنا نعرف ماذا نأكل ، وقد أحببت أن أملا معدتي بالخبز ، فطلبت الخبز ، فاعتذرت صاحبة الدار وقالت : لاخبز عندنا ، معنى هذا ان اللون الذي نأكله لا يحتاج الى الخبز ، فقمنا عن السفرة ، فأنسانا أدب صاحب الدعوة وتهذيبه ورقته شدة جوعنا .

قمنا عن السفرة فطفنا حول مختلف الغرف ، من هذه الغرف غرفة لأولاد صاحب الدعوة فيها لعب ، من جملة اللعب قطار يسير على قضبان حديد ، فالطفل الأميركي يفتح عينيه على الآلة ، على الحديد ، على المعمل ، هذه هي الحضارة الأميركية وأظن أن كثيرا من رجال الفكر قد تعبوا من فرط هذه المادية ، فأرادوا أن يوجهوا أميركة نحو يسير من الروحانيات وعندي وأنا أكتب هذه الرحلة كتاب أهدته الي فتاة أميركية أدبية ، اسم الكتاب : هذا ماؤمن به ، الكتاب يشتمل على مائة مقال لمائة كاتب وكاتبة ، كل مقال يحتوي على مايقرب من سبعمئة لفظة ، المقالات كلها

توجيه نحو الروحانيات ونحو الله ونحو الديمقراطية •
 خرجنا من ملعب الأطفال فدخلنا بهواً فرش بالسجاد وصفت فيه
 الصواني وأدوات القهوة والنحاس وعرض فيه سلاح من الشرق ، وأظن
 أن صاحب الدعوة كان مرة في دمشق فأولع بهذا النحو من الفرش ، ثم
 تركنا البهو فجلسنا في غرفة صغيرة نصغي الى خطبة خطبها الرئيس
 أيزنهاور في هذا الجهاز الذي يسمونه Television وهو تسلية
 الأميركان الوحيدة في الدور والفنادق والمطاعم •
 ولما بلغت الساعة الحادية عشرة ودعنا السيدة وأطفالها وعاد بنا
 زوجها الكريم الى الفندق •

برنامج الرحلة .

أشرت في كلامي على وصولي الى المطار Idelwild الى السيد
 « مارشال روث » الذي استقبلني فيه ، يعمل السيد « روث » في مؤسسة
 الشرق الأوسط في واشنطن ، قيل لي إن هذه المؤسسة ينفق عليها رجل
 غني من أغنياء أميركة فيها بعض الموظفين وفيها مكتبة صغيرة وهي تصدر
 مجلة مرتين في الشهر تنشر فيها أخبار الشرق ، عهد الى السيد « روث »
 أن يرتب رحلة أعضاء المؤتمر الى بعض ولايات أميركة ، عليه أن يضع
 جدولاً تذكر فيه الأماكن والمدن التي يرغبون في زيارتها والفنادق التي
 ينزلونها وعليه أن يقطع لهم تذاكر السفر بحيث يذهب كل عضو الى
 المدينة التي يزورها وكأنه ذاهب الى داره فلا يعنى بالتفتيش عن فندق
 ولا يقطع التذكرة لأن محله في القطار وفي الفنادق محجوز من بدء
 الرحلة وهذا أبلغ ماشهدته من العناية والسيد « روث » نشيط كل
 النشيط ، منظم كل المنظم ، فقد رتب رحلة الأساتذة فلم يختل أمر من
 أمورهم ، فكان عمله موضع إعجابهم كلهم ، فكانوا يثنون عليه أطيب الثناء •
 اتصل بي السيد « روث » وسألني : ماذا تحب أن ترى في أميركة ،

قلت له : الطبيعة والجامعات قبل كل شيء ، قال : المعامل ، قلت : لا ، فأدرك ذوقني ووضع لي جدول السفر في أميركة كلها ، في شرقها وغربها ، في شمالها وجنوبها •

وقد جعلوا لكل عضواً رفيقاً في السفر اذا شاء ، بعضهم كان لهم رفيق وبعضهم لم يجدوا حاجة اليه ، أما أنا فقد اختاروا لي الدكتور ايلي سالم وهو شاب من لبنان ، من بطرام الكورة ، من أقارب الدكتور شارل مالك ، درس في إحدى جامعات أميركة وحصل على الدكتوراه وكان موضوع أطروحته : الخوارج ، اغتتم هذه الفرصة للجولان في الولايات المتحدة قبل رجوعه الى وطنه ، فجاء به الي السيد « روث » وأوصاني به خيراً ، لقد كان للدكتور ايلي سالم أثر حسن في نفسي من أول تعريفي اليه ، فقد وجدته هادئاً في مظهره ، قليل الكلام ولا يزعجني شيء مقدار الثروة ، رافقني في الرحلة كلها فلم يحصل بيننا شيء مما حصل بين بعض الأساتذة وبين رفقائهم ، فقد عرف طبعي وعرفت طبعه ، لقد كان مهذباً جداً فانه ابن نعمة ، مهد لي في الرحلة أسباب الراحة فلم أحفل بشيء ولما تمت رحلتنا قال لي عهدوا الي أن أضع تقريراً وقد وضعت هذا التقرير فخذوه واقرأه ، فقرأته فوجدت أن أكثر الأفكار التي كنت أقذف بها من شهرين في خلال أحاديثي الخاصة كانت مدونة في هذا التقرير وهي أفكار تتعلق بالأمريكان أنفسهم و ببعض خواطري •

لما غادرت « نيويورك » عائداً الى دمشق ودعني في المطار وقال قريبا سأكون في لبنان ، انه خطب فتاة من أميركة ، من « فيلادلفية » عرفني اليها في نيويورك ، كأنها تفاحة تذوب في الرقة ، دعنتي الى دارها في فيلادلفية وأصر عليها أبوها وأمها في هذه الدعوة ، فشكرت لها كثيراً واعتذرت وقلت لها : ان خطيبك أصبح واحداً منكم وأنا لا أزال غريباً فما معنى مبتي في داركم ، فقالت : انك غريب مادمت بعيداً عن دارنا ولكنك اذا وصلت الى الدار ودققت الباب أصبحت من أهل الدار •

اني لأعرف جوابا أرق من هذا الجواب •

عدت الى دمشق وعاد بعدي الدكتور ايلي سالم الى أهله في الكورة
وتقلد منصبا في الجامعة الأميركية في بيروت ، ثم لحقت به خطيبته وأسمها
« فلس » Phyllis لقد دعاني الى زفاف عروسه في بطرام، فحضرت الزفاف
وكان ذلك في الصيف وهنأته وتعرفت الى والده أديب سالم وهو ووجه في
وطنه ، كاتب عدل في أميون ، تظهر آثار النعم على طراز حياته في الدار،
حدثني السيد أديب سالم قال : لما جاءت « فلس » إلينا ذهبت بها الى
مطرابلس لأشتري لها بعض الحلوي ، ولما دخلنا سوق الصاغة وسألتهما عن
الحلي التي تعجبها استغربت سوآلي وقالت : أرى أن تشتري صحنونا
وطناجر وملاعق لدار ابنك ، أما الحلوي فلا حاجة بي إليها • هكذا
يعرفون الزواج •

٢٥ ايلول ١٩٥٣

هذا هو اليوم الاول الذي أشرع فيه في الجولان في طائفة من ولايات أميركة ، غادرت « واشنطن » في الليل متوجها نحو « بوسطن » الواقعة على المحيط الأطلنطي ، أما القطار الذي ركبته ففيه كل ما يحتاج اليه الراكب في غرفته الخاصة ، فيه المغسلة والخزانة والهواء البارد والهواء السخن والمرحاض ، يغلق الراكب الباب عليه اذا شاء ، فاما أن ينام وإما أن يقرأ وإما أن يسرح نظره في مشاهد الطبيعة واذا سئم العزلة جاء البهو العام ، فتعرف الى بعض المسافرين أو طالع الصحف أو سمع الاذاعة .

لقد نسيت المشاهد الواقعة من واشنطن الى بوسطن ولكنها على الأغلب تشبه المشاهد الواقعة على المحيط الأطلنطي ، فهي غابات ، مرة يكثر فيها الشجر ومرة يقل ، وصلت الى « بوسطن » في المساء فهي لنا فندق أتفق أن مديره أبوه من دمشق ، من داريا ، وقيل لنا إن في « بوسطن » كثيرا من أبناء العرب ولكني لم أجد من أبناء العرب الا ثلاثة أو أربعة ، سألتنا صاحب الفندق عن مطعم عربي فدلنا على مطعم اسمه : مطعم النيل ، فسرنا اليه في أول الليل ونحن لانعرف موقعه على الضبط ، فشهدنا ثلاثة أو أربعة سائقين مجتمعين على الأرض يتكلمون بالعربية ولهجتهم لبنانية ، فسمعونا تتكلم بالعربية ، فقالوا لنا ، الى أين ، قلنا : الى مطعم النيل ، فقال أحدهم : أنا أذهب بكم اليه ، فلم تقبل لأن المطعم بحسب ما نعلم

كان على خطوتين منا وهكذا نحن لا تتغير ، سوءاً أهاجرنا أم أقمنا ،
فبدلاً من أن يقول لنا السائق : هذا هو المطعم أمامكم ، باعد بيننا وبينه
أملاً في أجر ركوب يبلغ دولاراً أو أقل .

وصلنا الى المطعم ولكنه لا يشبه المطاعم العربية في نيويورك أو
واشنطن ، لا في أكله ولا في رجاله ، ان تلك المطاعم أحفل بأبناء العرب
وبأكل العرب ، ولم نصادف من أبناء العرب بعد خروجنا من المطعم الا
خميراً يبيع أنواع الخمر وهو من دمشق ، من الباب الشرقي ، وقد
نسق دكانه تنسيقاً متقناً ، الا أنني لم أذهب الى بوستن للاجتماع الى
الخمارين وانما ذهبت لازور جامعة : Harvard .

طلع الصباح علينا ، فسألنا عن موقع الجامعة فدلّونا عليه ، فهي واقعة
في ضاحية اسمها : Cambridge وما أكثر الشبه بين جامعة « هارفرد »
وبين الجامعة الأميركية في بيروت ، ان مقدمة كبيرة من هذه الجامعة
واقعة على شارع فيه المخازن والدكاكين وكذلك الجامعة الأميركية في
بيروت ، فان مقدمتها العظيمة واقعة على شارع فيه الترام والمخازن
والدكاكين وكما ان الجامعة الأميركية تمتد الى البحر فكذلك جامعة
« هارفرد » تمتد من وراء هذا الشارع الى مسافات بعيدة ، جلت
قليلاً في حدائقها وكانت الجامعة هادئة لا روح فيها ولا حياة لان
التدريس لم يشرعوا فيه بعد ، ما خلا قسماً قليلاً من الطلاب كانوا
يذهبون ويجيئون في الحدائق ، والجامعة إذا لم تحفل بالطلاب كانت
هامدة ، فهم لحمها ودمها وروحها ، هم حياتها كلها .

شهدت في هذه الجامعة أولى خصائص الجامعات في أميركة ، ان
الحكومات والجماعات والأفراد تعجز عن بناء جامعات على هذا الشكل
ولكن أكثر الجامعات تبنى أقساماً عظيمة منها بالهبات والعطايا ، ففي جامعة
John Harvard مكتبة بنتها أم مات ابنها على باخرة « التيتانيك »
وعمره سبع وعشرون سنة ، بنت هذه المكتبة تخليداً لذكر ابنها :

Elkins Widener ووضعت فيها مكتبته الخاصة ، فخفت على هذا الوجه
آلام هذه الأم ، فهي كلما زارت المكتبة ورأت اسم ابنها منقوشا عليها
ورأت مكتبته ذهب وهما الى أنه لا يزال حيا بين رفقاءه الطلاب، يسرح
ويسرح ويلعب .

لهذه المكتبة مدخل فخم فيه درج عريض ومن بعد الدرج نجد عشرة
أعمدة ضخمة تسند سقف الباب .

ولما مللنا من التجول في حدائق لاروخ فيها وانما فيها هدوء تام
عدنا الى « بوستن » ويظهر أن هذه المدينة قديمة ، فان أسواقها فوضى
تشبه الأحياء في دمشق ، فالإنسان يمشي في سوق فيظن أنه وصل الى
آخر السوق ولا منفذ له بعد ذلك ، وإذا به يرى منحرجات تدل على أن
السوق لم ينته، معنى هذا أن البناء غير منظم، فهو مرة يتقدم فيجاوز الحدود
المشروعة ومرة يتأخر ، فالسوق يتسع ويضيق على غير نظام ، وهذا
أمر لا يجده المرء في مدن أميركة الحديثة التي بنيت على طراز يكاد يكون
واحدا .

ولكن لا بد في « بوستن » وفي مدن أميركة من حدائق عامة في لب
المدينة يتنفس فيها الناس فيستريحون على مقاعد أو يستظلون بظلال
شجرها أو يلعبون في ملاعبها ، والذي استمال نظري في حديقة
« بوستن » اعلان قرأته جاء في بعضه هذه العبارة : حافظوا على نظافة
حديقتكم ، فان هذا الضمير في حديقتكم دلني على معنى عسيق ، فقد
دلني على أن الأميركي يشعر بأنه يملك الحديقة فهو صاحبها ، فالحديقة
ليست للبلدية وانما هي لأبناء البلد ، فاذا حافظوا على نظافتها فكأنهم
حافظوا على نظافة حدائقهم في دورهم .

فلنودع « بوستن » ولكن أنودعها دون أن نرى المحيط الأطلنطي
فيها ، سألنا عن قربه أو بعده فهدونا الى السيارة العامة التي تذهب اليه

فركبناها ووصلنا الى ضاحية هادئة أنيقة ، فجلسنا على مقاعد في تل مرتفع
يشرف على المحيط ، فأين المقاهي ، أين الملاهي على البحر ، لا يجد المرء
في أميركة شيئا من ذلك ، فكأن الناس اذا تعودوا انتياب هذه المقاهي
والملاهي ألهمتهم لذة الراحة فيها وفتنة مشاهدتها عن العمل فألقوا الكسل
وزهدوا في العمل •

اني لا أنسى ساعة قضيتها على مقعد في هذا التل المشرف على
المحيط الأطلنطي ، أمامي من جهة هذا البحر العظيم الذي تغرق فيه متاعب
الانسان وأفكاره السود وهو يتمتع منه ومن جهة ضاحية زاهية بشجرها
وقصورها ، من هذا اليوم طفقت أعرف الى مشاهد الطبيعة في أميركة
وأستأنس بها •

٢٦ ايلول ١٩٥٣

خرجت من « بوستن » في المساء ، قضيت الليل كله في القطار
 واستفقت في مدينة اسمها : Batavia •

ماذا رأيت على الطريق ، أرمي بعيني فأجد سهولا مديدة فيها غابات
 قليلة وشجر قليل ويظهر أن الشجر مقطوع وهكذا نرى أن الغابات كانت
 تملأ هذه البقاع وأن الانسان أبقي على بعضها وقطع بعضها اماللدء
 وإما للمعامل ، وقد يجوز أن قسما من الغابات احترق ، والذي بسلي
 النظر في هذه السهول قرى مبعثرة فيها واقعة على خطوط الحديد ييوتها
 مشتة بين الشجر •

وما زلت كذلك حتى وصلت الى Buffalo ولست أدري لماذا
 سميت هذه المدينة الحلوة : « بفلو » ومعنى هذا الاسم الجاموس
 المشهور في أميركة ، أفلم يظلموا هذه المدينة النظيفة الوديعه الهادئة بهذا
 الاسم المخيف • أفلم يظلموا هذه المدينة العظيمة في بساطتها وطراز
 أنبتها ، الغالب عليها النمط الانكليزي ، أفلم يظلموا موقف القطار فيها •
 لم تكن مدينة «بفلو» الا مرأ لي الى شلالات «نياكرا» الى تحقيق
 هذا الحلم الذي كنت أحلم به من أيام الدراسة ، في تلك الأيام أمنيتان
 غلبتا علي : رؤية « البندقية » في ايطالية ، ورؤية شلالات نياكرا في
 أميركة ، أما البندقية فالذي رغبني فيها كتاب انشاء فيه وصف لها ، وصف

لأسواقها ودورها وجسورها ومائها ولا سيما وصف زوارقها : الغناديل، وقد حققت هذه الأمنية ، فملأت عيني من سحر البندقية واستطعت أن أفرغ شعوري في مقال وأما شلالات « نياكرا » فقد حببها الي « شاتوبريان » في وصفه لها ولم يقع في خلدي أنني سأذهب في يوم من الأيام الى أميركة وأتزنه على هدير شلالات « نياكرا » .

استرحت في « بفلو » في فندق : Lafayette وفي الصباح انطلقت نحو الشلالات ، هذه البقعة من أروع البقاع في أميركة، من « بفلو » الى « كليفلند » الى « ديترويت » الى « شيكاغو » بحيرات عظيمة جعلت فتنة هذا الجزء من الولايات المتحدة ، فالبحيرات مجموعة في هذه البقعة التي تفصل أميركة عن الكندا ، ومن بعد شيكاغو تبدأ صحراوات مثل صحراوات افريقية وهكذا نجد أن أميركة جمعت مشاهد الطبيعة في العالم كله ، وقد أفرغت هذه الفكرة في حديث أذيع في صوت أميركة في نيويورك في شهر كانون الأول سنة ١٩٥٣

لأأكد أخرج بين « بفلو » او « نياكرا » من مشهد عجيب حتى تأخذ عيني مشهدا أعجب ، ان بحيرات « واشنطن » التي أعجبت بها صغرت في عيني أمام بحيرات « بفلو » التي يمتد الشجر من أطرافها على صورة غابات تبسط في مسافات مترامية الأطراف وان بحيرات « بفلو » صارت في عيني كلاشيء أمام شلالات « نياكرا » .

فكان الطبيعة خلقت هذه المشاهد على الطريق الممتد من « بفلو » الى « نياكرا » حتى لاتفاجيء الشلالات عين انسان مفاجأة ، فيغشى عليه من هولها ، تقع هذه الشلالات في ضاحية سميت باسمها : شلالات نياكرا ، في هذه الضاحية بعض المطاعم وبعض الفنادق وهي ضاحية نظيفة لا ضوضاء فيها ولا صخب ، فحسبها صخب الماء وهديره .

أين الشلالات ! أين حلم الصبا ! يتدفق الماء لأول وهلة على شكل

نهر ، ثم يتسع فيكون على صورة بحيرة ، ثم ينسبط فيكون بحرا والغياض تحيط به ، واروع شيء في هذا المشهد انما هو هدير الماء الراجع ، هذه الموسيقى الساحرة ، وما أظن أن أحدا استطاع أن يصفها ما خلا « شاتوبريان » ولكنه على بلاغته هل استطاع أن يفيها حقها ، وقبل أن تجتمع الشلالات وتنصب هذا الانصباب المخيف يضع الماء قليلا في غياض من حور أو شجر آخر ، فينسب بين هذه الغياض من هنا ومن هنا ، حتى حسبتي في متزهات دمر والشاذروان في دمشق والشجر بين هذا الماء كأنه جزر مشتة ، ثم يجتمع الماء بعضه الى بعض فيتدفق على صورة شلالات وليست الشلالات عالية جدا ، فقد يقدرون علوها بنحو خمسين مترا ولكن روعتها في انصبابها ، فهي تؤلف نصف دائرة ، يقف المرء الى جنب شلالات أميركة فتقابلة شلالات الكندا ويقف الى جنب شلالات الكندا فتقابلة شلالات أميركة ، انما القسم الأعظم من هذه الشلالات نصيب الكندا ، وتنصب الشلالات كلها في واد ، فيجري منها نهر في هذا الوادي •

ماذا يعترني الانسان في مثل هذا المشهد ، لأدري ، لقد ملك الماء علي شعوري وتفكيري ، فوقفت أتأمل وأنظر في رهبة الطبيعة وجبروتها فكأنني خرجت من نفسي وكأنني أصبحت صنما لا أنطق ولا أتحرك ، أذهب الى جهة مرة وأذهب جهة مرة وهكذا ضعت بين الجيئة والذهوب ، ولقد اهتمت وأنا اطالع كتابا حديثا بالانكليزية الى تعبير أعجبي ، فان صاحبه يقول : أظن من الصعب إفراغ عقائدي في الألفاظ ، وأنا أقول أظن أن من المستحيل إفراغ شعوري وأنا أنظر الى الماء في الألفاظ ، فحسبي أن أملا أذني من هدير هذا الماء وعيني من رهبته ، فلا أحفل بشعور ولا بتفكير ، لأن الماء بلغ من القوة مبلغا قطع علي كل شعور وكل تفكير ، حسبي أن أنقاد الى عظمته وأن استسلم الى جلالته ، مالي وللشعور ، مالي وللتفكير •

أما رفيقي الدكتور سالم فقد اكتفى من هذا كله بأن غطس أصابعه في ماء « نياكرا » فحسبه هذه الذكرى كل حياته •

أجيت الى حدود الكندا ولا أدخلها ، فان السيارة التي تنقل السياح من ناحية أميركة الى ناحية الكندا لاتزال تنتظرنا ، الا أن الأميركان يدخلون من دون جواز ، لم يسمح للدكتور ايلي سالم بدخول الكندا لأن جوازه يشير الى أنه لايزال طالبا في الجامعة ، أما أنا فقد سمحو لي بالدخول ولست أدري لماذا ، قيل لي لأني أستاذ في الجامعة •

لاشك في أن الساعتين اللتين قضيتهما في بعض ضواحي الكندا في زيارة عامة لم تضيعا ، فقد وقفت على ذوق الانكليز في الأرياف ، فالدور تختلف عن الدور الأميركية والحدائق كذلك ، والذين زاروا انكلترتهم زاروا الكندا يدركون في الحال أن الأرياف في الكندا انما هي انكليزية الذوق وحدائق الانكليز معروفة ، فانها تختلف عن الحدائق في فرنسا أو سويسرة ، أما وجوه الاختلاف فأظن انه لاسبيل الى تفصيلها في مثل هذه النزهة السريعة •

دخلت الكندا من دون جواز ولم يخطر ببالي أن الخروج منها يحتاج الى جواز ، فلما وصلت بنا السيارة العامة الى الحدود في أثناء العودة استوقفها الشرطي وأخذ يسأل كل واحد من الركاب حتى بلغت النوبة اني فأعطيته جوازي فاستغرب دخولي وأنا غير أميركي وسأل السائق كيف دخلت ، ومرت بذهني كالبرق قصتي في رومة ولا سفير لنا في الكندا ولا قنصل ، فمددت يدي الى جيبي وأخرجت دعوة الرئيس ايزنهاور أياي الى زيارته في القصر الأبيض ودفعت الكتاب الى الشرطي فقرأه ولم تظهر عليه آثار المبالاة به وكيف كان الأمر فقد أعاد الكتاب الي وسمح لي بالمرور •

CLEVELAND كليفلند

٢٧ ايلول ١٩٥٣

في هذا الصباح ودعت « بفلو » واني لأكتفي بالفاظ وردت في دفترتي تلخص صورتها : بساطتها ، فنا ، محطتها ، هذه الأمور الثلاثة هي التي حبست ذهني في « بفلو » .

توجهت نحو « كيفلند » فوجدت على يسار القطار بحيرة : Erie وهي متصلة ببحيرة Ontario ولكن منظر البحيرة وحده لا يشبع ، فقد زادت في رونقه سهول رحيبة بعضها لاشجر فيه ، ووجدت على شمال القطار سهولا تتصل بجبال غير شاهقة ولكنها جبال شجيرة والمشاهد من البحيرة الى القطار تشبه في سوربة السهل الممتد من البحر في باناس أو طرطوس الى الطريق العام ولكن مسافات أكبر ، ماذا يرى المسافر في هذه السهول ، انه يرى الشجر مرة والأرض المستوية مرة وقد زرعت فيها البندورة على مقربة من خط الحديد ، زرعت على الأصول الحديثة فهم يرفعونها عن الأرض ويلقونها بقضبان من حديد ، فتعلق بها وتشتبك ، وآخر هذه المشاهد مدينة Erie وقد سميت البحيرة باسمها أو سميت البحيرة باسم المدينة .

أجد في دفترتي بعد العبارة المتقدمة مايلي ، ولست أدري كيف علق هذا المنظر بعيني ، هل كان ذلك في « بفلو » : أميركة تجمع المتناقضات تجد في مخزن ، في جام من جاماته ، جميع الألوان والأشكال ، وهو

ذوق أميركي مركب ، وتجد في مخزن آخر لوناً واحداً أو شكلاً واحداً مما يدل على البساطة ، وقد رأيت مثل هذه البساطة في مخازن « لندن » فقد يكون عرض جام من الجامات عشرة أمتار على الطريق العام وليس في هذا الجام الا ثوب واحد معروض .

وصلت الى « كليفلند » فتبين لي أنها مدينة عظيمة ، فهي واقعة على بحيرة Eric نفسها ، أبنتها ضخمة جداً ، مرة تكون هذه الأبنية بسيطة ومرة تكون كأنها قطعة فن مركب ، اشتهرت « كليفلند » بمكتبتها ، فلم أزرها الا للمكتبة ، أما هذه المكتبة فانها قريبة من البحيرة ، فيها كل الفن ، في بنائها وسقفها وترتيبها ، يضعون في مدخل المكتبة فهارس أماكنها ، فهرس للعلوم وفهرس للتاريخ وآخر للفلسفة وغير ذلك وفي هذه المكتبة أنواع التسهيلات ، فانهم يعيرون الكتاب ، فاذا فرغ القاريء منه وأحب اعادته وكان يسوق سيارته ولم يشأ أن يدخل المكتبة حتى لا يضيع وقته ألقى الكتاب في صندوق على باب المكتبة وانطلق .

دخلت هذه المكتبة وتعرفت الى القيم عليها ، فوجدت من باب الاتفاق الجزء الأول من كتاب الأغاني بين يديه وعليه تعليقات لاتينية لأستاذ اللاهوت والأدب والشرقيات في أكاديمية Pomerana وأسمه :

Godofredo Ludovico Kosegarten

وقد طبع سنة ١٨٤٠ واسم الجامعة التي طبعته : Greifsevald

خرجت من المكتبة الى البحيرة آملاً أن أجد عليها مقهى أو ملهى ، أين المقاهي وأين الملاهي ، فهل وجدت شيئاً منها على شلالات « نياكرا » هل وجدت شيئاً منها على بحيرة Eric انهم لا يريدون أن يتمتعوا من سحر الطبيعة ، انهم لا يريدون أن يخلوا الى أنفسهم ساعة من الزمن بصفون فيها هذه الأنفس بمشهد من مشاهد الطبيعة ، العمل ! العمل ! قبل كل شيء ، ولكن ماهي نتيجة الافراط في العمل ، ضعف الأعصاب ، أمراض القلب ، وجع الرأس .

لقد شرعت هذه المدينة أقف على روح العمل في أميركة ، ليس في أميركة عمل شائن ، كل عمل تأخذ أجرك عليه انما هو عمل شريف ، لقد رأيت طلاب جامعة يشتغلون باصلاح الطريق في آخر الصيف لجمع أجور التحصيل في الجامعة ، هذا أمر لاغضاضة فيه ، ورأيت المرأة تزاحم الرجل في كل شيء حتى في سوق السيارات ، فالراهبات يسقن السيارات ، وتزاحمه في التدخين ، لقد كثر التدخين في النساء وشاع حتى في الطالبات الصغيرات اللواتي لم يصلن الى العشرين ، ولماذا يمتنع عن التدخين ، الرجل لايزيد عليهن في شيء ، انه يعمل وهن يعملن ، انه يلهو وهن يلهون ، وأجمل منظر شهدته في « كليفلند » منظر النساء في المساء وهن خارجات من أعمالهن ، انهن يدخلن المخازن المختلفة فيشترين ويحملن أشياءهن بأيديهن ولماذا لايشترين وقد اشتغلن النهار كله وحصلن على الأجور •

٢٩ ايلول ١٩٥٣

هذه مدينة الحديد والفولاذ ، من مدخلها يعلم الانسان أنه في بلد المعامل والمصانع ، يجد الحديد ملقى على الأرض والسيارات مصفوفة كأنها قطعان في فضاء ، ليس بي ميل الى زيارة بلدان من هذا النوع ، ولكن ما العمل ، لابد من زيارة معمل للسيارات ، فليكن معمل سيارة :

Cadillac

العظمة لله أولا وللآلة ثانيا ، يدخل المرء هذا المعمل فيحسب نفسه في قصر حكومة ، ما أعظم هذه السيارات الجاهزة المصفوفة بالمئات ، يدخل المرء فيدفعون اليه الاعلان ، تعيش أميركة بالاعلانات ، لقد أتقنت هذا الفن الاتقان كله ، لابد من مراجعة المدير ليطوف بالمعمل ، ولا أقصد بذلك مدير المعمل كله وانما أقصد هذا الشاب الذي عهدوا اليه طواف الزوار ، فاذا خرج الزائر من عند هذا الشاب رأى البنات على الآلة الكاتبة بالعشرات ورأى الشباب ، فالمعمل أعظم من قصر حكومة .

أظن أن لغتنا تضيق عن مفردات لتصوير آلات السيارة ، هذا المعمل لا يعمل السيارة كلها وانما يركبها تركيبا ويسلم السيارة اليك جاهزة ، في معامل ثانية تعمل أجزاء السيارة ، في معمل يعمل المحرك ، وفي آخر الدولاب وفي آخر السقف ، ثم ترسل هذه الأجزاء كلها الى المعمل الذي نحن فيه ، فيركبونها وقيل لنا إن في كل دقيقة سيارة كاملة

بأدواتها ، فالمعمل فرع من آخر ، فالقطار يحمل الأدوات تامة اليه فيستحونها فيه ويركبونها ، فهم يربطون كل عشرين أو ثلاثين سيارة بعضها ببعض ، فتسير على خط حديد في المعمل ، ثم يجعلون في كل سيارة مايلزمها ولكل واحدة منها لون خاص فاذا وصلت الى محلها المخصص جاءت الدواليب في سرعة الى السيارة التي هي من لونها ، فاذا تم تركيب السيارة امتحنوها في داخل المعمل ، فليتصور الانسان معبلا تسيير فيه السيارات للتجريب ، الأميركي محصور فكره في الآلة ، أمّا وراء الآلة فماذا يكون مقدار فهمه •

اذا زاحمت المرأة الرجل في أعمال الكتابة والحساب والبيع والشراء والمطاعم فلا غرابة في ذلك ولكن الغرابة في مزاحمتها له في المعامل ، في هذه الميادين التي تستلزم العضلات المقتولة والسواعد القوية ، فتجدها في هذا المعمل تلف أذرعها بالقماش الأزرق حتى لاتسود هذه الأذرع النضرة ، فالمرأة تسوق السيارات العامة وتعمل في المعامل ، ولا شك في أنها ستخرج في السنين الآتية عن طبيعتها ، عن أنوثتها ولا بد حينئذ من أزمة بينها وبين الرجل •

أما وقد زرت معمل Cldillac فلا غنى عن سؤال المدير ، قلت له هل تجعلون للعمال نسبة من ربح المعمل في السنة ، فأدرك حرج هذا السؤال فتردد قليلا ثم قال : ان العمال يقدمون مقترحاتهم ، فيجتمع مجلس الادارة ، فما أمكن تنفيذه من هذه المقترحات نفذوه وما لم يمكن تنفيذه ردوه ، وشعرت بأنه في غنى عن الخوض في مثل هذا الموضوع •

لقد ضاق الصدر وضعفت النفس وامتقع اللون وكادت الروح تخرج من هذا الضيق ومن هذا الضعف وهذا الامتقاع ، فلنودع المدير ولنبادر الى الهواء الطلق ، فما كدت أخرج من المعمل وأمشي قليلا فأبلغ موقف السيارات العامة حتى وقعت عيني في جادة على هذا المنظر : تلميذان

صغيران ، واحد أسود وواحد أبيض وقفا في مفترق الطرق وقت الظهر وانتظرا رفقاءهما في المدرسة ليدرباهم على السير في الشوارع وقد انتظرت رفقاء هذين التلميذين لأرى هذا التدريب ، حقا انه تدريب منظم ، يعلم الأستاذ الصغير رفقاءه الصغار كيف يجب عليهم أن يسيروا في الزحمة ولا يكتفي بالنظر وإنما يقرنه بالعمل ، فهو يأخذ بيد التلميذ ويقذف به الى الشارع وعلى هذا الشكل يسهل على الأميركي اذا نشأ وترعرع أن يسير والطرق مزدحمة •

ولكن فلنسرع الى الفندق ، لقد تعبت من كل شيء ، تعبت من زيارة المعمل ، تعبت من مشاهدة التدريب وأحمد الله على أن الفندق وأسمه : Tuller واقع في لب البلد على ساحة تلمع أنوارها في الليل لمعان الكواكب في المساء ، سلطت فيها أنوار الكهرباء على صهاريج الماء ، ولم أجد مثل هذه الساحة الا في شوارع رومة حيث يعنون بتسليط الكهرباء على صهاريج الماء •

هل أخرج من « ديترويت » دون شيء يدلني على غرائب الأميركيان لئن شهدت نمطا من هذه الغرائب في عرض البضائع لقد شهدت في « ديترويت » نمطا آخر ، في الغرب رجل يقطع الطرق وينهب ويسلب ويقتل ، اسمه : Jeese James هذا الرجل عرضوه في السينما ولكن بأي أسم عرضوه ، لقد عرضوه بهذا الاسم : جيز جمس الكبير ، فهو في الرواية بطلها ، لماذا ، لأنه كان يفتحهم الأهوال في حياته ، فالأميركان ، ولا سيما أميركان الغرب مولعون بالبطولة ، سواء أكانت هذه البطولة في القتل والنهب أم كانت في شيء أرفع من ذلك •

٣٠ ايلول ١٩٥٣

تركت مدينة « ديترويت » في الظهر ، مدينة وجع القلب والرأس والأعصاب وتوجهت نحو هذه الضاحية الساحرة « أنربور » وهي واقعة في ولاية : Michigan تركت المعامل والمصانع والضجة والضوضاء فسار بنا القطار وعلى يميني وعلى شمالي غابات الشجر ، جنات عدن تجري من تحتها الأنهار، ومن مسافة الى مسافة على شمال القطار وعلى يمينه نهر صغير كأنه ترعة أو كأنه نهر بردى وعلى جوانبه الأشجار ، فذكرت بهذه المناظر وطني وان كان الفرق عظيما في المنظر ، وما زلت أتقل من مشهد الى مشهد حتى بلغت « أنربور » وهي ضاحية فاتنة ، دورها دور القرى المنظمة ، كلها على طرز واحد ، فكأنني في « برنستن » بين الدار والدار متران أو ثلاثة أمتار والحدائق تحيط بالدار والشجر مغروس على الطريق والشمس مشرقة ضاحكة ، فكأنني في جنة ، الا أن السيارات في الطريق لا يحصيها احصاء ، على أني في ضاحية لاني مدينة وما لبثت أن وصلت الى الفندق وهو فندق يظهر عليه روح الجامعة، انه بسيط نظيف ليس فيه شيء من العظمة والترف ، انه جزء من الجامعة ولذلك وجدت فيه بساطة العلم ، فكأنني وأنا في هذا الفندق طالب من الطلاب ، اينما ألقيت النظر وجدت الحدائق على الجوانب كلها .

اسم الجامعة في « أنربور » Michigan University ، على مدخل بناء من أبنية هذه الجامعة العبارة الآتية :

« الدين والأخلاق والمعرفة ضرورية لوجود حكومة صالحة ولسعادة البشرية ويجب أن تشجع المدارس ووسائل التربية أبد الآبدين . »
ولكن هذه الحكم البالغة لا تحول دون تدخين الطالبات ، فالسجائر في أيديهن والدخان يتناثر في الفضاء تناثر أنفاسهن الذكية وقد شهدت في بعض الصفوف طلابا يدخلون في خلال التدريس .

السيارات ! السيارات ! انها مشكوة على باب الجامعة ، فهي للأساتذة والطلاب ، أما الطلاب الذين يجوز لهم أن يقتنوا سيارات فهم المتزوجون أو الذين بلغ عمرهم ثلاثا وعشرين سنة ، قيل لي ان في الجامعة سبعة عشر ألف طالب وطالبة وألفا ومائتي أستاذ وفي بعض الصفوف الأساتذة نساء ، ولما انحدرت الى مطعم الفندق للغداء وجدت فتاة مثل الزهرة تخدمني ، فأجبت أن أسألها من هي : قالت : اني طالبة أدرس الطب في فالتالبات يخدمن على الأكل لتحصيل أجور يدفعن بها رسوم الجامعة ، لا عيب في كل ذلك ، وهذه عظمة أميركة وغيرها من الأمم التي هي على هذه الأخلاق ، ولم أعظم أحدا في حياتي مقدار تعظيمي لهؤلاء الطلاب الذين يخدمون على الأكل أو في الطرق والفنادق ، واذا وجد هؤلاء الطلاب الذين يخدمون على الأكل فرصة بين فترات الطعام اعتزلوا ناحية وألقوا نظرهم على جريدة من الجرائد .

اتفق اني وقفت على باب صف في الجامعة ، فسمت الأستاذ يدرس اللغة العربية وهو يقطع للطلاب فعل كان يكون ثلاثة مقاطع : ي / كو / ن / فأشفقت على هؤلاء الطلاب المساكين وقلت في نفسي ماذا يكون شأنهم اذا وصلوا غدا الى مسائل النحو كمعاني الحروف أو موانع الصرف أو غير ذلك و في بعض الصفوف يدخل الأستاذ وكلبه معه حتى لا تفوته فائدة العلم وقد شهدت درسا في قسم الدراسات المتعلقة بالشرق الأدنى : الدرس مادته علم السياسة ، فقد وزع الأستاذ على الطلاب جدولا يشتمل على المراجع والمصادر ، من جملة هذه المراجع كتاب زميلي

في كلية الآداب الدكتور جورج حداد ، أستاذ التاريخ ، وهو يبحث عن سورية الحديثة وعن لبنان في غضون خمس سنين ، ولا حاجة بي الى أن أفصح عن سروري لما وجدت أسم زميل لي يتردد في جامعات أميركة .

يبدأ الأستاذ ، فيوزع على الطلاب ورقة فيها أسماء المصادر ، ثم يمسك بيده ورقة فيقرأ مرة ويشرح مرة وأكثر الأساتذة شباب ويسمح للطلاب بسؤال الأستاذ وهو يلقي درسه والطلاب يسأل وهو جالس والذي استغربته أن ستة أو سبعة طلاب سألوا الأستاذ ، فكان الدرس يضيع بالسؤال والجواب ولكن يظهر أن الغاية انما هي فهي الطالب ، فليفهم على هذه الطريقة ، على طريقة السوال والجواب وأنا أعتقد أن رونق الدرس يذهب على هذا الوجه .

أجد في كل جامعة أزورها شيئاً جديداً بالنسبة الي ، هذه الجامعة قد تكون مثل جامعة « برنستن » في أكثر مبانيها وهي تشبهها في وضعها فان مبانيها مبعثرة هنا وهناك والحداثق الغلب تحيط بها من كل ناحية، الا أنني لم أجد مثيلاً لنظافة هذا الفندق في الجامعة ولنظافة أكله وهو ليس بفندق وانما هو مجتمع للطلاب ، والذي يلفت النظر في الجامعة اذا جال الانسان في حدائقها جمال الطالبات ، فأعظم شيء هذه العناية برياضة البدن ، الشباب كلهم جبابرة في أجسامهم والفتيات رشيقات في حركاتهن وفي الجامعة مدرسة خاصة لتدريس رياضة البدن وقد رأيت الفتيات وهن شبه عاريات يلعبن لعبة « التنس » ومن عظمة هذه الجامعة ملعبها الذي يستوعب مائة ألف متفرج ، يظن المرء نفسه فيه أنه في ملاعب الرومان القدماء ووسطه المرج الأخضر ومن ورائه هذا الشجر الممتد مدى البصر والملعب خاص « للفتوبول » وجامعة « Michigan » تكاد تكون أشهر جامعات أميركة في الالعب .

لكل جامعة شعارها الخاص ، وشعار هذه الجامعة : اللون الأصفر

واللون الأزرق وما أكثر أندية الطلاب فيها ، فلكل جماعة منهم ناد للطلاب وناد للطالبات •

سهرة واحاديث :

تعرفت في هذه الجامعة الى شاب صديق لرفيقي الدكتور ايلي سالم ، اسمه : Guy Labolme ، عمره ثلاث وعشرون سنة ، توثقت بيننا صداقة وجرت مكاتبات ، هذا الشاب من أصل فرنسي ، ترك أبوه فرنسة بعد الحرب الكبرى الأولى وجاء الولايات المتحدة ، وهو طبيب ، يدرس Guy الجامعة ودراسته تتعلق بالشرق الأوسط وهو يتعلم العربية وقد كاتبني بها ويعرف الفرنسية وأبوه يحمله على التكلم بها حتى لا ينساها ، انه متزوج وهذا شأن الطلاب ، فان أكثرهم يتزوجون في الجامعة في سن التحصيل وزوجته تظهر عليها آثار الحشمة ، فهي كاملة ، قال لي Guy : انها من أهل محافظين ولم يرض أهلي بغيرها زوجة لي لأن المرأة الأميركية اذا لم تكن محافظة فانها تخلص لزوجها المحبة مادام يعطيها مايلزمها ، فاذا عجز عن العطاء تركته ولو كان مريضا ، هذا ماقاله لي فتي متزوج يعيش بين فتيات الجامعة •

يقيم Guy بدار صغيرة فيها غرفة نوم وفيها بهو للضيوف ، ماعدا المطبخ والحمام ، تكلفه أجرتها في الشهر مايقرب من مائة دولار ، دعاني الى سهرة في داره وهو مسح النفس ، رقيق العشرة ، بشوش الوجه ، صافي النية ، جرت بيننا أحاديث شتى ، جرى حديث الخدم ، فان في أميركة أزمة خدم ، فلا يكاد الانسان يجد خدما الا في دور أصحاب الملايين قال Guy ان الأميركيان لايجبون أن يكونوا خدما لأن من مبدأ الديمقراطية أن لا يكون فرق بين الطبقات ولهذا نجد أزمة خدم في بلادنا ، فلا أميركان يأكلون في المطاعم واذا كان عند أحدهم خادم فأكثر الخدم ليسوا من الأميركيان فهم أمّا المان وأمّا من جهة الشمال ، من الدانمارك أو النرويج أو السويد •

من قول Guy لي : الأميركيان لا يحبون الألقاب ولكنه يعتقد أنهم كلهم في الباطن يريدون الألقاب ، شرح لي هذا الفتى أزمة الخدم ، ثم أفاض في قضية فلسطين بحسب العقلية الأمريكية ، فمن رأيه أن العرب لا يعرفون كيف يخاطبون الأميركيان ، فهم يتكلمون على فظائع اليهود ولكن اليهود لهم تأثير في أميركة ، فالأصلح أن يخاطبوا الأميركيان على مقادير عقولهم ، يجب عليهم أن لا يبدأوا بالشتيم ولكن يلزمهم أن يقولوا للأميركان ان اليهود فعلوا كذا وقتلوا كذا واعتدوا على كذا ، هذه اللغة يفهمها الأميركيان ، انهم يؤمنون بالبرهان المحسوس .

لست عنيداً في رأيي ، فاني اذا وجدت الاخلاص في حديث من الأحاديث آمنت بهذا الحديث على ظواهره وقد وجدت في كلام Guy كثيراً من الاخلاص ، فأجبت أن أدون هذا الكلام على علاقته ليكون صورة من صور بعض العقلية الأمريكية الخالصة النقية .

ثم جرى بيني وبين Guy حديث العمل في أميركة ، وقد بينت له تعب هذه الفلسفة المادية ، فقال : الأميركي يحب العمل لأنه يعتقد انه يجب عليه أن يتقدم في كل يوم ، فاذا لم يعمل وقف ثم تأخر ثم انهار ، فليعمل فالعمل سعادته ، والأميركان يسيلون الى الألعاب ، الى السينما ، لأنهم يريدون أن يروضوا أذهانهم بعد التعب ، فليس لهم الا هذه الوسيلة .

قال لي : غدا ، اذا ذهبتم الى الغرب ، الى كاليفورنية مثلاً وجدتم اختلافاً في الطبائع الأمريكية فأهل « نيويورك » لا يعرفون الا العمل ولا قيمة عندهم للمجاملات ، أما أهل الغرب فانهم يجاملون ويلاطفون ويدعون الى الدورويصادقون ، فقلت له : ان هذه العادات انما هي عادات الأسبان جيرانهم وأنت تعرف الصلة بين العرب والأسبان في القديم ، فهذه العادات كلها عادات العرب .

انقضت السهرة على هذا الطرز من الأحاديث ، فاغتست هذه الفرصة

لأعيش قليلا مع أسرة أميركية ولأشهد نمط الحياة في الدار ، لقد شهدت كرم نفس Guy ، انه فرنسي الأصل ، فيه روح الفرنسيين ، فيه ميل الى خمور الفرنسيين ، ولما ودعته قال : غداً لابد من نزهة في سيارتي ، ولست أدري كيف انتظرت هذا الغد لأني مفتون بالضواحي والأرياف .

جاءني Guy بسيارته ومعه زوجته ، فركبت وركب رفيقي الدكتور ايلي سالم ، طلقنا وهذا الصديق لأنساه مطافا كل عمري ، فقد ظلمت أربع ساعات أو خمس ساعات في السيارة أتفرج في الريف الأميركي .

كانت النزهة من وراء « أنربور » فقد مررنا بأمكن كثيرة ، مررنا بسناظر تشبه مناظر الغوطة في دمشق ولكنها تختلف عنها باختلاف اتساعها ، أجمل هذه المناظر دار الفلاح في مزرعته ، الفلاح أمامه خيرات كلها : أمامه مزرعته وبقره وخيله وسيارته وفي بعض الأحيان طائرته الخاصة ، يستفيق في الصباح ويعمل في هذه المزرعة حتى اذا كان المساء رجع الى داره فذاق الحياة الاجتماعية في أسرته ، وتكاد تكون هذه اللذة مفقودة في المدن والذي يخلب الأبواب في هذه النزهة منظر البحيرات من حين الى آخر ، يطوف الانسان حول حقول ومزارع ثم يبلغ بحيرة فيريح نظره بهذا الماء ، ولكن أين المقاهي ، أين الملاهي على البحيرة ، هذا الأمر واحد في أميركة كلها ، استرحنا قليلا على شواطئ هذه البحيرة ونحن واقفون وأظن ان اسمها : Waittemore ، واذا لم نجد المقاهي والملاهي على أطراف هذا الماء الحالم فقد وجدت البيوت المبنوثة على هذه الأطراف ، ولست أدري هل في الدنيا نعيم أعظم من نعيم أصحاب هذه البيوت .

لابد من حين الى آخر من مشاهد تدل على غرائب الأميركيان ، لقد رأيت أطقالا على هذه البحيرة يلبسون ثياب أبطال الأميركيان ويحملون المسدسات ، ولو كنا في جبال قاسية لوجدت معنى لمثل هذه الثياب ولمثل

هذا السلاح ، ولكننا على شواطئ بحيرة هادئة ساكنة توجي الى الانسان كثيرا من الهدوء والسكون ، فلماذا هذا السلاح ، لماذا أرى أدوات جهنم وأنا في ظلال الجنة •

والخلاصة ان الذين يزورون أميركة ثم يرجعون الى أوطانهم يحدثون أهلهم وأصحابهم عن كثير من وجوها ، عن مصانعها ومعاملها ومتاجرها ، أمّا نحن معاشر الأدباء فقد يكون الحديث عن الطبيعة غالباً ، لانها تصفي نفوسنا وتلين عواطفنا وتشجذ شعورنا وتصل خيالنا وترويض عقولنا ، أما دخان المعامل وهو عنوان فلسفة هذا العصر فكثيرا ما يعمي أبصارنا وبصائرنا ، فلانألفه ألفتنا لغيوم السماء ولانولع به ولعنا بضباب الجواء •

لقد تعب Guy وهو يسوق بنا السيارة ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذا التعب لشدة لطفه ورقة أدبه ، فلنعد الى « أنربور » لقد دخلنا الضاحية في أول عتمة الليل ، فدعوت الصديق وزوجته والدكتور ايلي سالم الى العشاء فدلنا Guy على مطعم مشهور في « أنربور » نسيت اسمه ، فتعشنا فيه ثم انصرف كل واحد الى مأواه وكان علينا أن نذهب في الصباح الى Chicago فلما طلع الصباح جاءنا Guy بسيارته على غير ميعاد ، فحمل عيابنا الى المحطة ثم ودعنا ولكنه لم يودعنا الا بعد أن هياً لنا الفطور في المحطة •

هذا هو الأدب ، هذه هي الرقة ، من أجل هذا الأدب ومن أجل هذه الرقة لم أقطع المكاتبات بيني وبين Guy •

١ تشرين الاول ١٩٥٣

دخلنا « شيكاغو » في المساء ، فغيرنا الفندق الذي حجز لنا فيه محل وقصدنا الى فندق قيل لنا انه أكبر فندق في العالم : Conrad Hilton دلنا عليه صديق الدكتور ايلي سالم وهو يوناني الأصل استقبلنا في المحطة ، يشتمل هذا الفندق على ثلاثة آلاف غرفة وهو يقع على شارع يكاد يشبه بعض الشبه قسما من شارع « الشان اليزه » في باريز .

يشعر الانسان بشيء من الزهو اذا نزل مثل هذا الفندق ولكن نظافة فندق « أنربور » تعدل أو تفوق في نظري هذا الفندق الكبير ، كل هذا ليس بذي شأن ، انما الشأن كل الشأن في انا تعشينا في مطعمه واسم قاعة هذا المطعم Boulevard Room وهي مشهورة في أميركة بسبب الاجتماعات العامة التي تعقد فيها ، لمست في هذا العشاء شيئا من ذوق الأميركيين ، والأمر الطريف اني أهتدي في كل بلد الى شيء جديد ، في المطعم مسرح ، ولا بد من الاشارة الى أن أسعار الأكل غالية وان الطبقات التي تتردد الى هذا المطعم هي من الموسرين الاغنياء ، على المسرح رقص وغناء ولعب ، كنت أشهد هذا كله وأنا اتعشى .

لاشك في أن الراقصة الأميركية ماهرة وان كنت غير متعمق في معرفة هذا الفن ، الا أنني رأيتها في رقصها كأنها آلة ميكانيكية ، فالآلة غالبية على أميركة حتى في الفنون الرفيعة ، فالذي تقتقر اليه هذه الراقصة على المسرح

انما هو الروح ولا يستطيع الانسان أن يدرك هذا النقص الا اذا شهد
رقص امرأة فرنسية ، فالمرأة الفرنسية في رقصها روح و حياة ، وهذه
الكلمة : الروح ، هي التي تعبر عن الفرق بين النوعين من الرقص ، ما أغرب
الأميركان ! ما أشد ولعهم بالغرائب ! فتري جرائدهم الهزلية مملوءة
بالصور الغريبة التي تشتمل على ألوان مختلفة وأوضاع متفاوتة ، ان
ذوقهم في هذا المعنى قريب من ذوق الانكليز ، بعد الرقص بدىء بالألعاب ،
وهنا موطن الغرائب ، رجل يلبس مطاطا يلاعبه رجل آخر مثله ، فيلقي
عليه الماء ثم يخرج الماء من أذنه ومن فمه ومن خاصرته : ألعاب تضحك
الأطفال ، هذا هو الذوق الأميركي ، ورجل آخر يرقص أطفالا صغارا
من ورق أو خشب والخلاصة : الألعاب صيبانية •

ولكننا لم نأت الى « شيكاغو » الا لزيارة جامعتها ، في اليوم الثاني
قصدت الى الجامعة ، انها في ضاحية ولكن الضاحية متصلة بالمدينة
فالوصول اليها كان على الترام والطريق غير مؤنس ، اني أجمع الذاكرة
وأنا أكتب هذه السطور فأذكر أبنية على الطريق موحشة ، و « شيكاغو »
كلها مظلمة ، كئيبة ، فانها سوداء ، يمشي الانسان في الطريق وفوقه الترام
فكأنه يمشي في بيت مسقوف والنهر الذي يشقها تجده في المساء مظلما
كئيبا لا تسلط عليه أنوار زاهية ، يختلف موقع جامعة « شيكاغو » عن
مواقع غيرها من الجامعات ، انها كما قلت في ضاحية متصلة بالمدينة ،
وهذه الضاحية غير زاهية مثل غيرها من الضواحي ، فلم يبق في ذهني منها
الا أثر مطعم فيه ذوق ، مشهور بطبخ الدجاج دلنا عليه طالب من أبناء
العرب وما خلت جامعة من الجامعات التي زرناها من طلاب عرب ، فكان
الله لم يشأ أن يحرمنا من نعمة هذه اللغة المباركة ، ما قصدت الى جامعة
الا وجدت طلابا من فلسطين أو لبنان أو سورية أو العراق يرحبون بنا
ويدعوننا بعضهم الى غرفهم •

أجل ، ان جامعة « شيكاغو » بعيدة عن البلد ومتصلة بهذا البلد ،

وهنا تعرض لنا المسئلة الآتية : هل يجب أن تكون الجامعة في البلد أو في الضاحية ، هل يجب أن تكون متصلة بالحياة العامة ، بمشكلاتها كلها أم يجب أن تكون منفصلة عن هذه الحياة ، في عزلة تامة ، في أفق خاص ، أفق البحث المجرد الذي لا يريد الاتصال بضوضاء الحياة العامة ، بسياستها ، باحتجاجاتها ، بمظاهراتها ، فلنترك هذه المسئلة لرجال التربية والتعليم ولنسرع الى مغادرة « شيكاغو » التي لم تخلف في نفسي أثرا بليغا ولكني أغادرها وأنا أذكر جمال نسائها في الطرق وتزاحم الناس على المطاعم التي فيها : Television ان أمثال هذه المطاعم تغص بالناس ، لأنهم يحبون شهود اللعب ، فاذا عرض مشهد صراع أو مشهد « فوتبول » رأيت الناس يكادون يجنون في أمثال هذه المشاهد حتى في الجامعات نفسها ، فان الطلاب والطالبات يتزاحمون على مثل هذا التفرج وحتى في الفنادق ، فالأميركان مولعون بالألعاب ، بمزاولتها ، بشاهدها وترى جريدة « نيويورك تايس » وهي أكبر الجرائد تعنى بأخبار اللعب وتنشر صور اللاعبين على صفحات عديدة مجاراة لأذواق القراء ، وبفضل هذه الألعاب نجد الأجسام في بعض ولايات أميركة عظيمة ، حتى النساء أنفسهن فانهن موصوفات بامتداد القامة ورشاقة الحركات وقد يكون للأكل تأثير غير قليل ، لأنهم يسلقون سلقا والأكل المسلوق خفيف على المعدة ولا يأكلون أكثر من صحن واحد فيه لحم وخضر وبعد ذلك القهوة أو الشاي •

سان فرانسيسكو SAN FRANCISCO

٤ تشرين الاول ١٩٥٣

لا تكاد تنقضي ساعات على مغادرة « شيكاغو » حتى تختلف مشاهد الطبيعة الاختلاف كله عن المشاهد الماضية ، تظهر سهول مديدة لانهاية لها ، فكان الانسان يسير بين دمشق وبغداد وكأنه يمر بسهول حوران في سورية ولكن على قياس أكبر ، سهول ليس فيها شجر ، أما الزرع فهو قليل ، لقد ظهر الغرب ، ظهرت صحراوات تشبه صحراوات افريقية ، وما زالت هذه الصحراوات تمتد بنا حتى وصلنا الى موقف اسمه : Cheyenne مكشأ فيه مقدار عشر دقائق واذا في الموقف مكان محوط عجلة كانوا يركبونها في الماضي من « سان فرانسيسكو » الى الشرق ، وكان الهنود يقطعون الطرق ويسلبون الركاب أو يقتلونهم والعجلة تعرض على الانسان فكرة انتقال أميركة من طور الى طور ، وآخر عجلة استعملت قبل سبع وتسعين سنة ، فالولايات المتحدة نت انحاضر ، تاريخها لا يكاد يذكر ، فهي تشهد ماضيها وحاضرها في كل دقيقة ، ليس فيها ماض بعيد يضيع في ظلمات العصور مثل الأمم ذات التاريخ البعيد الذي تمتد آفاقه فلا يعرف الانسان آوائله معرفة تامة ، لذلك ان أميركة تدرك فكرة « التطور » الادراك كله ، ففي كل متحف من متاحفها سواء أكان متحف الحيوان أم كان متحف الانسان أم كان متحف النبات أم كان متحف الصناعة ترى أولية الحيوان والانسان والنبات والصناعة في بلادها .

بعد هذه الصحراوات التي قطعناها تعترضنا غابات على صورة فتانة ، فترى على مدى بعيد تلالا مرتفعة وأودية منخفضة فيها شجر وفي آخرها جبال غير عالية والخالصة ان في أميركة مشاهد الطبيعة كلها فمن الغابات، الى الحراج ، الى السهول، الى المرتفعات، الى السواقي والأنهار والبحيرات والشلالات والبحار ، فيها صحراوات تشبه صحراوات جزيرة العرب ليس فيها للحضارة أثر ، معنى هذا ان الأميركان لما أعطتهم الطبيعة السهول الخصبة استفادوا منها وعبروها ولكنها لما أعطتهم الصحارى أهملوا العمل في بعضها ، فلم يصنعوا شيئا ، وفي هذه الصحارى جبال جرد ليس فيها عشب ولكنها أشبه شيء بتلال كبيرة .

تجوز هذه الصحارى كلها فتمر على قرية اسمها : النهر الأخضر Green River فكأنك في جسر شغور سورية ، في هذه القرية بيوت قليلة منشورة على هذا النهر الصغير ، فيأخذ العجب منك كل مأخذ ، هل أنت في أميركة ، هل أنت في هذه الدنيا الغنية ، أم أنت في قرى حقيرة .

كنا نرى في الصحارى من حين الى آخر على ضفاف ساقية تجري بين قليل من الشجر بيوتا من خشب مما يدل على أن حالة الفلاح ليست واحدة في الولايات المتحدة ، ففي مواطن يشر وفي قليل من المواطن عسر ، وعلى الرغم من هذه الصحارى استطاع الأميركان على خلاف ماتقدمت الاشارة اليه أن يعملوا ، أي أن يخلقوا مدينة جميلة اسمها : Reno ، جميلة بدورها وشوارعها ، فهي على طراز قرى أميركة في هذه الصحراء وهي مشتة على تلال وتحيط بها الجبال الجرد ، لقد طفقت العين بعد أن أوحشتها رؤية رمال الصحارى تأنس برؤية الشارع المزفت والسيارة .

مأجمل هذه القرى الغارقة في بطون الأودية وهي تحيط بها جبال، فكأن الانسان في جرد الزبداني في الشام ، كأنه في سرغايا ، لقد ظهر

الماء والحياة لا تكون الا حيث يكون الماء ، ظهر الماء وظهرت سلسلة جبال شجيرة ، فكأنني في لبنان في جهات « زهور الشوير » وفي الأودية على جانب الطريق العام وخط الحديد نهر لايزيد على نهر بودى في دمشق ، وبيوت القرى من القرميد الأبيض ، فهو على جوانبها كلها ، لقد بدت الحضارة وبدت القرى ولكنها تختلف عن قرى الشرق ، انها في أودية على أطرافها الجبال ، أما قرى الشرق فانها في سهول لايعرف أولها ولا آخرها والشجر في أكثرها •

هكذا انتهت هذه الصحارى وبدت الجبال الشجيرة وعلى أقدامها نهر صغير مثل أنهار بلادنا والقطار يقطع بنا وادياً تحيط به هذه الجبال ، وقد قيل لنا انه جاءت في الماضي بعثة من المهاجرين على الخيل ، فلما وصلت الى هذا الوادي ماتت من شدة البرد والجليد ، فنصب لها تمثال على تل من التلال وهكذا نرى ان أميركة تشهد أمسها ويومها •

في الشاهد كلها التي مررنا بها وحشة الصحراء وأنس السهول المديدة ورهبة الجبال الشجيرة ، فيها كل مناظر الطبيعة ، والجبال الشجيرة تشبه جبال العلويين في سورية ومصيف « صلنفة » في اللاذقية فلا يزال الانسان ينتقل من تلال مرتفعة تحتها الأودية الى تلال منخفضة ، الى أودية حتى يصل الى موقف اسمه Penryn وهو في قلب الغابات والجبال •

لقد شرعنا في دخول « كاليفورنية » انا ندخلها من سلسلة الجبال التي تقدم وصفها ، ثم تقع العين على السهول المديدة وهي سهول « كاليفورنية » فتظهر زراعة الأرض ، فكان الانسان يذهب من حمص الى حلب ، سهول لا يرى الانسان أولها ولا يهتدي الى آخرها ، ثم يرى الأشجار المثمرة فتبدو مراعي البقر والغنم ، فكل فلاح وبيته في أرضه وفي حديقته الشجر المثمر ، على خلاف الحداثق في الشرق ، ثم ينتهي الانسان أخيراً الى المحيط الهادئ فيرى فيه البوارج العظيمة •

ليس في السهول التي قطعناها معامل و لامصانع ولا دخان ولكن فيها سماء صافية مشرقة مثل سماء بلادنا •

في القطار

لقد ألهتني سهول « كاليفورنية » عن الكلام على قطارنا الذي بتنا فيه ليلتين ونهارين بين « شيكاغو » و « سان فرانسيسكو » وهذه المسافة أكبر مسافة قطعناها في القطار •

يجد الانسان في هذا القطار كل ما يحتاج اليه من أسباب الراحة ، ولكنني اغتنست الفرصة فامتحتنت بعض أخلاق الأميركي كان ، انهم يسيلون الى المزح والتكيت ، فاذا سمعوا في « الراديو » نكتة ضحكوا وصفقوا ويكاد ضحكهم وتصفيقهم يفوقان الضحك والتصفيق في كل أمة ، كأنهم قد خنقهم العمل وعنفه ، فهم يبحثون عن تنفس يتنفسون منه ، ولذلك يكثر وجودهم في السينما والملاعب ، ويشتد انبساطهم الى النكتة •

على القطار بعثة من فتيات الصليب الأحمر الأميركي ذاهبة الى « كوريا » هذه الطبقة من النساء لها حياة خاصة ومزاج خاص ، انها ألقت السفر وألقت في الوقت نفسه عشرة الرجل ، ففي كل يوم تتعرف الى ضابط جديد أو الى مدني جديد ، وكأن هذا التعرف أبعد عنها فكرة الزواج وقد تعرفت في القطار الى قسم منها ، هذه الطبقة من النساء أنيسة ، انها تحب المزح والضحك ، انها ألوفة لاتنفر من الرجل وان كانت لاتعرفه ، كانت في القطار سلوة المسافرين في هذه المسافة المترامية الأطراف ، وفيها امرأة خفيفة الروح شديدة الاضحاك ، لها سيطرة على رفيقاتها ، فكان الطبيعة عوضت لها عن جمالها ، فوهبت لها خفة الروح ، اما الحسان من هذه الطبقة فان حسنهن فوق كل تصور • ولا بد في وداع هذه الفتيات من التقبيل ، هذه عادة شهدتها في أميركة وهل على الانسان حرج في تقبيل أمثال هذه الخدود !
لا حرج ان شاء الله !

سان فرانسيسكو SAN FRANCISCO

٦ تشرين الأول ١٩٥٣

أذكر أنا وصلنا الى « سان فرانسيسكو » في العصر ، فنزلنا من القطار ثم ركبنا باخرة صغيرة مخرت بنا في المحيط الهادىء لنبلغ المدينة ، فلننعم في المحيط الهادىء برؤية هذا الجسر العظيم الذي يصل بين جزء من « سان فرانسيسكو » وبين جزء آخر ، وهو على ما قيل لنا أكبر جسر في العالم ، ولننعم بهذه الجزيرة الصغيرة التي مرت الباخرة الى جنبها وهي جزيرة يقيم بها أغنياء « سان فرانسيسكو » .

لقد بدأنا في هذه المدينة التي هي نسيج وحدها في أميركة بشهود العلم الى جنب الطبيعة ، العلم الذي أوحى الى المهندسين بناء جسر مثل هذا الجسر والطبيعة التي تأخذ الألباب ، لقد شعرت وأنا أدخل « سان فرانسيسكو » بعظمتها وهي في الليل هادئة ما خلا بعض الملاهي في شارعها الكبير ، وهي ملاء على طراز الملاهي في « مونبارناس » في باريس ، دخلتها ثلاث مرات ولكني في المرة الأولى لم أفطن الا الى بعض الخصائص فيها ، أول المشاهد التي شهدتها في الليل مطعم عمر الخيام ، هذا المطعم له شهرة طائفة ، فهو بناء مستدير وعلى جدرانها صورة عمر الخيام في جميع أوضاعه ، الناس كلهم محشوكون في المطعم ، ناس يأكلون وناس ينتظرون فراغ الأماكن حتى يجيء دورهم ، ونحن كذلك فقد انتظرنا مع المنتظرين ولكن رفيقي الدكتور ايلي سالم لم يرقه هذا

الانتظار ، فذهب خلصة الى صاحب المطعم وهو أرمني سكن دمشق الشام في الماضي وأعلم ابنه بأني عميد كلية الآداب في الجامعة السورية ثم جاءني وأعلمني بذلك ، فقلت له : لاجابة بنا الى هذا كله ، وماذا يهـ من أمر عميد الكلية أو رئيس الجامعة ومن الذي يعرفنا في بلد مثل هذا البلد في آخر بلاد الله ، فقال : ستري في ثانية نتيجة ذلك ، وما كاد يلفظ بهذه الكلمة حتى جاءني ابن صاحب المطعم وهو شاب ظاهره ابن خمس وعشرين سنة ، فرحب بي كل الترحيب ودعاني الى السفارة والناس الذين جاءوا قبلي ينتظرون ، وأخذ يتردد الي وأنا آكل من حين الى آخر ويؤنسني ويلطفني وعرف عمه الي وسألني أن أجيء في الغد ليجمع بيني وبين أبيه •

قال لي الدكتور ايلي سالم : رأيت نتيجة إعلام صاحب المطعم بعميد كلية الآداب !

نجاح المطاعم والملاهي متوقف على شروط في رأسها حسن المعاملة ، والأميركان لا يعرفون الملاطفة في فنادقهم ومطاعمهم ، وأي حاجة بهم الى ذلك ، فان الناس لا يستغنون عن المطاعم والفنادق ، سواء ألافقوهم أم لم يلافقوهم •

علمت بمجيئنا الى « سان فرنسيسكو » سيدة فرنسية الأصل تزوجت في أميركة من عشرين سنة اسمها Mrs. T. فجاءت إلينا بسيارتها ، وعرضت علينا الفرجة والنزهة ، وأظن اننا لم نتردد في شيء من ذلك ، لو سئلت عن أجمل شيء في أميركة لقلت : شلالات « نياكرا » و « سان فرنسيسكو » ولكنني بعد « سان فرنسيسكو » رأيت مشاهد فتاة ، انما أتكلم الآن على الذي شهدته حتى كتابة هذه السطور ، تدخل مدينة فترى شارعا عظيما ومباني ذاهبة في المساء ، ثم تدخل مدينة ثانية فترى شارعا أعظم ومباني أعلى ، ولكن الذي يميز هذه المدن

سحرها ، فإن مدينة « سان فرنسيسكو » ساحرة ، الذي تجده فيها لا تجده في غيرها ، لأنه ابن الطبيعة لا ابن العلم ، فالطبيعة هي التي أعطتها خصائصها ، تصور مدينة مبنية على تلال كأنها مدرج ، وقد بعثت أبنيتها على هذه التلال ، فعلى تل ترى منازل الطبقة الرفيعة وعلى تل منازل الطبقة الوسطى وعلى تل منازل الطبقة الفقيرة ، ثم تقف على مرتفع من المرتفعات فترى المدينة كلها منبسطة أمام عينك أحاط بها المحيط الهادئ من أكثر جهاتها ، وفصل بين بعضها وبين بعض أعظم جسر في العالم ، وترى أمامها ثلاث جزر خضر ، ثم ترى من ورائها جبلا شجيرة وجبالا جردا ، ثم تجول في أودية هذه الجبال فيحيق بك الشجر من كل جانب ، فكأنك في جبال العلويين في سورية حينا ، وكأنك في جبالنا الجرد حينا آخر ، وترى البقر على هذه الجبال ، ثم تنحدر الى الغابات ، فترى شجرا كأنه في استقامته على شكل الحرف الأول من الحروف ، أي على شكل الألف ، يبلغ ارتفاع الشجرة ثمانين مترا ومحيطها ستة أمتار ، وترى شجرا تمشي السيارة في جوفه ، ثم تقف في هذه الغابات ، فتملك عليك الطبيعة مشاعرك ، فلا تدري ما تقول ، وقد سألتني أحد الرفاق أن أقول الشعر في هذا المشهد ، فقلت له انه أعظم من أن يحيط به الشعر ، فخير للانسان في مثل هذه الحال أن يستسلم الى الطبيعة ، فلا يفكر ولا يشعر ، حتى اذا فارق هذه الجنة عادت اليه الصور المخزونة في ذهنه ، فيفتش عن لغة لاهياء هذه الصور ، فيعجز وتعجز اللغة معه .

هذه هي « سان فرنسيسكو » التي لاشبيه لها في أميركة كلها ، والخلاصة كل مدينة من مدن الولايات المتحدة لها خصائصها ، أما « سان فرنسيسكو » فقد جمعت الى سحر الطبيعة محاسن الفن في أكثر أبنيتها وفنادقها ، طبيعة ساحرة ونساء ساحرات تراهن في المساء يتزاحمن على رواية أو على سينما أو على مطعم ، فالمرأة أينما كانت تريد أن تتمتع مما يتمتع منه الرجل .

٩ تشرين الأول ١٩٥٣

علينا أن نذهب الى « مونترى » الواقعة على المحيط الهادىء لنزور مدرستها العسكرية حيث يعلمون اللغة العربية ولنلقي بعض الأحاديث ، من « سان فرنسيسكو » الى « مونترى » مواقف كثيرة على الطريق منها : Burhngane ومنها Palo Alto ولكن ما الفائدة من ذكر هذه المواقف ، على الطريق يوت بحدائقها ، ملزوز بعضها الى بعض ، وبساتين فيها شجر مشر وجبال تشبه جبال لبنان وسهول رحة . انا في ولاية « كاليفورنية » في حديقة أميركة ، يقولون ان « كاليفورنية » مثل بلادنا ، هذا صحيح ، ولكن أين في بلادنا هذه السهول الواسعة المزروعة التي لا يعرف المرء آخرها ، أين هذه البساتين ، أين هذه المتافع التي لا تزيد فيها شجرة تفاح على مقدار شجرة .

لا بد في هذه الطبيعة الخصبة من ملاعب على الطريق ، فالشباب في هذه الملاعب يدحرجون « الكرة » الألعاب ! الألعاب ! هذا هو الشغل الشاغل في أميركة ، وما زلنا تنتقل من محطة الى محطة مثل : San Gose و Gilroy و Watogol و Castroville ولنلقي النظر على السهول والبساتين والجبال الشجيرة ونرى الفلاحين يسقون أرضهم ، فيجمعون الماء في بركة ، ثم يديرونه على المزارع ، ثم يعوم الماء في بعض الأرضين ، وفي بعضها يسقونها بالفوارات ، ما زلنا نلقي النظر على هذا كله والقطار ينهب بنا الأرض حتى وصلنا الى « مونترى » وأذكر انا لم نصل الى المدينة نفسها ، وانما استقبلنا شاب عراقي في ضاحية قريبة من المدينة اسمه : وديع ددة يعلم العربية في مدرسة « مونترى » العسكرية وذهب بنا على سيارته الى : الكرمل .

الكرمل

٨ تشرين الأول ١٩٥٣

هذا أنعم صباح طلع علي من حين دخولي أميركة ، من محاسن هذه الرحلة اني لاأكاد أفارق بلداً يهز القلوب الا دخلت بلداً أنستني خصائصه مارأيته من قبل •

لقد تركت « سان فرنسيسكو » وترامها الذي لاشييه له في العالم ، هذا الترام الذي يستغرب الانسان وجوده في عصر مثل عصرنا وفي بلاد مثل أميركة، وتركت « سان فرنسيسكو » وأنا أقول ليتني لم أتركها حتى انتهيت في المساء الى « موتري » وركبت السيارة الى الكرمل •

قيل لي أن رهباناً جاؤا من جبل الكرمل في حيفا الى هذه الضاحية على المحيط الهادئ ، فسموها الكرمل للتشابه بينها وبين جبل الكرمل •

لقد شعرت بفتنة هذه القرية في المساء ولكنني لم ألمس هذه الفتنة الا في الصباح ، فقد استققت على هدير الموج في هذا الفندق الصغير الذي يشبه فندق « برنستن » وهو Holiday Inn استققت في الصباح ، فألقيت نظري على البحر من الشباك ، واذا أنا في قرية لم أمر على مثلها حتى اليوم ، البحر أمامي ، البحر الهادئ ، وموجه ماتفك موسيقاه اللينة قريبة مني على بضعة خطى ، يصل الى هذا الرمل الأبيض ، ثم يرتد عنه حرصاً على هذه القصور المبعثرة في أطراف الجبل ، فالقصور واقعة على جبل يشبه جبل الكرمل في حيفا أو جبال لبنان ، والشجر يغطيها حتى لا تكاد تظهر ، لقد غرقت القصور في هذا الشجر حتى

تذكرت ميل الأميركان الى هذا النمط من إخفاء البيوت بالشجر ، فلهم على طريق سوق الغرب في لبنان دور في الجبل مثل الدور التي هي في الكرمل ، وهذه الضاحية يسكنها على ما قيل لي أكابر رجال الفكر والفن والادارة والجيش الذين شبعوا من حياتهم ، فجاءوا يودعون الحياة في هذا الربيع الدائم .

اليوم شعرت بسيل الأميركان الى الطبيعة ، ولكنهم لا يحبونها الا في شيخوختهم حتى لا تصرفهم عن العمل في شبابهم ، لأن العمل كلمة مقدسة في نظرهم مثل كلمة البيت في نظر الإنكليز ، فالفاتة الأميركية سواء آكان أهلها فقراء أم كانوا أغنياء يجب عليها أن تعمل وأن تكسب ، اليوم شعرب بأن الأميركان يحبون الطبيعة ، اني أكتب هذه الكلمات وموسيقى الموج ماتزال ملء أذني وحركاته المنسقة ملء عيني والضباب يغطي الشجر والشجريغطي البيوت ، فالطبيعة في ثوبين متناقضين : ثوب أبيض وهو ثوب هذا الموج الذي يصل الى أطراف الجبال والقصور ليحمل اليها ابتسام الحياة وقد كان في ظلمة الليل أربح من الموت ، وثوب أسود وهو ثوب الضباب الذي لا يريد أن يتخلى عن تجهمه وكآبته .

هذه هي الحياة : ابتسام وعبوس ، فرح وحزن ، عمل وكسل ، مالي ولهذه الفلسفة ، لقد طرحت هذه الكلمات على الورق ثم رفعت رأسي وأخذت أتمتع من الموج وموسيقاه ، هذه هي الحياة في مذهبي .

اني لا أنسى هذه القرية العمر كله وقد كتبت الي فتاة من أميركة تعلمني بأنها اشترت سيارة للتنزه في « كاليفورنية » فكتبت اليها : لا تنسي أن تزوري أجمل قرية شعرية في العالم : الكرمل .

ولكن هذه القرية على الرغم من هذا كله لا تزال كما يقولون في اصطلاح عصرنا ابتدائية في كثير من الأمور ، فالغلق الذي هو على باب

فندقنا يشبه غلق بيوت القرى في بلادنا ، حتى لا يكاد الانسان يصدق أنه في أميركة ، في بلاد الميكانيك ، وقد علمت أن أهل هذه القرية يريدون أن يحافظوا على وضعها البسيط البعيد عن عظمة المدن وهذا في الحقيقة ما يزيد في روتقها ، فهي اذا أصبحت مدينة فيها الشوارع العظيمة ضاع روتقها ولذلك تجد أهلها في الليل لا يضيئون أزقتها بالكهرباء ، فالظلمة شائعة في هذه الأزقة حتى لا تشتد الرغبة في المجيء إليها ، وهذا من غرائب الأميركان ، قرية لا مثيل لها في العالم : أبواب صغيرة وبنيان نسيج وحده وحنائق صغيرة على مداخل البيوت •

واذا نسيت شيئاً في حياتي فلا أنسى نزهتي وحدي على شاطئ المحيط الهادئ ، والقصور على شمالي ، وقد ظللت أمشي ساعة بين الحقائق ولا أسمع صوت طفل ولا صياح بائع ولا نهيق حمار عليه الكوسى والبادنجان ، فكأن القرية بسبب هذا الهدوء خاوية خالية ، لا يسمع الانسان فيها الا هدير الموج على الصخر ، وتغريد الطير على الشجر ، أما السيارات التي تمر في الشوارع فكأنها تسير على حرير ، لقد عشت ساعة في هذا الربيع الذي تغنى به البحري ، هذا الربيع الطلق الذي يكاد يتكلم •

العربية في مدرسة عسكرية .

قضيت في الكرمل على ماأظن أربعة أيام ولكني لم أقضها في راحة تامة ، فقد ازدحمت علي الأعمال في « موتري » فأنا لم أنعم بالكرمل الا في الصباح والمساء ، أما النهار كله فلا بد من قضائه إما في مدرسة عسكرية للغات وإما في زيارة مدرسة ثانوية أو في زيارة كلية عسكرية أو شهود عرض أو لقاء أحاديث ، والخلاصة كانت الأيام التي قضيتها في « موتري » أحفل أيام الرحلة بالعمل •

زرت المدرسة العسكرية للغات وهي مدرسة يتعلم فيها بعض الجند

والقواد لغة العرب حتى اذا أسندت اليهم أمور في بلاد العرب كانوا قادرين على التكلم بالعربية ، أساتذة هذه اللغة شباب من العراق ، منهم السيد كامل سعيد وهو رئيس قسم اللغة العربية ومنهم السيد وديع ددة وصالح المهدي وبينهم سيدة اسمها نوار داود وهي من دمشق أو ان لها أقارب في دمشق ، قد احتفل بنا هؤلاء الشباب الاحتفال كله ، فقد اجتمع في « موتري » فئة من رجال مؤتمر الثقافة الاسلامية ، فدعاهم الأساتذة الذين ذكرتهم الى دورهم ، كل أستاذ دعا رجلا منهم أو رجلين ، وكان حظي من الضيافة في دار الأستاذ وديع ددة وهو الذي استقبلني بسيارته في وصولي الى ضواحي « موتري » وأكرمني كل الاكرام ، تعيشت في داره وله زوجة أميركية غاية في اللطف وهو شاب غاية في اللطف ، هؤلاء الأساتذة غادروا وطنهم وأقاموا بهذه الأرياف الفتانة فاقنتي كل واحد منهم دارا واشترى سيارة وتزوج أميركية والسيدة نوار داود تزوجت رجلا أميركيا ، وسألته عن صلاتهم بزوجاتهم فتبين لي أن الأميركي الذي تزوج امرأة شرقية كانت عيشتها راضية ، وكذلك الشرقي الذي تزوج امرأة أميركية ، فقد تشد الألفة بينهما ، الا في بعض الأحوال ، هؤلاء الشباب يسكنون الضواحي ، بعضهم يسكنون : Pacifie Grove ، وهي ضاحية لا تقل فتنة عن الكرمل .

والخلاصة انهم يعيشون أهناً عيشة ، هذا ما قالوا لي ، وهم يحمدون الله على ذلك ، وكما دعاني السيد وديع ددة الى العشاء في داره فكدلك دعنتي السيدة نوار داود الى شرب الشاي في دارها وعرفتني الى زوجها الأميركي ودارها على صغرها تكاد تكون قطعة شعبية .

هؤلاء كلهم أساتذة اللغة العربية في المدرسة العسكرية ، ولكن كيف يدرسون هذه اللغة ، ان بين أيديهم كتباً تشتمل على مفردات وجمل قصيرة باللغة العامية وباللهجة العراقية ، هذه المفردات والجمل لها صلة بحاجيات الحياة ، فهي لا ترتفع الى أفق أعلى ، فالمقصد أن يحفظ

بعض الجند والقواد طائفة من ألفاظ وعبارات يحلون بها مشكلاتهم في الأحاديث وقد يجوز أن يكون من الصواب أن لا يقتصر الأساتذة على اللهجة العراقية لأن الجندي إذا كان نصيبه مصر أو لبنان أو الشام عسر عليه فهم اللهجات في هذه الأقطار الثلاثة •

في الصف الأول يضع الأستاذ ساعة على اللوح ثم يسأل طلابه الجند والقواد : كم الساعة ؟

وفي الصف الثاني وهو أرقى من الأول يسألهم عن جو مصر : هل ينزل المطر ؟

وفي صف آخر والأساتذة فيه السيدة نوار داود تسأل القائد : هل عندك أولاد ؟ هل عندك بنات ؟ فالمرأة يهمها الزواج قبل كل شيء ، ثم الأولاد •

يصل الطلاب بعد أحد عشر شهرا الى تعلم شيء من اللغة العربية واذا أرادوا التبسط في هذه اللغة ذهبوا الى الجامعة واذا أردوا الزيادة أرسلوهم الى بلد من بلاد العرب •

لابد لهؤلاء الأساتذة من الاستفادة من مرور رجال المؤتمر بمدرستهم فقد سألني الأستاذ كامل سعيد أن ألقى على الطلاب كلمة صغيرة وأن أترفق بهم وغايته أن يسمع هؤلاء الطلاب لهجة غير لهجة أساتذتهم ، وهذا أمر غير يسير ، فان الطلاب يصعب عليهم أن يفهموا أكثر مما تعلموه ، واللهجة التي تعلموها لهجة عراقية ، فعلى الذي يلقي كلمة أن يكون حكيما وأن يعلم أنه لا يخاطب جمهورا يعرف من هو الجاحظ ومن هو المتنبّي ، ولكنني تصرفت بعض التصرف في الأمر ، فتمهلت كثيرا في الالتقاء ونزلت في الألفاظ الى مستوى سهل ، وتأنيت حتى نجحت ، ودلني على نجاحي ضحك الطلاب وأنا أنكلم واصغأؤهم الي ، أما الكلمة التي ألقيتها فهي سهلة جداً ، فقد قلت بعد شيء من الممازحات والمباسطات ما معناه ، واللفظ يختلف ولا شك :

لما زرنا الرئيس أيزنهاور رحب بنا وقال : الولايات المتحدة أهملت في الماضي الاتصال بالشرق ، فهي اليوم تسعى في تقوية هذا الاتصال ، وفي بنائه على أسس من الثقافة ، لأن صلات الثقافة هي أقوى الصلات ، فعليكم أن تدرسوا اللغة العربية درسا جيدا وعلينا أن ندرس لغتكم درسا جيدا ، حتى اذا جئتم بلادنا زائرين فهمتم مايقوله الناس ، واذا جئنا بلادكم سائحين فهمنا مايقوله أبناءها ، واذا تفاهم البشر عم السلام بينهم ، فالتنازع لايقع الا من سوء التفاهم .

ليس هذا كل ماقلت ولكنه روح ماقلت ، وقد أحببت أن أتوثق من مقدار فهم الطلاب لكلامي فسألت أساتذة اللغة عن ذلك ، فأكد لهم طلابهم أنهم فهموا أكثر ماقلت .

المدرسة الثانوية .

الذي بقي في ذهني من زيارة المدرسة الثانوية أن الطلاب الذين يأكلون على السفرة يخدمون أنفسهم ، وقد دعينا الى الغداء معهم ، فلزمنا أن نخدم أنفسنا أي أن يحمل كل واحد منا صحنه بيده ويذهب الى الفتاة التي تصب الأكل فيذكر لها اللون الذي يريده ، فتضعه في صحنه فيأخذه فيجيء به الى مقعده فيأكله ، اني لم آلف هذه الطريقة فكثيرا ماكان يتفضل بحمل الأكل الي أحد الرفقاء حتى قال لي الدكتور حتي في دعوة : انك غير ديمقراطي ! اني استهجن كثيرا الهجوم على الأكل ولكن ماالعمل ، لقد شاعت هذه الطريقة في أكثر البلاد ، فمن المتعذر أن يجد صاحب الدعوة خدما لمائتي ضيف أو أكثر ، فليخدم كل واحد نفسه ، فمن استطاع أكل ومن لم يستطع حمل جوعه وأكل في داره .

ولكننا لم ندع الى المدرسة الثانوية للأكل وحده ، فلا بد من مشاهدة الطلاب في حركاتهم ، فقد كنت أعتقد أن حرية الطلاب والطالبات في الجامعة وحدها ، ولكن الذي رأيته أن الطلاب يخالطون الطالبات في

في المدرسة الثانوية ، فيخاصر الطالب من شاء من الطالبات وتخاصر الطالبة من شاءت من الطلاب ، وهذا نسط من الحياة ألقوه حتى أصبح من بدائه الأمور ، فلا يهتم به أحد ، ولا يفيض في الكلام عليه أحد ، ومثل هذه الحرية نجدها في ملاعب الطالبات ، فقد شهدتهن وهن يلعبن في الهواء الطلق والسيقان عاريات ولا يبالي بذلك أحد من الطلاب ، فلم أر طالبا يبصص أو يغمز أو يهمس ولم أر حركة تدل على شيء من ضعف الذوق أو قلة الأدب .

هذا كل مالفت نظري في المدرسة الثانوية ، لأن الزيارة كانت في وقت الأكل وفي وقت اللعب : خدمة الطالب نفسه على السفرة وهذا من لوازم الحياة في البلاد التي يقل فيها الخدم ، وحرية الطالب والطالبة وهذا من أبرز الخصائص في أميركة .

الكلية العسكرية .

لم يبق علينا الا زيارة الكلية العسكرية ، أول ما يستميل النظر في هذه الكلية وفي المدارس كلها وفي الجامعات بصورة خاصة : الملعب ، فالملعب في هذه المنشآت كلها انما هو الروح ، لأن حياة الأميركان قائمة على الرياضة ، تهتم بها نساؤهم كما يهتم بها رجالهم ، لقد أنشئت في هذه الكلية أو في جوارها بيوت حديثة للضباط ومدارس لأبنائهم حتى يضمن للضباط كل شيء ، يضمن له تعليمه أول الأمر ، ثم يضمن له مأواه ، ثم يضمن له تعليم أبنائه ، فلا يشغل فكره بشيء من هذه الأمور وأبناء الضباط الذين يجيئون الى المدرسة عمرهم خمس سنين ، وفي جملة ما يعلمونهم الرسم ، وأذكر أن التكتيك مستحكم في الصغار وفي الكبار فقد كان بين رجال مؤتمس الثقافة الاسلامية شيخ ذو لحية وعمامة ، فسأل أحد الصغار رفيقه : لماذا لا يحلق هذا الرجل لحيته ، فقد استغرب هذه اللحية كثيرا وسأل صغير آخر رفيقه : ماذا على رأس هذا الرجل ، هل

يوجهه رأسه ، لقد أتعبت هذه العمامة صاحبها وخلقت له مشكلات كما ستأتي الإشارة الى ذلك في « هوليود » .

من أساليب الأميركيين في تعليمهم الطريقة الآتية : شهدت في صف من الصفوف طالبا ينشيء محكمة وهو رئيسها ، المحكمة تحاكم بنتا وصيبا ، موضوع الدعوى : قراءة كتاب ، فالرئيس يتهم البنت بقراءة كتاب لافائدة فيه وعلى البنت أن تقنع الرئيس بأن الكتاب مفيد ، ولذلك لخصت له الكتاب ، ويظهر أن الغاية من هذا كله حمل البنت على قراءة الكتاب وعلى تلخيصه حتى تأتي ببرهان على استفادتها منه .

الثكنة .

ولا بدّ من الطواف بالثكنة مادمنّا في كلية عسكرية .

يهيئون للجندي في الثكنة والسجن العسكري كل أسباب الراحة ، يهيئون له رفاهيته في أكله ونومه ولبسه ، في المطابخ المبردات والمسخنات على أحدث أنواعها ، ويقولون ان السبب في هذه الرفاهية كلها ان الجندي الأميركي ديمقراطي ، فهو لا يألف الجندية ولهذا فانهم يكرمونه أبلغ تكريم حتى لا يستوحش من خشونة الجندية .

لقد شهدت كل هذا النعيم وشهدت أمر آخر لا بأس بالإشارة اليه ، ان المراهيض في الثكنة لاحواز بينها ، فالجندي ينزع سراويله أمام رفقائه حتى تألف العين هذه المشاهد ، فلا يفكر في الذي أحبوا أن يسموه « الشذوذ الجنسي » ، وكذلك الأمر في المدرسة الثانوية ، فالتلميذ في قضاء حاجته ينزع سراويله أمام رفقائه للغاية نفسها .

ولكن هل تبطل هذه الأمور ماسموه : الشذوذ الجنسي ، هربا من تسمية الأشياء بحقائق أسمائها ، لقد مثلت رواية في « واشنطن » صورت استفاضة هذا الشذوذ في الولايات المتحدة .

لقد وقفنا على شيء حديث من باب الاقتصاد في المكان ، فقد دخلنا المطعم للفرجة ، ولم أذكر أكان ذلك في الشكنة أم كان في الكلية العسكرية وإذا مناخذ الأكل والمقاعد مطوية في خزانة في الجدار غير ظاهرة ، فإذا جاء وقت الأكل فتحوا باب الخزانة فامتدت سفرة تسع عشرين طالبا ، فإذا فرغوا من الأكل طويت السفرة والمقاعد وأعيدت الى الخزانة على صورة آلية دون حملها أو تنزيلها ، وهذا غاية في باب الاقتصاد في المكان .

العرض .

أقام جنرال الحامية في « مونتري » على تلال شجيرة عرضا حضره المحامون في ولاية « كاليفورنية » وقيل لنا إن رجال الجيش يقيمون أمثال هذا العرض من حين الى آخر حتى يثبتوا للسكلف الأميركي أن الضرائب التي يدفعها لاتذهب سدى ، فالأميركي يريد أن يرى بعينه ، فهو قد ألف الآلات ، ألف هذا النمط من الحياة الميكانيكية ، فيجب أن يرى بعينه وأن يسمع بأذنيه وأن يلمس بيديه .

علم الجنرال بقدمونا فدعانا الى العرض الذي دام ساعتين ، لقد جلسنا على مقاعد من خشب على شكل مدرج ، واشتد البرد فوزعت على الجمهور مبطنات من صوف اتقاء للبرد ، أخذ ضابط من الضباط يشرح للجمهور أنواع السلاح المعروض وأدوات الحرب ، كالفذائف والدبابات والنفاثات وغير ذلك ، وكان في أثناء الشرح يأتي ببعض النكت ، مما يدل على أن الروح الأميركية لاتقبل الجد حتى في أشد الأمور التي تستوجب الوقار وأعني بها الجندية .

ليس من خصائصي أن أعرف أنواع هذا السلاح ، وانما الذي استنتجته أن الحرب في عصرنا هذا تستلزم السرعة في كل شيء ، سرعة في اطلاق النار ، وسرعة في عدد الاطلاقات وسرعة في نقل الآلات ، فقد

كانت كل آلة من المسدسات أو الرشاشات أو الدبابات تقذف دفعة واحدة ما يزيد على مائة قذفة وهذا أمر مخيف لا يستطيع الانسان وصفه ، فكنا نشاهد القذائف تلقى على بعد ، فتحرق الهدف ، فيتصاعد دخان ملون بجميع الألوان •

ثم جاءت النفايات وهي أعظم شيء في السرعة ، فكانت المدافع تعين لها الهدف فتتنقض النفاثة عليه وتقذف بنار جهنم وكانت النفايات وعددها أربع تلعب بعد ذلك في الجو •

قيل إن هذا العرض كلف ألف دولار وخمسمائة دولار وهو تكليف قليل لا يذكر بالقياس الى ما تكلفه الحرب في كل دقيقة ، وبعد أن امنحنوا أنواع السلاح ، كل نوع على حدة ، جمعوا الأنواع كلها وأطلقوا نارها دفعة واحدة والعياذ بالله ، فقد زلزلت الجبال زلزالها ، قالوا ان هذا العرض انما هو آخر عرض تشهده البلاد بسبب التكاليف •

هذا اليوم الذي قضيناه في « موتري » كان خصب الصور ، فمن مدارس اللغات التي تؤلف بين الشعوب على وجه الأرض ، الى أماكن التربية والتعليم التي تنشر السلام في العالم ، الى ساحات الحرب التي لا تبقي ولا تذر ، فكان البشرية لا تستغني عن الحروب ، وعبثا يقول رجال الفكر : ليت الدولة أنفقت هذا المال على كذا .. أو على كذا .. فان هذا القول يذهب جفاء ، فالأمير كان يستعدون للسلم بهذه الحضارة المرفهة ، ويستعدون للحرب بهذه الآلات القاضية ، آلات جهنم •

احاديث

١٠ تشرين الأول ١٩٥٣

يسيل الأمير كان الى السوالات والجوابات ، فاذا زرت رئيس قسم في جامعة بادرك من فوره بعد الترحيب فقال : هل تحب أن تسأل عن شيء ، واذا زرت ثكنة وأراك رئيسها أقسامها قال لك حين الوداع : هل تحب أن تسأل عن شيء وفي الجامعات تكثر السوالات في الصفوف حتى يكاد التدريس يضيع أثره .

في هذا المساء جعل لنا محل في المدرسة الثانوية في « موتري » وهو قاعة وسط ، دخلها مقدار ستين رجلا وامرأة ، وقد انتدب بعض أساتذة من مؤتمر الثقافة الاسلامية الى الحديث في هذه القاعة ، وكنت في جملتهم ، قدمت المحاضرين سيدة أمريكية كانت تعلم الفلسفة في الاستانة ، وذكرت خلاصة ترجمة كل محاضر ، ثم طرحت على كل واحد منهم سوآلا أو سوآلين وقد جلسوا على الكراسي في صدر القاعة .

كان نصيبي السوآلين الآتين :

لماذا تفرض الحكومات المراقبة على الصحف .

على ذكر الانتخابات في سورية وترشيح تسع سيدات أنفسهن ماهو رأيك في المرأة السورية .

تبين لي أن الأمير كان يحبون أن يعلموا أخبارنا ، فهم يجهلوننا ولذلك يصغون الى مايقوله كل محاضر ، ثم ان لهم ميلا خاصا الى

التنكيت ، فإذا سمعوا النكتة انبسطوا اليها وضحكوا وصفقوا ، وأذكر أنني في آخر السؤالات أي بعد ساعتين جاءت سيدة وقالت لي : أشكر لك كثيرا النكت التي تخللت حديثك ، ثم جاءت الي سيدة ثانية وقالت : لماذا لم تتزوج ، لأنها سمعت وأنا أحدث عن المرأة السورية أنني أعزب ، فقلت لها : جئت أميركة للزواج ، فهل أنت عزباء ، فضحكت كثيراً ، ثم لما طال الكلام وضاحت الصدور وأحب الناس التنفس وكادوا يسأمون ويضجرون كتبت ورقة صغيرة وأرسلتها الى السيدة الأميركية رئيسة الجلسة وفيها العبارة التالية : هذا وقت الشاي ، هذه الساعة الخامسة أفلم تنته الجلسة حتى نخلص من عناء السؤال والجواب ، فقرأت الكلمة على الجمهور ، فدوى التصفيق وقد شهدت في بعض الصحف الأميركية أن التنكيت الأميركي قريب من التنكيت الانكليزي ، فالنكتة في المجلة الأميركية لاتضحك بذاتها وانما تضحك بغرابة صورها وبغرابة أوضاع المتكلمين ، هذا أنه طويل ، وهذا بطنه منفوخ وما شابه ذلك .

أما الحديثان اللذان ألقيتهما فهذه خلاصتهما :

بينت للجمهور في الحديث الأول أن مراقبة الصحف جعلت في أيام الحرب للحفاظ من نشر أخبار ينتفع بها العدو ، ثم صرفت الحكومات هذه المراقبة عن هدفها الأول وجعلتها مجنا لها تتقي به هجوم الأقلام ، ومثل الحكومة التي تخاف الرأي العام كمثل المرأة القبيحة التي تخاف النظر الى المرأة ، فكما أن المرأة الجميلة الوجه لاتخاف النظر الى المرأة ورؤية محاسنها في هذه المرأة فكذلك الحكومة الصالحة فانها لاتخاف الصحف التي هي بمنزلة امرأة ينعكس عليها الرأي العام ، أما المرأة القبيحة الوجه فهي تنفر من المرأة حتى لاتقع عينها على مقابحها وكذلك الحكومة الفاسدة فانها تنفر من الصحف حتى لاتقرأ فيها أخبارها الفاسدة .

وذكرت للجمهور في الحديث الثاني خلاصة أطوار المرأة السورية في خلال أربعين أو خمسين سنة ، قلت في صدر الحديث : أفليس من عجائب الأمور أن يتكلم على المرأة رجل أعزب لم يتزوج في حياته ، ثم شرحت أطوار المرأة السورية في خلال نصف قرن ، بدأت بأيام الكتاتيب المظلمة ثم انتقلت الى المدارس الابتدائية ثم وصلت الى المدارس الثانوية حتى انتهت الى الجامعة ولم أشأ أن أبين للأميركان نهضة المرأة السورية دفعة واحدة لأن عقليتهم درجت على فكرة « التطور » فهم يحبون أن يعرفوا ميلاد الأشياء ونموها وتكاملها ، ذكرت لهم كيف دخلت الفتيات في بعض كليات الجامعة السورية حتى أخذت تشارك الرجل في كثير من الأعمال وأخذ عدد الفتيات يقرب من عدد الفتيان ولا يبعد أن يزيد عددهن في وقت قريب وحينئذ تنشأ الثورة بين الرجل والمرأة ، فربما غلبت المرأة على الرجل ، فيثور الرجل ويطالب بحقوقه •

قلت للأميركان : أتقنت الفتاة السورية في الجامعة ما أتقنته الفتاة الأميركية ما خلا أمراً واحداً فإنها غير ماهرة فيه ، انها غير ماهرة في لعبة الفوتبول !

أحب أن أدون في هذا المقام حادثاً حدث ، لما فرغت من الكلام ونزلت عن المنبر وخالطت الجمهور جاءني فتى عمره احدى وعشرون سنة وقال لي بالعربية ، بلهجة عراقية : انك لما تكلمت في الصباح في مدرسة اللغات قلت : هذا ولم تقل : هذا ، فقلت له : ان هذا هي الفصحى وان هذا هي العامية ، فقال : أنا أدرس اللغة العربية وسمعت حديثك في الصباح ، قلت له : ولماذا تدرس العربية ، قال : لأنني أبحث عن مشكلات الشرق الأوسط ، قلت له : ولماذا تهتم بهذه المشكلات ، أفلا تفتش عن عمل لك آخر ، فتردد قليلاً ثم قال : أنا يهودي ، أتعلم العربية لأدرس قضية فلسطين ووجهة نظر العرب ، ولم يطل الحديث بيننا ، ثم ودعني وانصرف

ولما غادرت « موتتري » توجهت نحو « لوس انجلوس » فوجدت في
الفندق الذي نزلته كتاباً من هذا الفتى باللغة الانكليزية وفي آخره هذه
العبارة بالعربية :

شكراً جداً
في أمان الله
« آير فانبرك »

واللفظتان الأخيرتان اسمه •

أما الكتاب فقد أعلمني فيه بأنه طالب في مدرسة اللغات وأنه سمع
حديثي الذي ألقيته في المدرسة وشهد محاضرتي في قاعة المدرسة الثانوية
في « موتتري » وذكرني أنه حادثني بعد هذه المحاضرة منفرداً مقدار
خمس دقائق وقال انه اتصل به أنني سألقي كلمة في « سان فرنسيسكو »
في جامعة Stanford وأنه يجب حضوره هذه الكلمة ، ثم طلب اعلامه
بصحة ما اتصل به حتى يجيء الى « سان فرنسيسكو » ويجتمع الي مرة
ثانية •

ليس في هذا الحادث شأن كبير ، انما المهم أن نعلم أن هذا الفتى
اليهودي يدرس العربية لا لغرض مادي وانما لغاية سياسية ، والمهم ان
نعلم أنه حرص على حضور حديثي مرة ثانية لا للاستفادة منه ولكن له
غاية أبعد ، قال هذا الفتى في نفسه : اني قد أمر بالشرق في يوم من الأيام
بعد تعليمي العربية وقد اجتمع الى هذا الأستاذ الذي سمعته في « موتتري »
فما يمنعني عن تأكيد التعارف بيننا من اليوم •

فلننظر الى مرامي أفكار اليهود البعيدة ، فلننظر الى مبلغ اهتمامهم
بقضاياهم ، لقد سأل بعد أن ودعني عن البلد الذي أتوجه نحوه وسأل
عن الفندق الذي أنزله فكتب الي الكتاب ، أفلا نجد أن هذا العدو
مخيف •

لوس انجلس LOS ANGELES

١٢ تشرين الاول ١٩٥٣

غادرت « الكرمل » في الصباح الى القطار الذي ينقلني الى « لوس انجلس » وأذكر أنني مررت على موقعين أجد اسميهما في دفثري : King City وSalinas من « ساليناس » ظهرت سهول مزروعة تشبه سهول البقاع في لبنان ولكنها أعظم وتنتهي الى جبال جرد ، وفتنة هذا الطريق أن العين قد تمل فيه من الشجر والغابات فتشتهي رؤية السهول ، فتطلع عليها هذه السهول وأكثرها قد زرعت فيها الخضر ، يجتاز الانسان هذه السهول ، فيمر بأباطح متسعة ، ثم بأغوار تشبه غور « بيسان » في فلسطين ، ثم بأودية عميقة ، ثم تفاجئه جبال مخيفة كأنه في جبال « حلبون » أو « سرغايا » في الشام وهكذا تختلف علينا المناظر من حين الى آخر ، فلا يدخل الضجر على قلب الانسان ، ولذة هذه المناظر أن بعض جبالها الجرد تشبه جبال بلادنا ، فأجد كثيرا من الأنس بها ، ثم يمر القطار على واد ، فيلفه حتى يكون القطار في أوله وآخره على شكل حافر الفرس وما زلت أتقل في هذه المشاهد ، فأمر على مواقف لا أرى فائدة في ذكرها وعلى صحارى منبسطة على المحيط الهادئ ، ثم على جبال تكون مرة شجيرة ومرة جرداً ، حتى وصلت Santa Barbara وهي أقدم مستعمرة اسبانية ، قيل لنا ان أهلها مشهورون بالكرم، واندور فيها تشبه الدور في جبال لبنان ، فهي منثورة عليها .

بعد هذا كله طلعت علينا « لوس انجلس » لقد ذكرت أقوال Guy في « أنربور » فقد قال : غداً ستجدون أخلاقاً في الغرب تختلف عن أخلاق الشرق ، لقد وجدنا هذا كله ، فإن القطار لما وصل الى « لوس انجلس » ودع مديره المسافرين بالمجهر وهذا الوداع لاعهد لنا بمثله في قطار من قطر « نيويورك » وشرق أميركة .

لكل بلد طابع خاص ، بعد المرور على صحارى وجبال وأودية دخلت في المساء مدينة زاهية بمختلف ألوان الكهرباء ، تدخل الابتهاج على القلب ، طابع المدينة أول كل شيء الترحيب بالناس ، ففي الفندق الذي نزلت عليه أوراق ترحيب بالمسافرين : أهلاً وسهلاً ... نحن في خدمتكم ... نحن بأمركم ... هذا شيء لاتعرفه أميركة في شرقها ، طفت آثار الأخلاق الاسبانية تظهر على المدن ، وهي أخلاق تشبه أخلاق العرب ، وطقق شجر يظهر لنا ولم نره على سواحل المحيط الاطلنطي : في الحدائق كثير من النخيل .

قيل لنا ان « لوس انجلس » ثالث مدينة في الولايات المتحدة من حيث الكبر وأكبر مدينة في العالم من حيث المساحة وعلى بعد ساعة منها أعلى جبال الولايات المتحدة ، تمتد من الشمال الى الجنوب ثمانين كيلو متراً ومن الشرق الى الغرب ستة وخمسين كيلو متراً ولكن مالي ولهذا كله ، أفكانت خواطري في تقويم البلدان .

اليهود في كل مكان ، في دور السينما ، في الطرق العامة ، والمقاعد في هذه الطرق عليها إشارات الصهيونية .

علينا قبل كل شيء أن نزور جامعة « كاليفورنية » تختلف هذه الجامعة عن غيرها ، حدائقها عبارة عن مروج خضر يقل فيها الشجر وهي غارقة في تل تحيط به جبال المدينة بدورها وقصورها المنشورة عليها . تدخل المكتبة فتجدها في داخلها كأنها أندلسية بأعمدتها والفسيفساء

على هذه الأعمدة ، والمحراب في صدر المدخل ، والجامعة كلها ، في الداخل والخارج ، قد مزج فيها الطرز الاسباني بالطرز الانكليزي ، أما جامعات الشرق مثل جامعة « برنستن » وغيرها فهي قريبة من الطرز الانكليزي ، تقع العين في بعض مياشي الجامعة على قناطر تشبه قناطر مسجد بني أمية في دمشق .

سجن الطلاب قريبة من سجن الاسبانيين والحرية فيهم مثل الحرية في أكثر جامعات أميركة ، دخلت بهو الطلاب الذي يستريحون فيه فرأيت طالبة قد استلقت على حضن طالب فهو يخاصرها ويعانقها على مرأى من إخوانه ولا يبالي أحدهم بذلك ، خرجت من البهو فدخلت دكان الكتب ، فشعرت بسيل الأميركيين الى الغرائب ، لقد صورت على الكتب صور غريبة الأشكال ، وأكثرها صور حيوان ، هذا هو ذوق الأميركيين .

فاذا غادر الانسان هذه الجامعة وطاف قليلا رأى الجبال الشجيرة والتلال المرتفعة وعليها القصور الشاهقة .

خطب وخطباء

في « لوس انجلس » ميدان اسمه : ميدان الجنرال Pershaing وهو حديقة صغيرة مربعة في ساحة صغيرة ، في وسط الحديقة مرج أخضر وعلى أطرافها مقاعد وبعض الشجر .

في هذه الحديقة حلق شتى ، طائفة من أهل هذه الحلق قد جلسوا على المقاعد وغرقوا في تأملاتهم وأحلامهم ، غلايينهم على أفواههم ، والدنيا في نظرهم دخان وحلم ، ليس بينهم وبين الأميركان شيء من المشابهة في طبائعهم ، فالكسل في معتقدتهم أحلى من العسل ، وطائفة يخوضون في كل شيء ، في الدين والسياسة والاقتصاد على نحو مايجري في « هايدبارك » في لندن ، الا ان حديقة « برشين » لا تكاد تذكر الى جنب « هايدبارك » من حيث السعة ، فمثلها في ذلك كمثل زاوية من زوايا « هايدبارك » .

في أمور الدين يسألون هذا السؤال : هل النصرانية دين روحي أم دين مادي ، وهل يجوز للرجل ان ينام مع أخته .
في السياسة يسألون هذا السؤال : لماذا ندفع هذه الضرائب ، لماذا لا تتفق نحن والروس والصين ، لماذا نحالف الانكليز والفرنسيين .

يخطب الخطيب وهو واقف على الأرض وجمهور المستمعين من رجلين الى خمسة رجال ، فاذا خطب الخطيب وقال له أحد المستمعين : أنت حشاش ، قال له الخطيب : الحشيش في يديك ، وماذا في يديه ، انه

يحمل الكتاب المقدس ، فقد تبلغ حرية الكلام في هذه الحقيقة المبالغ .
ولكن من هم الخطباء ، انك تجد في ميدان « برشين » شيخوخات
متهدمة ، تعلو وجوه أصحابها صفرة مثل صفرة الموت ، كأن أجسامهم
هياكل من عظم لا لحم فيها ولا دم ، سحنهم تدل على أنهم مجانين ، فهم
إمامرضى وإما قد خرفوا ، هذه أغرب سحن رأيتها في أميركة ، والشرطي
يجيء ويذهب بين هؤلاء الموتى محافظة على النظام .

هؤلاء هم الخطباء ، بينهم امرأة عجوز تتكلم على السيد المسيح أو
عبد أسود مشفره نصفه يعزف بالكمنجا ، أو عبدة كأنها سعف نخل
تغني له .

ترى الحماسة بادية على وجوه الخطباء ، هذا أفقه بارز يكاد يتحرك
من الغضب وهذا عينه جاحظة وهذا ينظر اليك كأنه أبله ، يكلّمك وأنت
لا تعرفه ، فيشركك في آرائه ، يرفع حاجبا ويخفض حاجبا ويقبض كفا
ويبسط كفا ويقدم رجلا ويؤخر رجلا ، ثم يهجم على خصمه الذي يناظره
في الحلقة ، فتظن أنه يريد أن يأكله ، ثم يرتد عنه فيستمر في خطبته ، ثم
تعود المعركة الى شدتها ، ثم تهمد العاصفة حتى ينهزم أحد المتناظرين ،
فيقف المنهزم جانبا ، فيضع غليونيه بين شفتيه ، ويدخن ، فاذا عاد اليه
نشاطه عاد الى المناظرة .

اني لأكتب هذه السطور وأنا أرى أشباح هذه الشيخوخات البالية
تملأ عيني بألوانها الشاحبة وأجسامها النخرة ، لقد أولعت الولع كله
بهذه المشاهد ، فلم تساعدني نفسي على الخروج من ميدان « برشين »
شهدت حلقة فيها ثلاثة مستعدين يخطب فيهم خطيب ولما فرغ من خطبته
دنوت منه وهنأته وقلت له : كأنك « ديموستن » فحملق وقال :
ديموستن ! ديموستن ! كأنه لم يعجبه هذا الخطيب اليوناني ، ثم تركني
ومشى بعض خطى ، ثم عاد الي وشكر .

هذا مشهد لأنساء سجيس الليالي •

سهرة .

علم بقدمونا السيد « يوسف آدمو » أصله من الموصل وهو قد ولد في أميركة ، يتكلم بالعربية تكلماً جيداً لأن والده كان شديد الاعتناء بها ، أما أبناؤه فلا يعرفونها ، كما علم بقدمونا أحد أقاربه السيد فايز القيم وهو من دمشق ابن أخ الدكتور شاكر القيم أحد الوزراء في أيام الانتداب ، درس السيد فايز في معهد الحقوق في دمشق ، وهو يذكر أساتذته القدماء ويعرف ناساً كثيرين من دمشق ، يحافظ على العربية ، أما أبناؤه فيتكلمون بالانكليزية ، والسيد فايز متعصب للأميركان ، مفتون بانسانيتهم ومسامحتهم ، ولكنه يقول انهم غير مصقولين ، لا يلاطفون ولا يجاملون •

دعانا السيد آدمو الى قصره وهو واقع في ضاحية تشبه عاليه في جبل لبنان ، قصر منيف فيه حديقة أنيقة ، وقد قيل لنا ان السيد آدمو أغنى رجل في « لوس انجلس » دعانا في الساعة السابعة مساءً فقضينا أربع ساعات ، ثم غادرناه قبل منتصف الليل مسرعين الى مطعم تعشى فيه قبل أن تغلق المطاعم أبوابها •

أشرت الى هذه السهرة لأقول ان العربية أخذت تنقرض في دور أبناء العرب ولكنها طفقت تعيش في بعض المدارس والجامعات ، كمدرسة اللغات في « موتري » أو كجامعتي « برنستن » و « شيكاغو » وغيرهما •

هوليوود HOLLYWOOD

أمنيتان غلبتا على نفسي في أميركة : زيارة شلالات « نياكرا »
وزيارة « هوليوود » وإذا أدركت مقدار حرصي على زيارة الشلالات
فلم أدرك مقدار حرصي على زيارة « هوليوود » لست من هواة السينما
لأن عيني تتعب كثيراً من اطالة النظر ، وأنا لا أعرف من نجوم «هوليوود»
نجماً واحداً وإنما أسمع عن نجم سيأتي الكلام عليه ، فما الذي شوقني
إلى « هوليوود » ولم أشهد في حياتي كلها أكثر من عشر روايات ولكن
لا بد من زيارة « هوليوود » .

كيف كنت أتصورها قبل هذه الزيارة ، كنت أتصور المحيط الهادئ
وأتصور جانباً من ساحله فرش برمل أبيض ناعم كأنه حرير أملس ،
والمثلثات تمتد على هذا الرمل في النهار معرضة أجسامها اللينة للشمس ،
هذا كل ما كان يخطر على بالي في « هوليوود » ولكني لم أدرك شيئاً من
هذه الأحلام .

قيل لنا لا بد من زيارة حاكم « لوس انجلس » حتى يتوسط لنا
في دخول دور التمثيل في « هوليوود » فذهبنا إلى البلدية وكأنها أثر من
محاسن الفن ، كأنها دار تحف ، وأعلمنا الحاكم برغبتنا في السلام عليه ،
فاتتظرنا وقتاً غير قصير حتى أذن لنا فدخلنا عليه وهو شاب يكاد يبلغ
خمساً وأربعين سنة ، رحّب بنا ، فذكرنا له رغبتنا في دخول دور التمثيل
فوجدناه قد ارتبك بعض الارتباك ، فكأنه لاسيطرة له على هذه الدور ،

ولكنه لم يشأ أن يظهر ارتبائه ، وإنما مهّد بكلام فهمنا منه المقصد قال : ان الناس كثيراً ما يحبون زيارة دور التمثيل في « هوليوود » وأنا لأرى شيئاً يستوجب هذا الاهتمام ، فاستتجنا من كلامه أنه غير قادر على التوسط في هذه الزيارة ، فاستأذناه في الانصراف وانصرفنا .
واني لعلّى درج البلدية ومعنا شيخ بجبته ولحيته وعمامته من أعضاء مؤتمر الثقافة الإسلامية اذ وقعت عين امرأة عليه ، فاستغربت هذا الزي والأميركان على الرغم من ميلهم الى الغرائب لهم أدب يمنعهم عن الفضولية ، فلم تستطع هذه السيدة أن تطوي ميلها الى معرفة صاحب هذا الزي الغريب ، فرجعت الينا وسألت : ماهو هذا الزي ؟ قلت لها : ان صاحبه شيخ مسلم ، هل أعجبك ، قالت : جداً .

مالي وللشيخ ، إننا أريد الذهاب الى « هوليوود » قال لنا الدكتور جواد علي أحد أعضاء المؤتمر : أنا أمهّد لكم الزيارة وقد أخطأتم في مراجعة الحاكم ، فذهب الى الهاتف وطلب صديقاً له في « هوليوود » وسأله أن يمهدّ لنا زيارة دور التمثيل ، فقال صديقه : احضروا وكل شيء جاهز ، فقصدنا الى هوليوود .

زرتها مرتين ، مرة في الليل فلم أعرف شيئاً عنها ، وإنما أذكر أننا صعدنا على مرتفع فيه مرصد يجيء اليه الأميركان للفرجة ، فوقفنا على مقربة منه دقائق وهو يطل على شارع يمتد من « هوليوود » الى « لوس انجلس » طوله على ما قيل لنا أربعون كيلو متراً ، تتلأل الأنوار فيه من أوله الى آخره ولا ينقطع عنه مرور السيارات في النهار والليل ، ولكن أين « هوليوود » أين فتنتها ، أين محاسنها وحسانها ، هذا كله لم أهتد اليه في الليل .

وزرتها مرة في النهار لما أذن لنا في زيارة دور التمثيل ، انطلقنا نحو هذه الضاحية واذا نحن في ضاحية كلها فن ، شوارعها عريضة ، ودورها رائعة ، وحدائقها باسمة ، تحيط بها الجبال من كل طرف من أطرافها

والقصور منشورة على هذه الجبال ، فالتناسق بين الفن وبين الضاحية التي
يمثل فيها الفن متكامل من جميع الوجوه .

هذه صورة « هوليود » فأنا لم أشهد رملاً كالحرير ولم أشهد
أجساماً ناعمة وبلغ الجوع منا كل مبلغ ، فقبل لنا ان في « هوليود »
مطعماً تأكل فيه نجوم السينما ، فذهبنا الى هذا المطعم ودخلناه ، صور
المشلات معلقة على الجدران كلها ، فتردد الشيخ الذي معنا قليلاً في
الدخول وكاد يتمتع ، فأقنعت به أن هذا المطعم عام يدخله من شاء وأن
هذه الصور على الجدران انما هي من باب الزينة ليس غير ، فرضي
بالدخول بعد كثير من التردد ، فجلسنا في أول المطعم حتى لا تلتفت
العيون الى الشيخ ، ولكن ماكدنا نجلس حتى ارتفعت الأبصار اليه ،
الى عمامته وجبته ، فحسبته فتيات « هوليود » انه جاء ليدخل في رواية
من روايات ألف ليلة وليلة ، وترك بعضهن الأكل وأخذن يصعدن النظر
فيه ويصوبنه ، فقد أتعبت هذه العمامة صاحبها وأتعبتنا وأتعبت
الناس معا .

استرحنا بعد الأكل قليلاً في منزل رجل من فارس يشتغل في دار من
دور التمثيل وهو الذي استأذن لنا في الزيارة ، ثم قصدنا الى احدى
هذه الدور وبقي الشيخ في المنزل ، هل علي من حرج اذا اعترفت في
هذا المقام بأني قبل زيارة « هوليود » كنت لا أعرف معنى : Studio
على كثرة سماعي لهذه اللفظة ولم أتصور على أي شيء تدل وقد حملت
جهلها كل حياتي ، فلما قيل لنا اخترنا لكم Studio كذا لزيارته شرعت
أفهم شيئاً قليلاً من معنى اللفظة ، لم أدرك معناها الادراك كله الا
بعد أن دخلت هذا المكان .

قيل ان دور التمثيل الكبيرة خمس والدار التي اختاروها لنا
من الخمس الكبيرات احترقت مرة فكلفت سبعة ملايين دولار ونصف
مليون .

ماذا في هذه الدار ، مدينة قائمة بنفسها ، فيها الصحارى لتمثيل رواية في الصحراء وفيها البحار وعليها السفن الماخرات ، وفيها القصور ، وفيها العمال ، فكأن هذه الدار أكبر من المعمل الذي زرته في «ديتريت» .

الآن فهمت معنى Studio ، لقد حضرت في حياتي كلها عشر روايات في السينما ، فكنت أعجب من القصور والبحار ومشاهد الطبيعة ولكن هذه العظائم قد صغرت الآن في عيني ، انها كلها مزيفة فلا قصور ولا بحور ولا سفن ، وانما دور من خشب تهدم في دقيقة وأمواه مجموعة تنقطع في دقيقة وسفن تفك في دقيقة ، حتى النجوم نفسها التي كنت أشهدها في السينما ، فان جمالها ابن الصنعة ، المثلة يعنى بتزيينها وتجميلها العناية كلها ، حتى تصبح على الصورة التي نراها عليها في السينما .

من حسن حظي أن الدار التي دخلتها كانوا يثلون فيها مشهدا من مشاهد رواية ، فرأيت الغرفة التي كان فيها الممثل والمثلة ولم أسأل عن اسميهما وقيل لي انهما مشهوران ، رأيت كيف يلتفتون الأصوات ويضبطون الحركات ولكني رأيت الاتقان كله ، وهذا وحده كاف ، فقد تعاد الحركات والأصوات عدة مرات حتى تضبط الضبط كله وحتى يصح التقاطها للمرة الأخيرة ، تعاد في بعض الأحيان مدة ساعتين ، فالحركات والأصوات التي تستغرق على « الشاشة » خمس عشرة ثانية يقضون في اتقانها في دار التمثيل ساعتين أو أكثر بحيث قد ينقضي النهار كله حتى يضبط مقطع صغير من الرواية ، لا مشهد بأجمعه .

أما المثلة فانها في خلال التمثيل غيرها على « الشاشة » فلا حسن ولا جمال ولكنها اذا عرضت على الشاشة شغلت التملوب وذلك بسبب ما سماه أبو الطيب المتنبي : التطرية ، فلا تزال تزين وتجميل حتى تصبح طرية أي غضة .

آفا غاردنر

على ذكر « هولود » ونجومها اللامعات وقع في نفسي الكلام على مشكلة ذهبت شهرتها في عالم السينما وأعني بها : « آفا غاردنر » لقد كنت في مجالسي الخاصة أسمع عن فتنها أشياء كثيرة ولكني لم أحضر رواية من رواياتها ولما كنت في « لوس انجلس » أو في « سان فرانسيسكو » لا أذكر ذلك قيل لنا انه ظهر نوع من السينما يختلف عن النوع الشائع ، اني لا أميل الى السينما ، فلم أسأل عن هذا النوع و لآعن اسمه ، ولم أبال بشيء من هذا كله ، ولكن رفيقي اقترح علي الذهاب الى هذا السينما ، وأصر علينا الدكتور جواد علي في رؤيته لأنه يستوجب هذه الرؤية ، فرضيت بهذا الاقتراح وبهذا الاصرار وأنا لم أسأل عن الرواية ولم أهتم بموضوعها ، أذكر أنني دخلت سينما ما كنت أتصور فخامة مثل فخامة قاعته ، ومن حسن الاتفاق كانت « آفا غاردنر » تثل في تلك الليلة ، بقي في ذهني أن الرواية جرت في صحارى أفريقية ، وأن بطلا من أبطالها كان مشهورا بصيد الآساد والنمور والفيلة ، لهذا البطل زوجة صحبته في الصيد كما صحبته « آفا غاردنر » نفسها ، قد يختلف موضوع الرواية ، ربما كانت فيه زيادة لا أذكرها أو كان فيه نقص لا يمر على بالي ، انما المهم في هذا كله : « آفا غاردنر » نفسها ، كانت مهمة آفا غاردنر في هذه الرواية صرف الصياد عن زوجته أو صاحبته وجره الى جها ، هذا هو الشيء الذي شغل ذهني في الرواية كلها ، ثم أر في حياتي

امرأة مثل « آفا غاردنر » لا من حيث محاسن جسمها ولا من حيث قوة جاذبيتها ولا من حيث شدة شخصيتها ، والأذواق في هذا الباب تختلف كل الاختلاف ، ولا جدال في الذوق ، رزقت « آفا غاردنر » سحرا لم يرزقه كثير من النساء غيرها ، ان لها سيطرة على من تخاطبه عجيبة ، وقد يعينها على هذه السيطرة خفة في روحها ، فهي صاحبة نكتة ، ويزيد في محاسن نكتتها انها تضحك الناس ولا تضحك ، وانما تبتسم ابتساما لا يكاد يظهر أثره ، عنيت « آفا غاردنر » في هذه الرواية بصرف الصياد عن المرأة التي كانت معه وجذبه اليها ، فسلكت الى ذلك المسالك كلها وكانت في كل مرة يتعصى عليها البطل الصياد تدخل غرفتها ، فتمزق ثيابها أو تكسر أوانيها أو تزوي ما بين عينيها أو تعض شفتيها الى غير ذلك من الحركات العصبية ، ثم كانت تهدى أعصابها وتعود الى صاحبها فتشرع في ايناسه واضحاكه وجذبه واستمالته ، وما زالت به حتى أدخلته قلبها ، فهدأت نفسها واطمأن بالها وأخذت تذوق لذة عذاب عاشقها •

هذه الطبقة من النساء عرفها كتاب نشره « بورجه » أدق تعريف وسمى المرأة التي على شكل « آفا غاردنر » Coquette وسميها بالعربية : الخلافة^(١) ، لقد تفضها الكتاب تفضا ، فتغلغل الى أعماقها وكشف عن بواطنها وعرضها على أبصارنا وقلوبنا لحما ودما وروحا ، فصوّرها أبلغ صورة وأعمر ومن أجل بلاغة هذه الصورة وعمقها لم أشأ أن تبقى مطوية في كتب الأدب الفرنسي ، قال صاحب التعريف : « من خصائص الخلافة أنها تريد أن يحبها الرجل دون أن تحبه »

(١) جاء في روضة المحبين لابن قيم الجوزية ان الخلافة هي الحب الخادع والخيلة الخداعة من النساء وعلى هذا أرى ان الخلافة أصلح من المفنّاج لكلمة Coquette ، لأن المفنّاج لا تفي بالمعنى الذي شرحه كتاب « بورجه » .

وأن تولد في قلبه الأهواء من غير أن تشاركه فيها ، فهي من هذه الناحية امرأة قاسية ، همّها الوحيد التعذيب وسبيلها الى هذا كله المخادعة ، فهي تجهد قبل كل شيء في أن تأتيك ببرهان على أنك قد تركت فيها أثرا عميقا كله جدّ ، فهي تحاول أن تجرّك الى طريق الفاجعة ولذلك فإن كل همها مصروف الى اقناعك بأنك تلفت النظر ، فقد اوتيت في هذا المعنى فنا متكاملا ، انها تسأل عنك معارفك حتى تهتدي الى الأفكار التي تلذك : مثل ذوقك الخاص في الكتب أو في التصوير أو في المسرح وما شابه ذلك وهي تحدثك بهذه الأمور كلها على شكل يقنعك بأنك اذا لم تكن حاضرا ملء عينها وسمعها فهي تفكر فيك طويلا ، وهي تجعل فرقا عظيما بين أسلوب استقبالك وتلقيك وبين صلتها بغيرك من الناس ، بحيث يدخل عليك الزهو من ذلك ، فاذا كان من عاداتها أن تمازح الناس فانها تلازم الجد معك حتى تكاد تظهر عليها الكآبة ، بحيث تعتقد أنت أنك بمحضر امرأة لا يعرف بواطنها أحد ، واذا كانت عاداتها الوقار فانها تطرح معك الكلفة والحشمة ، واذا كانت من أهل الموسيقى فانها تنتخب قطعاً لا تغنيها الا لك واذا فرغت من ضربها بالبيانو فانك تدهش من حركتها وهي تغلق البيانو ، حركة تدل على ظاهر خجلها وورعها ، واذا كانت تعنى بالتحف فانها تستشيرك في مشترياتنا ، واذا كانت المروحة العتيقة التي يعرضها عليها البائع لا تعجبك فهي تستعد لاعادتها اليه على الرغم من فرط حبها لها. انها لا تقرأ من الكتب الا ماتوصيها بقراءته واذا لم تكن من أهل الموسيقى أو الفن أو الأدب فانها تعرض عليك تطريتها « Toilette » وتسألك عن ثيابها كأنها طرحت مصيرها على قدميك .

هذه هي مبادئ الخلافة ، تلك المبادئ المكتوبة بلغة لم يستطع
أحد من الناس أن يحل طلاسمها حتى اليوم .
فاذا أقنعتك الخلافة على هذا الشكل بأنك دخلت قلبها فانها
هي التي دخلت قلبك ، ولا تدري كيف كان ذلك وحينئذ تشرع في
تعذيبك واجدة في هذا التعذيب أقصى لذة .

١٥ تشرين الأول ١٩٥٣

وصلت الى « تكسن » في الليل ، اني الآن في ولاية : أريزونة « Arizona » لم أر شيئا على الطريق بسبب الظلام ، ولكنني استفتت على شروق الشمس في الصحراء ، والطريق أكثره صحراء ، دخلت مدينة هادئة ساكنة ، لا بساتين تطيف بها ولا جبال شجيرة ، فالمدينة منبسطة في سهل على سفح جبل والنخيل باسق في الحدايق العامة القليلة ، اني في صحراء •

لا حياة « لتكسن » في الليل ، فترى شوارعها خالية من النساء الذاهبات الجائيات ، تجد فيها أنوار الكهرباء الساطعة ولكنك لا تجد فيها أنس النساء والفتيات ، انها موحشة ولا وحشة الصحراء وأظن أن أكثر شبابها يتزوجون في سن العشرين ، فيها بعض الملاهي ولكن ليس فيها ضجة المدن ، وفتنتها في الليل في ليلة قمرء وذلك اذا خرجت الى أعاليها ، الى هذا التل الذي يسمونه : تل العشاق ، لانتيا ب العشاق ايآء في الليل ، فترى أمامك مدينة مائجة بأنوارها ، منبسطة تحيط بها جبال جرد وصحراء ماحلة ، هذه هي فتنتها ، فهي كالكوكب اللامع في ظلمة الليل •

أول ما زرته في « تكسن » الجامعة ، وقد علم بقدمونا رجال جامعات الغرب ، فكانوا يرسلون سياراتهم الى المحطات لاستقبالنا وكانوا يدعوننا الى الغداء أو العشاء في جامعاتهم ، وكنا نطوف

بسياراتهم على المدينة وضواحيها ، اني لا أزال أذكر كلمة Guy
غدا ستجدون أخلاقا في الغرب تختلف عن أخلاق « نيويورك » •

دخلت جامعة « أريزونا » فشعرت بأنها بنت الصحراء ، فالنخيل
مغروس على أطرافها وهي كلها حديثة البناء ، فقد أنشئت من ثلاث
وستين سنة ولكنها معزولة عن المدينة بسورها ونخيلها وزيتونها ،
الجامعة للحكومة وموازنتها تبلغ في السنة أربعة ملايين دولار وتأتي
اليها الاعانات والمساعدات للاعتناء بالزراعة •

في هذه الجامعة متحف نسيج وحده ، معنى ذلك أني لم أشهد
مثله قبل اليوم ، فيه بسط من نسيج الهنود سكان البلاد في الاصل ،
وفيه مقطع شجرة عمرها ألف وسبعمئة سنة ، محيطها ثمانية أمتار ،
فالمتحف مختص بلباس الهنود ، ولا سيما لباس رقصهم ، بأدوات
صيدهم ، بسلحهم ، بموسيقاهم ، بحيوان صحرائهم ، وأكثره
الغزلان •

سألوني في الجامعة أن أحضر مناقشة من مناقشات الطلاب ، فدخلت
صفا اجتمع فيه فئة من الطلاب للمناقشة في موضوع الأديان والأستاذ
يرشدهم ، فهم يضبطون الجلسة وفي الجلسة التالية يقرأ أحدهم
خلاصة المناقشات الماضية وهذه طريقة من طرائق الأميركيين في
جامعاتهم •

طلب اليّ الأستاذ أن ألقى كلمة مناسبة ، فقلت للطلاب وعددهم
قليل :

ان الأديان بضاعة صدرت عن بلادنا الى البلاد الثانية ، اشتغلنا
فيها زمنا طويلا ، فادت اختلافات الناس في دينهم الواحد الى كثير من
البغضاء وأدت اختلافاتهم في أديانهم المتباينة الى كثير من المنازعات ،
فاذا أرادت أميركة أن تشتغل بالمناقشات فيها فلست أعلم ماذا تكون

العاقبة ، الأديان كلها توجه البشرية نحو الخير ، فعليكم أن ترموا في مناقشتكم فيها الى ما يقوي حب البشرية .

سرّ الأستاذ كثيرا وقال لي : تمرّ علينا عشرون سنة حتى نصادف أستاذاً أجنبيا في جامعتنا يزورنا ويحدث طلابنا .

ثم شهدت أستاذا يحاضر طلابه وكان عددهم ثمانمائة طالب ، وهو أستاذ الفلسفة ، يجمع طلابه مرة في الأسبوع في مدرج كبير ، فيلقي عليهم محاضرة عامة لا سؤال فيها ولا جواب ، موضوع محاضراته : ارسطاطاليس ، وقد تبين لي أنه موضوع جاف ، وجدت ان عناية الطالبات بالاستماع كانت أشد من عناية الطلاب ، فكنّ يلخصن أقوال الأستاذ أكثر من الطلاب .

هذه خلاصة ما علق بذهني من جامعة « اريزونة » ثم ودعت رجالها وانصرفت .

الرياضة .

على مقربة من الفندق الذي نزلت به في « تكسن » واسمه : Santa Rita حديقة عامة ذهبت اليها في المساء ، في أول عتمة الليل ، فرأيت فيها ملاعب ، الناس يلعبون ولكني لم أعرف اسم لعبتهم ، انها تشبه حلقا يضعون ثمانيا منها في الأرض فيقف لاعبان من جهة ولاعبان من جهة ثانية ويدحرجون الحلقة حتى تمس أختها من الطرف الآخر .

هذا النوع من اللعب يروّض العين واليد والجسم كله بالانحناء والنهوض ، الذين كانوا يلعبون هم فلاحون تركوا مزارعهم القريبة يوم السبت ، فهم يلعبون ساعتين أو أكثر ، وبينهم نساء ، يتراوح عمر الرجل بين ستين وخمس وستين سنة وعمر المرأة بين خمسين وخمس وخمسين سنة ، أجسامهم كلها قوية منتصبة ، تغلب البساطة

على ظواهرهم ، بساطة الفلاح ، انهم بدلا من أن يذهبوا الى الملاهي يذهبون الى حديقة عامة يروضون فيها أجسامهم ، والفلاح في الولايات المتحدة يغتتم فرصة الجمعة أو السبت أو الأعياد فيجيء الى المدينة ، ومعه زوجته وأولاده ، ويجد لذة عظيمة في هذه الجيئة ، ثم يعود الى المزرعة ، فتكون مشاهد المدينة وملاعبها أو ملاهيها موضوع أحاديثه في السهر في داره .

والمرأة الفلاحة تلبس لباس الرجال ، تلبس سراويل الرجل وقميصه وقبعته ، وتركب الخيل ، فهي بالرجل أشبه منها بالنساء ولا غرابة في ذلك لأنها تعاون زوجها في المزرعة .

الصحفيون .

جاءني صحفي في « تكسن » وسألني هذا السؤال : هل أنت مسلم ، سني أم شيعي أم بهائي .
استغربت هذا السؤال فقلت له : ان هذه السؤالات بطلت في بلادنا وهي لم تبطل بعد في بلادكم !

ثم جاءني صحفي آخر وأنا في جامعة « أريزونة » وشرع في طرح السؤالات عليّ ومن جملتها : هل من سبيل إلى اتفاق الشرق الأوسط ، فقلت في نفسي : تغدّ به قبل أن يتعشى بك ، فأخذت أطرح عليه السؤالات ، فسألته عن جريدته والمحررين فيها ، وعن مقدار ما يطبع منها ويبيع وعن موضوعاتها ، ثم قلت له : هل لك أولاد ، قال : نعم ، قلت له : هل هم متفقون في دارك ، قال : نعم ، ثم اختصر الكلام وانصرف ، فلما خرج رأيت أمين الجامعة يضحك ويستغرق في الضحك ، فسألته عن السبب في ذلك ، فقال : انكم معاشر الشعراء أنصاف آلهة ، لماذا سألته عن اتفاق أولاده ، أفكنت تعلم أن أبناءه يتقاتلون كل يوم في الدار ويتخاقون وقد عجز عن الإصلاح بينهم ،

أفلم تر أنه خجل من بعد هذا السؤال وعجل في الانصراف لأننا واقفون على حاله في داره ، فسترى أنه لا ينشر حديثك غداً في جريدته ولا ينشر صورتك جزاء لك وهو سينشر حديث زميلك وصورته ، ولما طلع الصباح علينا لم أجد في صحيفة هذا الصحفي حديثي ولا صورتني وقد أحب أن يعتذر فقال لأمين الجامعة : اني خجل جدا من ضيفكم ، صدرت الجريدة وليس فيها شيء عنه ولا فيها صورته والسبب في ذلك اهمال المحرر .

الهنود .

قربنا من الهنود ، من قراهم ومساكنهم ومزارعهم ، زرناهم في عدة ولايات ، زرناهم في قريتهم القريبة من « تكسن » ان لهم دورا من الطين ومن الخشب الخاص « بتكسن » ولا يوجد منه في غير بلاد ، شكله عمودي يبلغ طوله مترين أو ثلاثة أمتار وله شوك يشبه شوك الصبارة في بلادنا وكذلك قشره فانه يشبه قشر شجرة « الصبارة » الى جنب دورهم العتيقة دور حديثة من الآجر الأحمر ، بسيطة جدا ، يعيشون بالزراعة ولا يزرعون الا ما يسد حاجتهم ، وبتنازعهم مذهب الكاثوليك ومذهب البروتستان وتقع خلافات دينية بينهم ، فاذا أنشئت كنيسة للكاثوليك جاء البروتستان وهدموها ، وعلى الرغم من انتشار النصرانية فيهم ان لهم رسوما قديمة يحافظون عليها في رقصهم وعباداتهم ، ولهم ميل الى الشعر وهذه حالة الأمم الابتدائية وهم يركبون الخيل في مزارعهم ، وفلاح هذه الولايات له اعتناء بالخيول لقطع المسافات في مزارعه وله اعتناء بالسلاح للدفاع عن نفسه وملكه .

دخلت كنيسة من كنائسهم ، فيها شُرَف على الطريق وقد خطَّطها القسس والرهبان وبنائها الهنود بأيديهم ولها قب وعلى القب

صور رسوم دينية وتجند في الكنيسة تمثال أحد القديسين وهو ملقى على فراش الموت وجسمه مغطى ، ما عدا وجهه ، يأتي اليه الهنود ويضعون الى جنبه شيئا من المال آملين اذا مرضوا أن يشفيهم أو اذا غاب أهلهم أن يعودوا أو غير ذلك من الآمال .

أردت دخول دورهم ورؤية رقصهم فقبل انهم غائبون في المزارع ومع هذا دخلنا احدى الدور واذا فيها سرر والدار مفروشة ببسط من نسج الهنود وفيها مكتبة ومقاعد ومطبخ حديث ولكن صاحب هذه الدار أرقى طبقات الهنود ، درس في جامعة وهو معلم وليست الدور كلها على هذا النمط ، فاذا بعدت القرى عن المدينة اختلفت دورها اختلافا كبيرا وظهر عليها البؤس وغلبت عليها الشقاوة وسيأتي وصف بعضها في حينه .

بيوت هذه القرية التي زرتها من طين وسقوفها من خشب وقش وقد رأيت غرفة من غرفها ، فهي بالية تشبه غرف أشد القرى فقرا في بلادنا ، وأهل القرية يتبعون الفرنسيين ولهم دار خاصة من أجل اجتماعاتهم العامة ، ومدينة « تكسن » التي تقرب منها هذه القرية هي أقدم مدينة يسكنها الهنود من ثلاثة آلاف سنة وكان لها سور في الماضي وهي المدينة الثانية في الولايات المتحدة من بعد هجرة الأوروبيين .

EL PASO اليازو

١٦ تشرين الأول ١٩٥٣

جننا « اليازو » وهي على مسافة ساعة من « تكسن » بالطائرة ،
مررنا بجبال وصحراء ، ورؤية الجبال والصحراء من الطائرة أحلى منها
من القطار ، فالشيخ والقيصوم وشجر الجبال وغير ذلك يظهر كأنه
قطع الشطرنج .

تقع « اليازو » على حدود المكسيك ، فهي مثل اختها « تكسن »
غارقة في صحراء ، تحيط بها الجبال ولكنها أكثر ضجة في الليل والنهار ،
والنظافة فيها قليلة ، يشعر الانسان من حين دخوله بأنه ليس في مدينة
أميركية كمدن الشمال أو الشرق ولكنه في مدينة اسبانية ، فالمقاعد في
الحدايق العامة مملوءة بالناس وهذا لا تجده في الشمال والشرق الا
قليلا ، والسجن مختلفة ، فالناس سر ، وأما اللغة فان نصف أهل
المدينة يتكلمون بالاسبانية حتى ان الذين يتكلمون بالانكليزية يغلب
على لهجتهم أثر الاسبانية .

استقبلتني في الفندق آنستان شقيقتان : سكيئة ومريم وابوهما
السيد عابد عثمان ، أصله من الحصن القرية من تل كلخ في سورية
وأمهما من احدى قرى حمص الشرقية ولا تزال تنطق بالقف ، ولهذه
الأسرة ولدان أحدهما فؤاد وهو جندي في الجيش والآخر محمد
العابد .

الآنستان من أطف الأوانس وأجملهن ، الواحدة حنطية اللون
والثانية بيضاء رشيقة القوم ، ولهما سيارة ساقتهما مريم ، انها كاتبة في
احدى المخازن ، أما سكينه فلا تزال طالبة ، انها تتكلم بالعرية
ولكن على صورة ضعيفة ، فحديثهما بالانكليزية ، طفا بالبلد قليلا
على سيارتهما ، ثم ذهبتا بنا الى الدار ، فاستقبلتنا أمهما بلهجتها العرية
ورحبت بنا أكرم ترحيب وكانت تنادينني : يا أخي ، وفي المساء جاء
رب الأسرة السيد عابد وهو من أطيب الناس ولا يزال على فطرته
الأولى وقد كان قضى في الهجرة خمساً وثلاثين سنة ، معظمها في
المكسيك ولذلك يتكلم بالاسبانية هو وزوجته ، أما الآنستان فانهما
لا تعرفان هذه اللغة .

فرح بنا الأب فرحاً شديداً ، وهيوأ لنا في الدار عشاء شرقياً فافرا
وكانت الأم تطبخ وبنتها مريم تعاونها ، دار بيني وبين الآنستين حديث
الزواج ، فالآنسة مريم تريد زواجا يفهم ليس غير ، ولا يهمها الشكل
ولا الغنى ، انها عصبية ذات فهم ثاقب ، والآنسة سكينه تريد زواجا
متعلما ، لا جميلا مفرطاً في الجمال ولا قبيحاً مفرطاً في القبح ، واذا
كان غنياً فلا بأس بذلك .

لقد أرادتنا الآنستان وأهلها على البقاء في بلدهما ، فاعتذرنا
فقد كان عليّ أن أسافر الى مدينة ثانية لموعد بيني وبين جامعتهما ،
طلبت الى الآنستين أن تسافرا الى الشام وأن تتزوجا في وطنهما
فقلتا : هذا أمر عسير لأننا ألفنا هذا الطرز من الحياة فلا يمكننا
تغييره^(١) .

(١) الا ان الآنسة مريم قد مالت الآن الى تغيير هذا الطرز ، فقد
كتبت اليّ انها ترغب في المجيء الى دمشق لتتعلم لغتها العرية وتعلم
هي اللغة الانكليزية في الجامعة السورية ، هذا هو حلمها .

سهرت سهرة في دار السيد عابد عثمان لا أذكر أني شعرت
بالأنس شعوري به في هذه السهرة ، ولكن لا بد من المكدرات ، فقد
علم بقدومي شابان من سورية ، فقصدا الى دار السيد عابد للتكدير
والتنغيص في الباطن ، وللسلام عليّ في الظاهر ، ولهما معرفة بي
وأحدهما لم يخرج من دمشق الا قبل ستة أشهر ، جاء هذان الشابان
ليطعنا على القرآن في دار رجل مسلم : ما هذه الشريعة ! السن
بالسن والعين بالعين ... جاء هذان الشابان ليطعنا على اللغة العربية
أمام رجل يعبد هذه اللغة عبادة : ما هذه اللغة ! ان أكثرها آرامي
الأصل ! جاء هذان الشابان ليحملا على أميركة اذا أرادت أن تساعد
العرب : هل يستحق العرب شيئا من المساعدة ! هذا حديثهما وهذه
عاطفتهما وهذا أدبهما ، عنصران من عناصر التهديم ، ولا أريد أن
أذكر اسم الحزب الذي ينتسبان اليه ، لقد دافعت كثيرا وناقشت
كثيرا حتى ثارت أعصابي واربده وجهي وجحظت عيني وكدت أخرج
من نفسي ، قضيت ساعتين في تفنيد أباطيلهما وكان يجب عليّ أن
ألجأ الى السخرية ولكني لم أفطن الى ذلك الا في خاتمة الأمر ، فقد
ظننت في البدء أنهما صاحبان نية حسنة ، وأن مجادلتهم يلزم أن تكون
بالتي هي أحسن ولما انكشف لي خبث النية في كلامهما ندمت كل
الندم على هذا الطرز من المجادلة ، والخلاصة انهما كدرا علينا رونق
السهرة ونعّصا علينا صفاء الليلة وذهبا بعد أن قام كل واحد منهما
بالواجب في التكدير والتنغيص ، حتى اضطر السيد عابد صاحب
الدار بعد انصرفهما الى الاعتذار والى المبالغة في هذا الاعتذار لأن
الأمر جرى في داره ولم يستطع وفقا للتقاليد التي ألفها في وطنه أن
ينهرهما في داره .

ولم يخفف من سورة الغضب الا نزهة بعد السهرة في صحراء
« اليازو » والتنفس في هذا الطريق واسمه : طريق العشاق .

١٨ تشرين الأول ١٩٥٣

سهول وصحارى وجبال ومراع وبعض دور في الأرياف ، هذا ما تقع عليه العين من « الپازو » الى « الباكركي » نحن لا نزال في ولاية « نيومكسيكو » والذي رأيته أن النزعة الدينية غالبية على الصحارى التي مررنا بها بسبب أهل المكسيك الذين كانوا فيها من قبل ، فالصليب على قمة جبل عال والكنيسة في قلب الصحراء .

أما « الباكركي » فخصائصها مثل خصائص المدينتين الغارقتين في الصحراء : « تكسن » و « الپازو » تحيط بها جبال اسمها جبال البطيخ وذلك لأن الشمس اذا غابت عنها كان لون الجبال أصفر ومن وراء الجبال غابات تعكس عليها ألوانها الخضر ولهذا سميت جبال البطيخ بالاسبانية ، ولكن في « الباكركي » شيئاً أكثر من جارتها ، ان فيها نهرا عجيبا ، ماؤه الجاري على وجه الأرض قليل ، فماء هذا النهر يجري تحت الأرض على عمق ميل ، حول هذا النهر شجر وبساتين وهذا لم أره في مدينتي الصحراء ، وفي الشتاء يفيض النهر فيغمر الماء الشجر كله ، وقد جعلوا من ماء النهر بحيرة صغيرة للبط الى جنب حديقة عامة ، وهذا لم أره أيضا في مدينتي الصحراء .

محاسن « الباكركي » كمحاسن مدينتنا دمشق ، فان الانسان يأتي من الصحراء فتأخذ عينه دفعة واحدة غوطة فيها الحداثق

والبساتين وكذلك دمشق يأتيها الانسان من الصحراء فيرى الجنة فيها .

في المدينة حديقة صغيرة للحيوانات ، فيها دبة تختلف ألوانها عن الدبة التي في بلادنا بسبب الاقليم ، لونها أسود على الأغلب ، وفيها أسود من غابات الاقليم وفيها نسور وكل هذه الحيوانات من جبال البلاد نفسها وغاباتها ، وقد رأيت طائفة من الغزلان الكبيرة تأكل قشر الشجر ، فقد يجوز أن شجر الغابات انقرض معظمه بسبب أكل قشره لأن الشجرة تضعف فتسوت ، وتضاف الى ذلك أسباب ثانية مثل الحريق ومثل قطع الشجر للدفع .

المدينة في الليل هادئة هدوء « تكسن » فليس فيها زحمة « الپازو » وضجتها .

في طرف من أطراف المدينة مطار ، اذا أحصيت الطائرات التي تهبط اليه في الأربع والعشرين ساعة كان معدلها على ما قيل لنا طائرة في كل دقيقتين ، وفي « الباكركي » مركز لدراسة القنبلة الذرية وكهوف في الجبال لاتقاء خطر العدو .

شاهدت في أحد من الآحاد مساءً سيارات كثيرة في المطار فيها أمهات ومعهن أبناءهن الصغار وقد جئن بهم ليروا الطائرة وهي تهبط الى الأرض ، وكذلك في حديقة الحيوانات فقد رأيت مثل هذا المرأى ، معنى ذلك أن الطفل الأميركي يشب على الدراسة العملية قبل الدراسة النظرية ، فهو يرى بعينه قبل أن يرى بعقله ولا ريب في أن الدراسة على هذا الشكل أقوى وأرسخ .

الدور في « الباكركي » من أنماط مختلفة ، من نمط مكسيكي وهو بسيط جداً مربع أو مستطيل وعلى أطرافه الشباييك ، الى نمط أسباني ، الى نمط أميركي ولكن أكثر المباني على طرز هندي ، لقرب

المدينة من قرى الهنود ، فالدار مربعة وهي ذات طابق واحد وبدلا من أن تكون على شكل هرم إنها مسطحة ولها سطح واحد ، وأمام الدار حديقة على الشارع من ستة أمتار الى عشرة أمتار وفيها شجر الحور والسرو ، ولم تقع عيني في المدينة على النخيل وانما رأيت فيها الصنوبر .

أما الجامعة في « الباكركي » واسمها : جامعة « نيومكسيكو » فانها متصلة بالمدينة ، بنيت على طرز هندي إسباني ، جدرانها مائلة وهي مكلسة بكلس من تحته آجر وأكثر سقوفها بارزة ، تمتد أعمدتها الى خارج الغرف ، وللغرف كوى ولها شرف من خشب ، فالطرز هندي محض ، وهو الغالب على الدور والفنادق : خشب وشرف من خشب ودرازين ، ليس في هذه الجامعة عظمة جامعة الشرق والشمال ، في حدائقها حور وسرو وصنوبر ومروج خضر وليس فيها نخيل ، وللأساتذة دور في أرض الجامعة ، والسيارات حولها ، أما دار الرئيس فمظهره حقير جدا بالنسبة الى قصر رئيس جامعة « برنستن » .

من دخول الجامعة يشعر الانسان بطرزها الهندي ، على الجدران صور هندية وصور تمثل تقارب الحضارتين المكسيكية والهندية ومن الصور المعلقة صورة تمثل أميركيا يقف بين رجل هندي وبين رجل مكسيكي ، قابضا بيده اليمنى على واحد ، ويده اليسرى على آخر ، فكأنه يقول لهما : اذهبا ، فالبلاد أصبحت بلادنا ولكن الصداقة باقية .

كتب على جدران الصفوف في هذه الجامعة : لا تدخوا ، وهذا لم أره في جامعة ثانية ، فالبنيات اللواتي يدخن في الجامعات يكاد عددهن يزيد على عدد الشباب المدخنين .

في الجامعة أربعة آلاف تلميذ وبعض أساتذتها نساء ، منها أساتذة

تدرس الاسبانية وشعار جامعة « نيومكسيكو » : حيوان يشبه الذئب •

والخلاصة مهما تكن هذه الجامعة بسيطة في مظهرها فان لها سرًا
بنعش القلب : حدائق وشجر ، فالطالب في نزهة في كل حين •

الهنود .

من خصائص مدينة « الباكركي » وجود الهنود في أطرافها ، زرت
قرية من قراهم ، بيوتها من حيث الحقارة تشبه بعض البيوت الحقيبة
في قرانا : التراب متراكم على الطرق ، وعلى كل باب تنور للخبز ،
طُفنا بهذه القرية ودلينا قنديل الكنيسة وكان معنا شيخ جته سوداء
فكان هذا القنديل يظنه قسيسا فيناديه : أبانا ! أبانا ! بالانكليزية •

بعض البيوت لا بأس به ، البهو فيه بساط ودواوين ومدفأة
وتخت ومنضدة ومرآة وراديو ، والمطبخ من المطابخ الحديثة ، ولكن
الدار التي أصفها انما هي دار حاكم القرية ، وفي بعض قرى الهنود
مدرسة ابتدائية •

٢٠ تشرين الأول ١٩٥٣

إذا غادرت ثلاث مدن غارقات في صحراء تشبه الصحراء الممتدة بين دمشق وبغداد ، إذا غادرت هذه المدن بعد أن أقست بها أسبوعا أو أقل فأول شيء تشتهيهِ انما هو الانتقال الى أفق أخضر تستأنس بخضرته ، انك لا تكاد تخرج من « الباكركي » حتى تستقبلك بعد قليل تلال وجبال منبسطة ، غرس عليها الشجر فكاد يعطيها ، وانك لتمر على هذه الغابات المفرقة على يمينك وعلى شمالك فتصل الى مدينة وقد تلبد وجه السماء واستفاضت الغيوم في أعنانها وأخذ المطر ينزل قليلا قليلا ، فتدخل هذه المدينة الصغيرة « سانتافي » في ولاية « نيومكسيكو » مدينة يسكنها ثلاثون ألفا ، فتأخذك الدهشة من طرقها التي لا تشبه طرق المدن الكبيرة ، فتظن أنك تارة في بعض شوارع بحمدون وتارة في بعض شوارع زحلة في لبنان ولا بد لرجل عاش في الشام ولبنان من أن يستأنس بهذه المدينة لأنها تذكره وطنه ، يقيم « سانتافي » اسبانيون وهم مهاجرون قادمون من المكسيك ويقيم بها أميركان ولهم على تلالها دور يصيفون فيها ولكن طرز العمران في « سانتافي » غالب عليه الشكل الاسباني والشكل الهندي لأنها قريبة من قرى الهنود ، الدور معظمها قد لوّث باللون الأبيض الذي يشبه الكلس ، فهي لا تشبه في شيء دور الأميركيين في الشمال

والشرق ، وبعضها طلي بالسمنت على شكل الطين في بلادنا ، وقد دخلت دار الحكومة وهي نظيفة جدا تكاد تكون غاية في النظافة ، فيها ساحة مكشوفة مثل دورنا القديمة في دمشق ، وفي الساحة بركة ماء وفي مدخل دار الحكومة من الوسط برج عال يظنه الانسان مئذنة ودخلت فندقا عظيما فيه ساحة مكشوفة أيضا وفي وسطها بركة ماء مما يدل على أن الطرز اسباني قديم وقد أنست كثيرا بهذه الساحة وجلست على مقربة من البركة أتذكر دمشق ودورها القديمة ، والعرمان أغلبه من خشب ، فترى باب الفندق من خشب والدرازين من خشب والشبايك تحجزها قضبان من خشب ، وفي ساحة هذا الفندق جسور خشب بارزة من الحيطان وفي الزوايا كلها جسور خشب بارزة ، وأعجب شيء في هذه المشاهد كلها الفليفة الحمراء المعلقة على الجدران ، إن فندقا أنيقا مثل هذا الفندق لا تخلو جدرانها من الفليفة .

استرحت قليلا في الفندق الذي نزلت به واسمه : El-Fadel سمّاه صاحبه باسمه وهو رجل من لبنان اسمه الفاضل ، فجاءني موظف من موظفي الغابات بسيارة من سيارات الحكومة ، فركبنا وطلقنا على الجبال والتلال ، اني في بيئة اسبانية من حيث السحن والدور ولكني اذا طفت على الجبال شهدت نفسي في سورية في جبال العلويين الخضر وتلالهم ، فالجو جو خريف والغيمة في السماء والثلج على الجبال ، فأين هذه المشاهد من مشاهد الصحراء .

خصائص أميركة أنها متنوعة الطبيعة لا يكاد الانسان يمل منها ، تقلبت في الجبال والتلال ثلاث ساعات بين خريف أصفر يتناثر فيه النورق على الأرض بعد أن فارق الحياة وربيع أخضر يتعصّى على الموت فلا يريد أن يموت ، تقلبت في هذه الجبال في طرق تنخفض مرة وترتفع مرة ، طرق ضيقة لولا أن بللها المطر لثار ترابها في الفضاء ،

حتى بلغت قرية ، فظننت نفسي في بعض قرانا ، البيوت على الطريق قد غطيت بهذه الفليفة الحمراء التي يشمسونها ليأكلوها كما نشمس في قرانا قبر الدين ، والساقية الصغيرة تمر على جانب الطريق والدجاج يبحث عن أكله في الأرض والحطب قد صف على أبواب البيوت ليستدفيء به الفلاحون في الشتاء والحمار يفر من مرج الى مرج ، هذا أطرف شيء رأيته في هذا اليوم ، وما زلت أتقل من مشهد الى مشهد حتى وصلت الى قرية هندية ، ودور الهندود في قراهم تكاد تكون متشابهة : ساحة في وسط القرية وقد صفت عليها البيوت بطينها وخشبها وشبابيكها الضيقة وأبوابها الصغيرة وتناير خبزها وزرائبها وحظائرها ، فلا طرق مزقة ولا أثر من آثار الحضارة ، هكذا يريد الهندود أن يعيشوا ، فقد اكتفوا بهذه المزارع البسيطة وبحياكة البسط وصياغة الخواتم والأساور والحلق ، وصناعة الفخار الملون بأطرف الألوان وأزهاها ، وبالرقص في نيويورك أو غيرها ، بعضهم تحوّل الى النصرانية وبعضهم حافظ على دين آباءه وأجداده ونزل تحت الأرض يمارس هذا الدين حتى لا يراه أحد .

خرجت من هذه القرى الهندية الشامية ، فوقفت على تل مرتفع أصغي الى موسيقى الطبيعة الهادئة وهي موسيقى حفيف الشجر وخريف الماء ، وما زلت ألهي أذني بنغماتها الواحدة التي لا تتغير وألهي عيني بخضرة الربيع وصفرة الخريف حتى انحدرت الى « ساتافي » الى هذه المدينة الساكنة ، الى هذا الفندق البسيط ، اني أدوّن هذه الخواطر واذني تسمع أغاني الأميركان على الراديو ، أغاني أميركان الجنوب ، أغاني الاسبان وأهل المكسيك ، هؤلاء الأميركان الذين حافظوا على لغتهم وموسيقاهم ، فالناس في ولاية « نيومكسيكو » أكثرهم يتكلمون بالاسبانية وموسيقاهم على

الراديو لا تزال نعماتها اسبانية ، فالتنازع مشتد بين اللغتين : بين الانكليزية والاسبانية ، ولكن عاقبة الاسبانية كعواقب اللغات التي جاءت الى أميركة ثم خفيت آثارها .

٢١ تشرين الأول ١٩٥٣

الهنود .

خرجت من الفندق في الصباح فشعرت ببرد ققلت لرفيقي : هذه القرسة قرسة ثلج وما كدت أفرغ من هذا الكلام حتى ظهر لي الثلج على الجبال الشاهقة .

جعلنا هذا النهار لزيارة قرية اسمها : Taos Pueblo قيل لنا انها مشهورة بالفن ، فن قصورها القديمة في الضواحي ، وان فيها رجال فن ، بيننا وبين القرية ساعتان بالسيارة ، فركبنا السيارة العامة ، وما زلنا نقطع في الطريق كثباناً من شجر لا من رمال ، انها كثبان مبعثرة في الصحراء على مدى بعيد ، يعلوها الشجر حتى وصلنا الى « تاوس » وهي قرية سكانها وسكان ضواحيها خمسة آلاف ، لكنها قرية غريبة الشكل ، الحفر في بعض طرقها وقد اجتمع الطين والماء فيها ، دورها على نماذج غريبة ، تجد على سطوح بعض الدور أبراجاً على أبراج ، أما مقدمة الدار من عند السطح فانها قد قطعت تقطيعاً بدلاً من أن تكون على خط مستقيم ، وبين كل قطعة وقطعة فراغ ، ثم تجد في وسط المقدمة خطاً منحياً والدور في داخلها سقوف من خشب تسندها جسور ضخمة من الخشب والسمنت فوقه ، وأكثر هذه الدور بني على طرزين متمازجين : الطرز المكسيكي والطرز الهندي ، أمّا المخازن في الأسواق فانها واقعة على جملة أروقة من خشب لا من حجر ، والسبب في شيوع الخشب في هذه الولاية كثرة الغابات . دخلنا مكتب الغابات للاتصال بمديره حتى نطوف بسيارته على

أطراف القرية فوجدنا أمام كل موظف مخططا من جص أخضر يمثل
الدائرة التي عهد إليه الاعتناء بها ، ووقعت عيني على مجلة اسمها :
مجلة الغابات Journal of Forestry يكتب فيها أساتذة اختصوا
بأمور الغابات ، كلهم من جامعات أميركة ، والولاية فيها خمسة
مكاتب للغابات •

ولكنني لم أذهب الى « تاوس » لاحصاء الغابات ومكاتبها ، فأنا
بعيد عن تدوين مثل هذه الأمور في الرحلة ، ذهبت الى « تاوس »
للفرجة ، ذهبت لأزور قرية هندية تشتمل على فن القصور ، ركبنا
سيارة مدير مكتب الغابات وانطلق بنا نحو قرية قيل انها أكبر القرى
الهندية ، مشهورة بحسن الرقص ، فيها متافح ومزارع ذرة ، وهي
تقع على سفح سلسلة من الجبال الشاهقة التي يغطيها الثلج وأماها
سهل منبسط ، أما الطرق في القرية فانها مثل طرق قرانا في الشتاء ،
فيها الحفر والطين ، وأما الدور فلم نشهد مثلها في القرية الهندية التي
زرناها من قبل ، فهي على كل حال من طين وخشب ولكن شكلها من
أغرب الأشكال ، فالدار قد تكون عدة طاقات ، الا أن هذه الطيقان
لا يركب بعضها بعضا ، فترى طاقا على الأرض يعلو بعضه ، من جانب
طاق آخر ومن جانب فضاء ، ثم من وراء هذا الفضاء طاق آخر الى
جنبه فضاء ، ثم من وراء هذا الفضاء طاق ، هذا هو الفن الهندي
القديم : طيقان من طين وخشب ، منفصل بعضها عن بعض ، هذا هو
الفن العجيب الذي ركبنا السيارة ساعتين من أجله ، أمام كل دار
تنور خبز على شكل قبة ، فهو لا يشبه تنانير بلادنا ، وليس في القرية
كهرباء ، وانما يستصبح أهلها بزيت الكاز ويشربون من ماء النهر على
علاته وبعضهم لهم آبار على أبواب دورهم ، يسحبون الماء منها
بالجبل والسطل •

زرت المقبرة وهي في وسط القرية ، فوجدت على الصليبان أسماء مكتوبة ، كلها أسماء مكسيكية أي أسبانية ، معنى هذا أن هؤلاء الهنود أخذوا عن المكسيك أسماءهم .

قال لنا أحد الهنود : هذه القرية عمرها ألف وسبعمائة سنة والله أعلم ، يأتي إليها الأميركان رجالهم ونساؤهم للفرجة ، فالهنود أصبحوا آثاراً قديمة كالآثار المكдوسة في المتاحف .

بعض الرجال يصفرون شعرهم ويلفّون غدائرهم بنوع من القماش ، وهم مرد لا شعر في وجوههم ، وإذا نبت الشعر تنفوه ، وأكثرهم سمان ووجوههم مخيفة ولا جمال في رجالهم ونسائهم ، وأهل هذه القرية يبلغ عددهم تسعمائة نفس .

تكاد تكون الفليفة الحمراء مقدسة في نظرهم ، فهم يعلقونها على جدران البيوت من الخارج حتى تجف كما يعلقون عماشيش الذرة على أشكالها المختلفة : البيضاء والصفراء والسوداء والحمراء وعمشوش الذرة كبير .

ينتخب أهل القرية حاكماً لهم ونائب حاكم لسته أشهر وإذا اضطروا الى اجتماع عام طلع أحدهم سطح دار من الدور وصاح بأعلى صوته ايذاً بالاجتماع .

من أسباب معاش الهنود المزارع والمراعي والغابات في الجبال ، فهم يرعون البقر ويركبون الخيل ويعيشون من أموال المتفرجين وتستخدم الولاية شبابهم في إطفاء النار في الغابات ، وهم ماهرون في ذلك ، ويذهبون من حين الى آخر الى « نيويورك » للرقص ، وهم فقراء في ظواهرهم ، وقد شهدت شيخاً منهم يجرّ جسده جرّاً من البرد وقد لفّ بدنه بمبطنة .

لا يتزوجون الا امرأة واحدة .

مررت على بعض مزارعهم فوجدت انهم يستخدمون في الزراعة عجلة من خشب مستطيل يجرها رأسان من الخيل .
على باب هذه القرية شاب من الهنود مشهور بفن التصوير ، تصوير اليد ، وصوره صور رجال الهنود ونسائهم وثيابهم وأدوات رقصهم ، وصور بعض الحيوان ولا سيما الطير ، وفي الدكان كثير من مصنوعات الهنود وأعجبها الفخار لجميع الألوان ، والخواتم والأساور والحلق من الفضة والزمرد .

أوقد صاحب الدكان النار في الكانون من شدة البرد ، فملأت رائحة العود الطيبة جوانب الدكان كلها .

هذا أعظم ما قيّد نظري في هذه القرية على وجه عام .

ما كدنا نخرج من الدكان والقرية حتى دخل بنا صاحب السيارة داراً بناها أحد السكان ، فاشتريتها الحكومة ووهبتها لرجال الفن في « تاوس » وعددهم سبعون ، دخلنا هذه الدار وشهدنا آثار الهنود والمكسيكيين ، وأكثر هذه الآثار عبارة عن سلحفاة في الأرض يبصق فيها المجتسعون في سهرة أو سمر ، وأدوات السلاح في القديم ، وهي القوس والنشاب ، وثياب النساء ومهود الأطفال وأحذية رجال غريبة لا يمكن أن تنطبع آثارها على التراب والفخار وما شابه ذلك .

والصورة التي استوقفتني انما هي صورة عجلة تجرها الخيل ، وقد ركبها الأميركان وحملوا بنادقهم وسدودها الى الهنود الذين كانوا يلحقون العجلة على خيلهم لقتل أصحابها أو سلبهم ، وسلاح الهنود القوس والنشاب ، هكذا كانت الحال بين الأميركان والهنود في بدء الأمر حتى قضى الأميركان عليهم .

تدل الدار التي جمعت كل هذه التحف على أن فن الاسلام قد أثر في القديم في فن الاسبان ، ان للدار جداراً على الطريق عالياً

ومن وراء الجدار ساحة مكشوفة وفيها بئر وقد رفع الجدار حتى
لا يرى المارون النساء في هذه الساحة •

أما حضارة المكسيك فلم أر إلاّ عشاميش الذرة المعلقة على
الجدران بألوانها المختلفة ، والفليفة الحمراء والققف والسلال
والعجال الزراعية التي تجرها الحمير ، وبين هذا كله رجال موسيقى
علقت صورهم على الجدران •

أرض السحر

تعبنا من هذا المطاف ومن هذه الدور والصور والآثار ، فقلنا
لصاحب السيارة : اذهب بنا الى الطبيعة •

صعدنا على جبال عالية غطّاها ألأرز الأخضر، ثم انحدروا الى أودية
قد غمر الثلج أكثرها ، فكنا نسير على الطريق والثلج على جوانبنا
ونحن في تشرين الأول ، جبال وأودية خضر يأتي اليها الأميركان في
الضيف ، فيستأجرون في بطون الأودية بيوتا من خشب ، ويطبخون بين
الشجر على كوانين من حجر ، ويقعدون على مساطب من خشب في واد
يقيمهم لفحة الرمضاء ، يقضون فيه أسبوعا أو أسبوعين ، وقد تفرت
عنهم أسود الجبال ودبيها لأنها تبعد عن الانسان ، إلا اذا ضايقها ،
هكذا قال لنا صاحب السيارة وهو صياد •

لقد شرع أهل هذه البيوت يوقدون النار في بيوتهم ، فيصعد
الدخان من المداخل ونحن في تشرين الأول •

اذا فتشت عن وصف لهذه الجنة التي طفت بها أكثر النهار فلا
أجد أبلغ من هذا الوصف وقد قرأته على مؤخرة السيارة التي ركبناها
ومعناه : أرض السحر ! ولذلك سميت هذه الرحلة : أرض السحر •
ان هذه الولاية كلها ، « نيومكسيكو » أرض السحر وهذا
أصدق وصف لها •

أمّا خاتمة المطاف فقد كانت عشاءنا في مطعم فرنسي في قرية

« تاوس » صاحبه من « الألزاس لورين » جاء القرية من سبع سنين وزوجته المانية من « مونيخ » واذا جمع الذوق في محل فقد جمع في هذا المطعم الصغير ، سقفه منخفض يكاد الانسان يمس برأسه ، وهو من خشب وقد سنده جسور من خشب ، وعلى الجدران عشاميش الذرة والمقالي والبسط الهندية وقطع من خشب الغابات ومصابيح ضئيلة الأنوار تزيد في رونق هذا المطعم ، وكراسي غريبة الشكل ومناضد أكل أغرب .

المطعم كله ذوق وفن ، انه ملائم لهذه الطبيعة الساحرة التي نعمنا بسحرها كل النهار .

٢٣ تشرين الأول ١٩٥٣

حرية التصويت .

تركت « ساتافي » في الظهر ، البرد شديد والغيوم في أطراف السماء وعلى رؤوس الجبال ، وصلت الى محطة اسمها : Lamy وانتظرنا القطار وقد ركبت معنا معلمة من « ساتا في » ومعها مقدار ثلاثين طالبا صغيرا يتراوح عمر كل واحد منهم بين خمس وست سنين ، جاءت بهم الى مدينة ثانية في الولاية ، الى مدينة الصحراء « الباكري » ليتعرفوا الى أجزاء وطنهم .

جمعت هذه المعلمة طلابها في غرفة الانتظار في المحطة ثم سألتهم :

من أراد أن يخرج من الغرفة الى العراء فليرفع يده .

من أراد أن يبقى في الغرفة فليرفع يده .

وقد كان هذا السؤال ضروريا لأن البرد في العراء شديد ، على هذا الشكل يتعلم الطفل حرية التصويت والانتخاب من بدء حياته ، فالحرية في أميركة منسجمة ، يبدأ بها في الدار ، ثم تنمو في المدرسة ، ثم تتكامل في الجامعة ، حتى اذا اندفع الأميركي في الحياة العامة كان ملآن منها .

ولما طلع الطلاب القطار طافوا به من أوله الى آخره والمعلمة معهم حتى يروا فيه كل شيء ، حتى يروا مراقده ومغاسله ومشاربه ومأكله ، فيتدربوا على متاعب السفر ، تتعلم العين في أميركة قبل العقل •

سألت هذه المعلمة : هل طلابك مطيعون ، قالت : أرجو ذلك •

Grand Canyon ٢٤ تشرين الأول ١٩٥٣

بعد الادلاج في صحراء طويلة وصلت الى هذا الموقف المشهور :

Grand Canyon

نزلت من القطار واذا البرد قارس لأنني على جبال تعلو عن الأرض أنفي متر ، لست في قرية ولا في مدينة ولكنني في محل فيه فندقان أو ثلاثة فنادق ، وفيه بعض البيوت ، يبلغ سكانها ألف نسمة ، رزقهم على السياح ، والفندق الذي نزلته واقع وراء المحطة على بعد دقيقة أو دقيقتين • ما كدت أتوجه نحوه حتى رأيت الغزلان سارحة بين الشجر على الطريق العام ولكنها غزلان لا تشبه غزلان الصحراء ، انها غزلان الغابات والحراج ، فقلت في نفسي : هذا صباح الخير •

وصلت الى باب الفندق فوجدت بناء من خشب ، جسور وأعمدة مصقولة ، اني في بيئة كلها غابات ، والعمران فيها تقليد لعمران الهنود القدماء ، أرض الفندق من خشب وحيطانه من خشب ، وسقوفه من خشب ، الا أنه خشب حسن الشكل ، وهكذا نجدهم يحافظون على ما يسمونه : صباغ المكان • استرحت بضع دقائق فرأيت السياح ينطلقون نحو جهة على بضعة أمتار من الفندق ، فانطلقت بانطلاقهم واذا مشهد لم أر مثله في كل البلاد التي ضربت فيها •

رأيت هوة كبرى ، ولكن أين أولها وأين آخرها ، وما هي المسافة بين طرفيها ، وما قصتها ، هذا شيء لم يتصل بي علمه بعد ، رأيت هوة

اسمها بالانكليزية : Grand Canyon ومعناها الهوة الكبرى ، وهذه قصتها على وجه الاختصار :

بعد وصولنا بساعة أو ساعتين ركبنا سيارة كبيرة فيها خمسون سائحا وأخذت هذه السيارة تسير بنا في جبال شجيرة مقدار خمس ساعات ، قبل الظهر وبعده ، على طريق مزفت تؤنسنا فيه الغزلان من حين الى آخر ، لأنها أمنت شر الانسان ، فقد علمت أن صيدها محرم ، فكانت تسير مرة على الطريق العام ومرة على جوانبه ، أي في الغابات . كانت السيارة تقف بنا من حين الى آخر على مشهد من مشاهد الهوة وفي كل مشهد نرى أشكالا لم نر مثلها من قبل .

قصة هذه الهوة على ما حاضرننا به أحد الأميركيين في قاعة مطلّة عليها أنها في الأصل كانت صحراء ، وأظن انها كانت صحراء شجيرة تتاخها جبال وهي جبال « كاليفورنية » فحسفت الأرض بهذه الجبال ، فوقع ضغط على جدارها اتصل بهذه الصحراء ، فارتفع بسبب هذا الضغط عن الأرض نهر اسمه « الكولورادو » فزادت سرعته كثيرا حتى شق الصحراء ، وبانشقاق الصحراء ارتفعت الأرض المقابلة لها فجرى النهر فحدثت الهوة الكبرى ، وبين طرفي الهوة المتقابلين مسيرة عشرة أميال ، وإذا نظرت اليهما حسبت أنك تستطيع أن تقطع الهوة في مدة قصيرة ، وفي كل طرف من هذين الطرفين تعيش حيوانات تختلف عن الطرف الآخر ، وليس في العالم مكان تشبه حيواناته حيوانات هذه الهوة ، وقيل ان طرفيهما يشتملان على طبقات الأرض بأجمعها ، الطبقة السفلى التي لم تظهر الحياة فيها ، ثم فوقها الطبقات التي تمثل الأدوار الجيولوجية كلها .

ظهر في هذه الهوة جبلا نار لا يزال أثرهما قائما ، وظهرت رسوم قرية هندية اندثرت باندثار أهلها وبقيت آثارهم وآثار أوانيهم من الفخار ، وفي الجبال على جانبي الهوة حديد ، فاذا نزل الثلج في الشتاء وارتفع

مقدار ستة أمتار عن الأرض ثم ذاب حدثت منه شلالات لونها لون
الحديد ، أي أحمر .

أما النهر الذي يجري في بطن الوادي وهو « الكولورادو »
فيقولون ان عمقه أربعون مترا ويرتفع موجه في بعض الأماكن ١٢ قدما
ولا يكاد الانسان يسمع هديره لترامي المسافة بين الواقف على رأس
الوادي وبين بطنه ، وهو سريع جدا في جريانه ، وقيل انه قطعه في
سنة ١٨٦٩ رجل أميركي على زورق ، ثم عجز عنه في محل سماه :
الشیطان القذر ! فنصب لهذا الرجل تمثال في بطن الوادي ، وفي كل
أربع وعشرين ساعة يمر بهذا النهر مليون طن من الطين ، ولونه لا يكاد
يميز من رأس الوادي لشدة تعكيره .

إذا مشى الانسان من أول دائرة الهوة الى آخرها قطع مسافة
طولها ثلاثة آلاف ميل ، وقد سقط في الوادي ثلاثة طيارين ، فحطمت
طائراتهم ، فظلت الحكومة ترسل اليهم الطائرات العمودية خلال عشرة
أيام حتى استطاعت أن تنقذهم ، وقديما سكن الهنود الحمر هذا
الوادي وبقيت آثار طرقهم فيه تسير عليها بغال المتفرجين في هذا اليوم ،
ويسكن الآن في أعلى الوادي وفي بعض بطونه هنود لا بيوت لهم
ولا خيم ، وأكثرهم يموتون من البرد .

هذا ما يتعلّق بالوادي والنهر ، أمّا مقاطع الجبال التي تحيط
بهذه الهوة فهي من أغرب المقاطع ، بعضها منحدر الى بطن الوادي
على خط مستقيم ، وبعضها على خطوط منحنية ، حتى يكاد الانسان
يظن نفسه في مدرج ، وعلى المقاطع كلها شجر من الأرز عظيم ، الا أنه
لبعد المسافة بين رأس الوادي وبين بطنه يحسب الانسان هذا الشجر
عشبا صغيرا . بعض المقاطع لا تجد عليها خطوطا ، لا مستقيمة ولا
منحنية ، ولكنك تجد عليها تلالا قد لزم بعضها الى بعض حتى تكاد

تؤلف جبالا وأودية يتصل بعضها ببعض ، والطرق التي تسير فيها البغال واقعة على هذه المقاطع ، ولا تزداد سيرا على أطراف الوادي من فوق الا ازدادت رؤية لمشاهد يختلف بعضها عن بعض ، تجد فيها أشكال الهندسة بأجمعها ، كما تجد فيها ألوان التراب بأجمعها ، وكما تمثلت الأشكال والألوان في هذه المشاهد فقد تمثلت فيها عظمة الطبيعة حتى حارت العقول فيها . وفي هذه المقاطع صخرة سوداء قيل انها أقدم صخرة في العالم وعمرها على ما قدره علماء الجيولوجية في جامعة Yale ألف مليون سنة وليس فيها أحافير حيوان ولا نبات .

ليست الهوة الكبرى واحدة وانما تجد جملة هوى متصلة على طول الوادي كله ، وطوله مائتا ميل وسبعة عشر ميلا ، والجبال تقوم في وسط الوادي من أوله الى آخره ، ومنها جبل اسمه المدرعة ، لأنه على شكل المدرعة ، ولم يدرس خصائصه أحد من العلماء حتى هذا اليوم ، ورؤوس جوانب هذا الوادي مرة تكون مستقيمة ومرة تكون كالأسنان .

هذه على وجه الاجمال صورة الهوة الكبرى ، واذا عظمت الطبيعة في موضع من مواضع أميركة فان عظمتها تظهر في شلالات « نياكرا » وفي الهوة الكبرى ، في الشلالات عظمة الماء وفي الهوة عظمة الجبال والأودية ، هناك رهبة الماء وهنا وحشة الصخر .

وقد انتهى بنا المطاف الى مقصف على طريق الغابات يستريح فيه السيّاح ، فيشربون القهوة أو الشاي ، وهو مقصف مطل على الوادي المخيف ، لكنه مقصف غريب الصورة ، يكاد يكون مغارة في جبل ، سقفه وجدراناه وكانونه من صخور مصفوف بعضها الى بعض ، أما الكانونة التي تبلغ النار فلا يكاد الانسان يتصور كبرها ، فالنزهة شعرية من أولها الى آخرها ، وقد نسي سائح يهودي دراهمه عند صاحب المقصف فصاح به وأعطاه إياها ، وهذه على ما أظن أول مرة ينسى فيها يهودي دراهمه !

عدنا الى الفندق على السيارة ، فشهدت على هذه السيارة شيئا من طبيعة المرأة الأميركية ، انها تحب الضحك والتكيت ، تصغي الى أحاديث السائق وتصفق اذا أعجبها شيء من هذه الأحاديث ، وأنا الآن أدوّن هذه الخواطر على القطار في أول الليل ولا أزال أسمع قهقهة المرأة الأميركية الى جنبي ، فالأميركان يحبون التكيت ، رجالهم ونسأؤهم ، وأذكر أن الرجل الذي حاضرنّا بتاريخ الهوة الكبرى كان يرمي بالنكتة من وقت الى آخر ، فيمزج جد العلم بهزل الحياة ، فكان الحضور يصغون اليه نساء ورجالا وينبسطون الى نكتته ولا بأس ببعض هذه النكت ، فقد قال :

« اذا صبرنا على هذه الهوة الكبرى ملايين من السنين أفلا نستطيع أن نصبر على حكم « ترومان » أربع سنين ! » •

رقص الهنود .

أحبوا قبل أن تغادر الهوة الكبرى الى القطار في المساء أن يعرضوا علينا رقص الهنود في ساحة كبيرة أمام الفندق ، فاجتمع ثلاثة شبان وولد صغير وفتاة وامرأة ، رقصت الفتاة وحدها ، ورقص الولد وحده ، ورقص شبان وامرأة • أصوات الرقص تطيل وخشخشة ، اني غير مختص بفن الرقص ولكن حركات الراقصين كانت تدل على مهارة أقدامهم ، وحلاوة هذه الحفلة كانت في ثياب الراقصين ، وكلها من أنواع الريش الملوّن على الرأس والصدر والأفخاذ •

وهكذا أصبح الهنود الحمر رقّاصين بعد أن كانوا أصحاب أعظم قارة ، يرقصون طمعا في دولار أو نصف دولار يرمي به السائح اليهم •

سان فرانسيسكو SAN FRANCISCO

٢٨ تشرين الأول ١٩٥٢

دعيت الى « سان فرانسيسكو » فدخلتها مرة ثانية ، ان فيها جماعة يهتمون بالزوار الأجانب ، فكلما جاءت فئة منهم دعوهم الى دار خاصة للتعارف ، ذهبت الى هذه الدار ، فكان فيها طائفة من السيدات يستقبلن الزوار ، وقد وجدت أن اسمي مقيم في سجل الزيارة من بدء رحلتي ، وعند هذه الجماعة خلاصة ترجمتي . استقبلتني سيدة أميركية تعرف بعض الفرنسية ، فأنستني ، ثم استأذنتني في استقبال أساتذة جاؤا بعدي ولكنها لم تفارقني الا بعد أن هيات لي سيدة غيرها تتكلم بالفرنسية ، ولم يبق في ذهني ما قلت لها قبل أن تفارقني ، وأظن أنني استعملت في مخاطبتها لغة شعرية ، فقالت لي : قيل لنا قبل زيارتك انك شاعر ، وقد ثبت عندي الآن هذا القول .

فارقتني دقيقة ، ثم جاءت بسيدة أميركية لتجالسني ، فلاطقتني هذه السيدة كل الملاحظة ، يبلغ عمرها أربعين سنة وتظهر عليها آثار الغنى ، والسيدات الأمريكيات على وجه عام يلاطن الزوار الأجانب ويؤنسهم ويبالغن في هذه الملاحظة والايناس ، وقد شهدت قبل اجتماع « سان فرانسيسكو » اجتماعاً آخر في مكتبة الكونغرس في « واشنطن » فقد دعى أعضاء مؤتمر الثقافة الاسلامية الى شرب الشاي ، فكانت السيدات يظفن عليهم ويبالغن في إكرامهم .

لم أسأل السيدة عن اسمها وإنما سألتني الى أين أذهب بعد الاجتماع ، قلت لها : الى بالو آلتو Palo Alto وهي ضاحية تبعد عن « سان فرنسيسكو » ساعة في القطار ومعني تذكرة السفر ، قالت : اني مقيمة بجوارها ، فأرجو أن ترافقني في سيارتي ، فاعتذرت ، ثم ألحت عليّ فشكرت لها •

جاءني في خلال هذه الاحاديث زائر لا أعرفه وقال لي فجأة : أفلا تجد أن صلواتكم الخمس في النهار تعطل أعمالكم وكذلك صلوات رجال الحكومة فانها تعطل أعمال الناس ، فلم أجد بدا من إزالة هذا الوهم ، قلت : لا شيء من كل ما ذكرت ، ان المسلم يستفيق في الصباح ، فيتوضأ ويصلي الصبح ، وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، ثم يتوجه نحو عمله ، أفتجد في ذلك تعطيلاً للعمل ، قال : لا ، قلت له : وفي الظهر يذهب الى داره ليتغدى ، فيتوضأ قبل الغداء ويصلي الظهر وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، ثم يتغدى ويعود الى عمله ، أفتجد في ذلك تعطيلاً للعمل ، قال : لا ، قلت له : وبعد العصر انه يغلق دكانه ويذهب الى داره فيتوضأ ويصلي العصر ثم يصلي صلاة المغرب ، وهذا لا يستغرق بضع دقائق ، أفتجد في ذلك تعطيلاً للعمل ، قال : لا ، قلت له : ولم يبق عليه إلا صلاة العشاء وهذا يستطيع أن يفعله قبل النوم ، فأين تعطيل الأعمال ، ولما لم يجد قدرة على الرد قال : وأعمال الحكومة ، قلت له : ان الحكومات في بلاد المسلمين أكثرها يعمل من الساعة الثامنة في الصباح الى الساعة الثانية بعد الظهر ، فالموظف يستطيع أن يصلي الصبح قبل المجيء الى عمله ، أما الظهر فهو يصليه بعد انصرافه عن العمل ، فأين تعطيل أعمال الناس ، فانصرف ولم ينبس •

لم أدون هذا الحديث الا لأمر واحد ، فان الأميركان لا يعرفون

شيئا عن الاسلام والعرب ، وهم يتطلعون الى هذه المعرفة ولكننا نحن
مقصرون في الأمر ، ترسخ أوهام في أذهانهم ، فلا نحاول أن ننحوها ،
وتشيع أباطيل وأضاليل فلا نجتهد في القضاء عليها ، ويسمعون عنا
كل سوء وليس في أميركة من يدفع عنا هذا السوء .
أين سفارتنا ، أين بعثاتنا ، أين الجامعة العربية ؟

٢٩ تشرين الأول ١٩٥٣

قضيت في اجتماع « سان فرنسيسكو » ما يقرب من ساعتين ، ثم تركت الاجتماع ورافقت السيدة الأميركية ، وما كدت أخرج من الدار حتى لقيت زوجها وهو ينتظرها ، فعرفتني اليه ، فدعاني الى السيارة التي يسوقها ، ركب رفيقي الدكتور ايلي سالم الى جنبه وركبت أنا والسيدة في صدر السيارة ، قطعنا مسافة قصيرة ، فوقف بنا زوج السيدة ودعانا الى مطعم صغير على الطريق ولكنه مطعم جئاذب ، أكلنا ما أكلنا وشربنا ما شربنا والوقت وقت العشاء ، ثم انطلقت بنا السيارة نحو « بالو آلتو » .

لا يكاد الانسان يصدق نوع الحديث الذي دار بيني وبين السيدة في السيارة ، سألتني : ما هي الألعاب التي أتقنها ، هل ألعب بالفتبول أم بالنس أم بالبزبول وكلها ألعاب مشهورة ، أم أعرف السباحة ، فوجدت أن أهون شيء عليّ أن أقول لها اني كنت أسبح في القديم لما كان عمري سبع سنين ، كنت أسبح في بركة ماء كبيرة في دارنا في دمشق ، فأدركت أنني غير ماهر في الرياضة وقطبت قليلاً .

زادني هذا الحديث ايماناً بأن الرياضة تشغل الأميركيان كلهم ، رجالهم ونساءهم ، فان هذه السيدة لم تقبض وجهها الا لأنني لست من أهل الفن ، فأنا لا أتقن من الرياضة الا المشي ، ولكنها ما لبثت

أن بسطت وجهها وما زالت تبسطه حتى بلغنا « بالو آلتو » ولكن
القطار لم يصل بعد ، فنزلنا من السيارة ، وانتظرنا دقائق ريثما تصل
الآنسة التي كلفتها جامعة « ستانفورد » أن تستقبلنا في المحطة ، فلما
وصلت الآنسة بسيارتها ودَّعتني السيدة وزوجها أكرم وداع ،
فشكرت لهما عنايتهما ورقتهما ومضيا .

« بالو آلتو » ضاحية قريبة من سان فرانسيسكو ، أهلها يسمونها :
مدينة الحدائق ، وهي نظيفة جدا ، يبلغ عدد سكانها ثلاثين ألفا ، وفيها
شارع يمتد منها الى « سان فرانسيسكو » الى المحيط الهادئ ، بين
دور وأشجار وحدائق . قيل لنا ان المطاعم في هذه الضاحية قد حرِّم
عليها بيع الخمر بسبب الجامعة فيها وبسبب الطلاب الأحداث .

أما الجامعة فقد أنشأها Herbert Hoover وهو رئيس الولايات
المتحدة الواحد والثلاثون ، تبرعت بأرض الجامعة أسرة أميركية
كانت في رحلة الى ايطالية ، ففقدت في هذه الرحلة ابنها الوحيد ،
فتبرعت بأرض الجامعة إحياء لذكره ، وسمتها باسم الأسرة :
« Stanford » وقد كان ربُّها حاكم « كاليفورنية » وبعض الأبنية
في هذه الجامعة انشئ بالهبات والعطايا ، أما لذكر ولد فقد ، أو بنت
فقدت .

جامعة « ستانفورد » فخية جدا ومدخلها من أروع المداخل ،
حدائق وأشجار وملاعب ، والسيارات محشوكة في جميع الطرق .

في الجامعة بناء للتمثيل لم أر مثله في غير الجامعات ، وفيها مكتبة
مشهورة بكتب الشؤون الخارجية ومسائل الشيوعية ، وهي أول
مكتبة في العالم من هذا النوع ، يقع بناؤها على طبقة أرضية ويقوم
من سطحها الى السماء برج من أعجب الأبراج ، تخزن فيه الكتب ،
علوه ٢٨٥ قدما ، طلعت هذا البرج حتى رأسه ، وهو يطل على المدينة

كلها ، بحدائقها وتلالها وجبالها ، وترى منه أبنية الجامعة ، فيظن المرء نفسه على طائفة ، وفي رأس البرج جملة نواقيس كبيرة ، قيل لنا انهم يعزفون بها في الأسبوع مرة ، فتسمع أنغام الموسيقى البلجيكية ، يكشف البحر من هذا البرج في أيام الصحو ، شعار جامعة « ستانفورد » شجرة من شجر كاليفورنية •

الجامعة واسعة جداً بحيث اذا أراد الأساتذة أن يسكنوها فان لهم مساكن فيها ، ومن خصائص بعض أبنيتها أن فيها أروقة طويلة وقناطر من حجر لم أر مثلها في الجامعات الثانية ، قيل انها من طرز مكسيكي لتأثير أهل المكسيك في كاليفورنية من القديم •

أمّا كنيسة الجامعة القائمة في وسطها فقد بناها عمال ايطاليون جيء بهم من ايطالية ، وتقاطيع مدخلها وحيطانه من أحسن التقاطيع والحيطان ، أمام هذه الكنيسة ساحة عظيمة وطريق مستقيم تشقه ثلاث قناطر ، فنها من أروع الفنون ، وحول الساحة أشجار باسقة وأروقة تحيط بالساحة من جوانبها الأربعة • داخل الكنيسة لم أر أحسن من فسيفسائه ، الصور على الجدران وألوانها من الفسيفساء وحسب هذه الصور انها فن ايطالي ، وعلى المذبح صليب من بيزانطة عره خمسمائة سنة ، من بين هذه الصور صورة قيام السيد المسيح ومن تحته صورة البشرية القائمة أيضا ، وفي هذه الصورة نفسها صورة ابن المتبرع بالجامعة ، أي ان المصورين حاولوا أن يصوروا على قدر الامكان ولدا يشبه هذا الابن الذي مات في ايطالية •

لا أستطيع أن أصف الصور كلها ، بعضها يمثل أبطال حروب ، وبعضها ذو صبغة دينية ، وبعضها يمثل نساء على جمال ، وهي صورة أيوب وامراته في الصحراء •

في وسط أحد أبنية الجامعة ساحة عظيمة فيها صهريج يتدفق

الماء فيه ، وحول هذه الساحة مجتمع الطلاب ومطعمهم ومرقدهم ،
الساحة من أجمل الساحات ، لم أر مثلها في جامعة ثانية ، والطلاب
فيها على بسط من العشب الأخضر .

اشتهرت جامعة « ستانفورد » بتدريس الهندسة وبسكبتها
الوحيدة في العالم ، وأكثر طلابها في قسم الآداب بنات ، فهن يأتين
للتفتيش عن خطيب على ما قاله لي استاذ فرنسي فيها ، ويبلغ عدد
طلابها سبعة آلاف طالب .

لم أخرج من هذه الجامعة بعد جولاني فيها الا على هدوء
الطبيعة وهدوء السيارات الجائيات الذاهبات وهدوء أنغام الأرغن في
الكنيسة ، فكأنني لا أزال أسمع هذه الأنغام التي تسحر القلوب
بخشوعها .

طعام وكلام .

دعاني أستاذة جامعة « ستانفورد » الى العشاء والى المساهمة في
مناقشة ، وقد دعي الى مثل هذه الغاية الاستاذ محمد خلف الله أحمد
عميد كلية الآداب في الاسكندرية والدكتور البهي أستاذ الفلسفة في
الأزهر .

لبيت الدعوة وأنا لم أدر ما هو موضوع المناقشة ، فحضرت
العشاء ولم يحضر الأستاذان الموما اليهما .

دار بيني وبين بعض الأساتذة حديث على العشاء ، قلت لأحدهم :
ان الأميركان لهم عقلية ميكانيكية ، فينبغي للانسان أن يعرف كيف
يخاطبهم ، لا ينبغي له أن يخاطبهم بلغة الشعر ، قال الاستاذ : هذا
صحيح من جهة ، فالانكليز والأميركان يفرقون بين لغة الشعر وبين
لغة الأمر الواقع .

أما استاذ الأدب الفرنسي فان حديثه معي كان عن الزواج ، ففي

رأيه ان لكل ثلاثة رجال في أميركة امرأة واحدة ولذلك فان المرأة الأميركية تغير ثلاثة أزواج ولا غضاضة عليها ، وفي رأيه أن الجامعات أصبحت مصايد للزواج ولما سألته : هل أنت متزوج ، ظهرت على وجهه آثار الكتابة بعد المرح ، قال : نعم ، اني خطبت طالبة من طالباتي وتزوجتها وعشت معها زمنا على أحسن حال ، ثم ذهبت في صيف من الاصيف الى الكندا وأرسلت إليّ كتابا تقول فيه : فتش عن زوجة غيري !

لما رأيت الحزن على وجه هذا الأستاذ أشفقت عليه ، فقطعت هذا الحديث وقد قرب وقت النهوض من السفرة ، وقد رأيت شابا من طلاب الجامعة يخدمون على الأكل •

قال لي أساتذة الجامعة : لم يحضر حتى هذه الدقيقة الأستاذ خلف الله والدكتور البهي ، فهل أنت مستعد للانفراد بالمناقشة وحدك ، قلت لهم : إني مستعد •

الاسلام وأطوار الحياة الحديثة

اجتمع في قاعة من قاعات الجامعة فريق من الأساتذة والطلاب والأهلين ولما استقر المقام بهم عرض عليّ أحد الأساتذة هذا السؤال فجأة : هل يسهل الاسلام أطوار الحياة الحديثة .

لقد امتحنت العقلية الأميركية بعض الامتحان ، يجب الأمر كان أن يدركوا الأمور من أقرب الطرق ، ولذلك يسيلون الى ضرب الأمثال التي تقرّب هذه الأمور من أذهانهم وأفهامهم ، فلا يريدون الخوض في النصوص التي تشتت هذه الأذهان والأفهام ، وعلى ما به خاطبتهم على مقادير عقولهم ، لا يحضرني كل ما قلته في هذا الاجتماع ، وانما أذكر روح الذي قلته :

ان الأديان تنزل عادة من السماء لتقرير السلام على وجه الأرض ، فهي توضّح الصلة بين الله عز وجل وبين الانسان ، ثم توضّح الصلة بين المرء وأخيه ، فأموال الايمان والعقائد لا تثبت بأدلة رياضية كما تثبت قضية هندسية أو معادلة جبرية ، وانما العقائد والايمان مصدرها القلب ، فهي راسخة لا تتلحح ، أمّا الحياة فانها تنتقل من طور الى طور كل حين ، ففي كل يوم مذهب جديد وزر جديد وما شابه ذلك ، فالحياة لا تستطيع أن تبقى على نمط واحد ، وقد يمكن المسلم أن يتبع أطوارها وأن يبقى مسلماً ، فالاسلام انما هو إسلام على كل حال ، لا يضيق ولا يتسع ، وانما الذين يضيقونه أو يوسعونه هم المسلمون أنفسهم .

كان الخليفة عمر بن الخطاب متشددا كثيراً وكان الخليفة معاوية ابن أبي سفيان متساهلاً كثيراً ، الأول لم يتتبع أطوار الحياة الحديثة بعد وفاة النبي ، والثاني خاض في هذه الأطوار الخوض كله ، فقد كان في دمشق يجاري البيزنطيين في مواكبهم الثقيلة والاسلام يمنع عن المشي على الأرض مرحاً ، ومع هذا كله مات عمر وهو أمير المؤمنين ومات معاوية وهو أمير المؤمنين وبقي الاسلام اسلاماً ، في تشدد الأول وتساهل الثاني .

ثم انتقلت الى ضرب أمثال ثانية فقلت : كانت لغة العرب قبل الاسلام لغة بدو لا تتسع لغير مظاهر الصحراء ، فلما جاء الاسلام أصبحت لغة حضارة تتسع لأمر الدين والسياسة والفلسفة والعلم والاجتماع وغير ذلك ، فلم يجمد المسلمون في تفكيرهم وشعورهم وذوقهم ، وانما تتبعوا أطوار الفكر والشعور والذوق في مجامع مظاهرها ، وبقي الاسلام إسلاماً ، وبقي المسلمون مسلمين .

وفي عصرنا هذا انتقلت الأسرة من حال الى حال وانتقل العمران من حال الى حال وانتقلت المرأة من وجه الى وجه ، حتى أصبحت تجاري نساء الغرب في كثير من الأمور ، وانتقلت سياستنا من طور الى طور ، فاقتبسنا أكثر دستورنا أو أقله أو بعضه من دساتير الأمم ، وتتبنا أطوار الحياة الحديثة ومذاهب الاقتصاد والاجتماع الجديدة ولم يؤثر هذا كله في ديننا ، فقد بقي الاسلام إسلاماً ، وبقي المسلمون مسلمين .

فالذين يريدون أن يسع الاسلام كل شيء في الحياة يخرجون به عن طبيعته ، والذين يريدون أن يضيق الاسلام عن كل شيء يظلمونه ، فقد يستطيع المسلم أن يتتبع أطوار الحياة الحديثة على قدر الامكان وأن يبقى مسلماً ، فيجب على الأميركان أن يتصلوا بالمسلمين مباشرة ،

وأن يقفوا على آرائهم في مثل هذه الأمور الخطيرة حتى يصلوا الى الحقيقة ، لأن الاقياد الى آراء بعض المتحاملين على الاسلام أو بعض المتعصبين ، سواء أكانوا من أهل السياسة أم كانوا من الجامعات والصحافة في أميركة وغير أميركة ، يبعد المسافة بين الأميركان وبين الشرق ، وأميركة الآن تحاول أن تنقل سياستها من المحيط الاطلنطي الى المحيط الهادئ ، لعل البشرية تهدأ بعد هذا الانتقال ، فيستقر السلام في العالم .

وبعد هذا البيان المختصر أخذ الحضور يطرحون الأسئلة عليّ بحسب الطريقة الأميركية ، لأن الأميركان يريدون أن يعلموا كل شيء في أسرع وقت ، فكنت أخلط الجدل بالهزل وفقاً للعقيدة الأميركية حتى تسلمت .

في هذه الأثناء دخل الاستاذ محمد خلف الله والدكتور البهي وكانا قد وصلا الى « پالو آلتو » قبل خاتمة الاجتماع وآثار التعب بادية عليهما ، فقلت للاستاذة خلف الله : انتهت مهمتي ، أرحني من عناء السؤال والجواب أراحك الله ، فطرحت العبء عن كتفي وودعت القوم وانصرفت ولم أدر الموضوع الذي اقترح على الاستاذين بعد انصرافي .

مفيب الشمس .

هذا اسم مجلة في « پالو آلتو » ولم أشر اليها في هذا المقام إلا لروعة حديقته ، ان في بناء إدارتها حديقة تصلح لأن تكون حديقة ملوك ، ومن شهرتها ان السيّاح يجيئون لها للفرجة ، وقد رأيت خمسة عشر دانماركيا منبسطين على عشبها الأخضر يصورهم أحد رفقائهم للاحتفاظ بهذه الذكرى .

لقد ألهتني محاسن هذه الحديقة عن السؤال عن المجلة وعدد

المطبوع منها وعن كتابها ، إلا أنني علست أن هذه المجلة موضوعها البيت أو الدار ، فهي تعنى بأمور الأكل والطبخ وتدير المنزل ، وفيها مطبخ للتجربة .

وعلى ذكر المطبخ لا بأس بالإشارة إلى أن المطبخ الأميركي على تعبير الغربيين غير متقن ، وأنا أريد بذلك الطبخ نفسه ، فالأميركان في مطاعمهم العامة وفي مطاعمهم الخاصة لا يتقنون فن الأكل ، فهم يأكلون للغذاء لا للذة الأكل ، سوءاً عليهم أكان الطبخ جيداً أم لم يكن ، وقد يجوز أن يكون طبخهم في أذواقهم جيداً . تقدم المطاعم لونا واحدا في صحن واحد يشتمل على نوع من أنواع اللحم كلحم الدجاج أو السسك أو العجل أو الغنم ، وعلى نوع من أنواع الخضرة ، وهم يبدأون بالأكل في المطاعم على الوجه الآتي : قبل كل شيء الماء المثلوج ، فعلى قدر إقلال الأوروبيين من شرب الماء على الأكل نجد إكثار الأميركيين من شربه ، ولم أجده في مطعم من مطاعمهم خموراً على الأكل ، ثم يأتي الحساء الساخن بعد الماء البارد ، ثم يأتي اللون الذي يريده الانسان في صحن واحد ، وبعد ذلك الفاكهة أو شيء من المثلوجات وهو ما يسمونه : Ice Cream وقد سألتني أحد الأميركيين قال : كل بلد مشهور بشيء ، فبأي شيء ترى شهرة أميركة ، قلت له : شهرتها بهذا المثلوج : Ice Cream . وبعد الفراغ من الأكل لا بد من القهوة أو الشاي .

هذا هو أكلهم على وجه عام ، ومطاعمهم متشابهة في أميركة كلها ، وإذا كان في بعض المدن الكبيرة مثل نيويورك مطاعم فاخرة فروقتها في المكان وزينته وأدوات السفرة فيه ، أما الطبخ فيكاد يكون واحدا ، أن لهم ذوقاً غريباً في الأكل ، فتجد الأكل الذي يحتاج إلى شيء حامض حتى يشتبهه الانسان يضعون فيه شيئاً حلوا حتى تكاد تتفزز النفس منه ، وأذكر أنني دخلت مطعماً عظيماً في « نيويورك » في فندق :

Hotel Caryle في شارع Madison وهو قريب من المتحف ،
والفندق فخم جدا ، فكان الأكل يومئذ ديكاً رومياً ، وهو أكل عيد
الميلاد ، ويكاد يكون أفخر شيء في أميركة ، إلا أن هذا الديك
مخلوط بشيء حلو تعافه النفس ، فاضطرت الى عزل هذا الحلو عن
اللحم حتى أكل اللحم وحده .

لا ريب في أن المطبخ الفرنسي من أحسن المطابخ في العالم ، وهذا
شيء مجمع عليه ، وقد رأيت بعيني الزحمة في المطاعم الفرنسية في
أميركة ، مدنها وأريافها ، في كل مطعم فرنسي نجد ذوقاً في ترتيب
المطعم نفسه وفي تزيينه وفي الأكل . الأميركي كان جماعة عمل لا جماعة
اعتناء بالأكل ، همهم أن يملأوا معدهم في أسرع وقت حتى يعودوا
الى عملهم أو حتى يذهبوا الى لهوهم في المساء .

نجد مطاعم شرقية في مدينتين عظيمتين : نيويورك وواشنطن ،
أصحابها من سورية أو لبنان أو فلسطين ، اذا قيس أكل هذه المطاعم
الى الأكل الأميركي كان نعمة من النعم ، ولكن اذا قيس الى الطبخ في
بلادنا فانه يعوزه بعض الاتقان ، وعلى كل حال فان الشرقي اذا علم
بهذه المطاعم زحف اليها على أي وجه كان حتى يعرف ماذا يأكل .

فاذا كانت مجلة : مغيب الشمس تعنى بالأكل فهي مصيبة في ذلك
لأن الأكل في أميركة في حاجة ماسة الى مثل هذه العناية .

٣١ تشرين الأول ١٩٥٣

هذه هي المرة الثالثة التي أدخل فيها « سان فرانسيسكو » ومن حسن الاتفاق أن السيدة الفرنسية التي استقبلتني في المرتين الأولى والثانية هي نفسها التي استقبلتني في المرة الثالثة ولم يكن معي غير رفيقي الدكتور ايلي سالم .

هذه السيدة Mrs. Thompson عصبية المزاج ، ثاقبة الفهم ، حلوة الحديث ، لها دار فخمة ذات عدة طيقان ، فيها مصعد ، ويظهر على زوجها انه من الموسرين الأغنياء ، يتكلم قليلا بالفرنسية ، ولكنها فرنسية ضعيفة ، أما السيدة « تسمن » فان انكليزيتها جيدة ، ليست لها الا بنت واحدة تبلغ ست عشرة أو سبع عشرة سنة ، وهي سيئة الحظ بينتها ، فقد كنا على العشاء ، فجاءت البنت ووشوشت أمها ، ثم انصرفت ، فقلت للسيدة « تسمن » : لماذا لا تحضر العشاء معنا ، قالت انها مشغولة ، ثم عادت بعد فترة الى الحديث فقالت : ان بنتي مريضة بنوع من المرض لم يهتد الأطباء الى دوائه .

السيدة « تسمن » فضل علي عظيم ، فقد أررتني سان فرانسيسكو كلها ، طقت على جميع ضواحيها ، وهذا لا يتيسر لي وحدي ، وهي صاحبة وفاء ، فقد أرسلت الي بطاقة تهنئة بعيد رأس السنة ، وهي صاحبة ثقافة فقد وضحت لي أمورا كثيرة .

تهني الفرجة قبل كل شيء ، فقد هيأت لي السيدة « تمسن » سيارتها ، فقضينا أربع ساعات في أطراف « سان فرنسيسكو » حتى أحطت بهذه المدينة الفتانة من مجامع جهاتها ، فقد سرنا أربع ساعات بين تلال أكثرها شجير وبعضها أجرد ، فكنت وأنا على تل أرى مدينة ثانية على تل آخر منحدر من أعلى التل الى أسفله ، كنا مرة بين تلال ومرة بين أودية ، حيناً بين جبال وحيناً بين حراج ، فكنا نرى بحيرة وقتاً وبحراً وقتاً آخر ولست أبالغ اذا قلت ان « سان فرنسيسكو » أحلى مدينة في أميركة .

الا ان الفرجة تنتهي ، فلا بد من الأحاديث والسيدة « تمسن » محدثة من الطراز الأول ، لقد دخلت في كل نوع من الأحاديث ، تكلمت على بعض مشكلات « كاليفورنية » من مشكلات هذه الولاية مشكلة الأرض ووضع ضريبة عليها حتى لا يحتكرها الرجل الذي يشتريها فيتربص بها غلاء الأسعار ، فالإنسان لا يكاد يشتري قطعة أرض في أطراف « سان فرنسيسكو » حتى تزيد أسعارها بعد حين على صورة عجيبة .

ومن هذه المشكلات مشكلة الشيوخ الذين يبطل الموت عليهم ، فالحكومة مضطرة الى سد عوزهم حتى الموت ، فهي لا تقطع الرواتب عنهم ، ولذلك أوعزت الى أصحاب المعامل باستخدامهم دون أن يتقاعدوهم عن العمل ، فهم أشد اتبهاها من الشباب .

ومن هذه المشكلات مشكلة الشباب الذين ليس لهم عمل ، فالحكومة يجب عليها أن تهتم بهم وأن تجد لهم مرتزقا .

ثم جاء ذكر اليهود ، فقالت السيدة « تمسن » ان بعض الفنادق والأندية لا تستقبل اليهود وبعض الجامعات تحدّد عددهم فيها ، وهذه السيدة شديدة الكراهة لليهود ، واقفة على طبائعهم التي أورثهم

اياها الماضي ، وعلى أمزجتهم وبواطن عقولهم ونفوسهم ، فهي تعلم مقدار ميلهم الى الشكوى والتوجع وما شابه هذه المظاهر .

ثم جاء ذكر المرأة في القديم والحديث فقالت : ان الرجل الأميركي يقوم بمعاش المرأة في الماضي ، ثم دخلت الحياة في أطوارها الحديثة ، فلا بد للمرأة من مساعدة زوجها ، فهي تعمل مثله ولكنها اذا ولدت ولدين اضطرت الى البقاء في الدار والى الشغل في الدار بسبب أزمة الخدم ، فتأتي حينئذ بأمرها لتعاونها ، فتكثر النفقات على رب الدار فتقع المشكلات .

قالت السيدة « تمسن » ان عشرين في المائة من النساء حكيما ومحاميات وهن شهيرات ، فاذا تزوجن اضطرن بعد الجبل الى الانقطاع عن العمل وفي هذا بأس .

ثم جاءت مسألة الخدم ، فقالت ان قلة الخدم في أميركة تحمل على الاقلال من الدعوات الخاصة ، وبالاقلال من الدعوات تقل الاجتماعات الخاصة ، فيفقد الحديث رونقه ولذته ، لقد اعتاضوا عن الدعوات الخاصة الدعوات العامة التي يسمونها : Coacktails فقالت ان أشباه هذه الدعوات لا تقوي الأحاديث ، فالرجل يجلس الى رفيقه دقيقتين ثم ينتقل الى رفيق آخر فيقضي معه دقيقتين ، فيفقد الحديث قيمته ، ولذلك ليس للأميركان أفكار ، انهم يستغنون عن التفكير ، فالجرائد كثيرة والمجلات كثيرة والاذاعات والتلفزيونات كثيرة ، وهذه كلها تغني الرجل في أميركة عن التفكير .

انظر الى هذه النتائج ، فالحياة في أميركة أصبحت آلية . قالت السيدة « تمسن » دعيت الى عشاء على مدرعة فرنسية أرست في « سان فرنيسكو » فقضيت على السفرة أربع ساعات ، فكنا ندخل في حديث فلا تقتضيه اقتضابا ، وانما كنا لا نخرج منه حتى نأتي على موضوعه ، فالفكر على هذا الشكل يتسلسل تسلسلا منطقيا .

مصرع العربية .

لا بدءاً من زيارة أسرة عربية في « سان فرانسيسكو » أخذ صاحبي الدكتور ايلي سالم دفتر الهاتف وفتش عن أسماء أسرة « مالك » وهي أسرة أصلها من قريته : بطرام الكورة ، وله صلة قرابة بها وبالدكتور شارل مالك ، فان أصله من بطرام أيضا . اهتدى الى هذه الأسرة وهي مؤلفة من أم عجوز ولها ولدان : أحدهما متزوج والثاني أعزب اسمه جورج ولها ثلاث بنات ، اثنتان متزوجتان وواحدة طلقت زوجها .

دعنا هذه الأسرة الى العشاء في دارها مرة ودعانا « جورج » الى العشاء في مطعم على البحر واعتنت بنا الاعتناء كله وأخذت الأم العجوز تسأل الدكتور ايلي عن أقاربها في بطرام وتحن الى وطنها الأول وتلومه على خطبته فتاة من أميركة وزهده في بنات قريته .

كان رب هذه الأسرة يتكلم بالعربية حتى توفاه الله ، وبقيت امرأته تتكلم بالعربية ولكنها عربية غريبة الشكل ، انها لم تتقن الانكليزية الاثقان كله ، ولم تنس لغتها النسيان كله ، فاذا تكلمت خلطت العربية بالانكليزية ، واشتقت من الكلمات الانكليزية كلمات تكاد تشبه لغة مالطة فكلمة : ساق معناها في الانكليزية : To drive فالسيدة لا تعرف السوق بالعربية ولهذا تقول في حديثها : درء الكار أي ساق السيارة ، فالكار معناها السيارة وكذلك كلمة أنهى معناها في الانكليزية : To Finish فالسيدة في أثناء كلامها تقول : لما فئش ابني السكول ، أي لما أنهى التحصيل والسكول معناها : المدرسة ، أما بناتها اللواتي انفصلن عنها وتزوجن فهن لا يعرفن كلمة عربية ، لأن أزواجهن أميركان ، وكذلك أبناؤهن فهم لا ينطقون بالعربية . وقد حضرت صلاة في كنيسة في « سان فرانسيسكو » والأصح

أنني حضرت حفلة اكليل ، فكانت الصلوات نصفها بالعربية الضعيفة ونصفها بالانكليزية ، فالدين على قوته لم يستطع أن يقف في وجه الانكليزية ، ولا شك في أن هذه اللغة ستحل على الأيام محل العربية حتى في الصلوات ! *

لما ظهر الاسلام وحمل الى الدنيا كتابه ولغته ثبتت هذه اللغة في أكثر الآفاق التي انبسط عليها ، وصارع اللغات التي مرء عليها أو التي خلقتها الماضي ، حتى غلب على معظمها ، كانت لغته لغة دين ولغة دولة ، فلم يجد الداخلون في دين الله مندوحة لهم عن نسيان لغتهم وحفظ اللغة الجديدة التي جاءتهم ، ولقد جرى مثل هذا الأمر في أميركة ، فقد فتح الأميركان هذه البلاد العظيمة التي لا يكاد الانسان يتصور عظمة جبالها وسهولها وشلالاتها وبحيراتها وغاباتها وصحراواتها ، ثم جاءتهم عناصر شتى من أكثر الأمم ، جاءتهم جماعات من الألمان والطيان والسويديين والدانمركيين والفرنسيين واليونانيين والصينيين واليابانيين والعرب والأرمن وغيرهم ، جاءتهم هذه العناصر الجديدة بلغاتهم ولكن لم يمرء عليها بطن أو بطنان حتى نسيت لغاتها وتعلمت الانكليزية ، فالناس مقيدون بمصالحهم ، فكما أن الاسلام في القديم قضى على كثير من اللغات لدخول أصحابها في دين جديد ودولة جديدة فكذلك الانكليزية في أميركة قضت على غيرها من اللغات لأن أصحاب هذه اللغات دخلوا بلادا جديدة فوجدوا فيها رزقا واسعا وعيشة راضية ، فنسوا لغاتهم وتعلموا لغة الذين فتحوا لهم باب الرزق ومهدوا لهم سبيل هذه المعيشة . *

حديث جورج عن الزواج .

أولعت بصاحبنا جورج الولع كله ، أولعت بطرز حديثه ، فانه يخلط العربية بالانكليزية خلطا عجيبا ، ولا بد في كل جملة نصفها

انكليزي ونصفها عربي من سب الدين على لهجة لبنانية قوية ، أولعت بشكله ، انه مثل البرميل من حيث رشاقة القوام ، أما سحته فلا أعرف أغرب منها ، اذا قلت انه مخيف بوجهه فلا أبالغ في قلبي ، وما علي بعد هذه الصفة أن لا أدخل في تفاصيل هذا الوجه ، تفاصيل العين والأنف والفم واللون ، واني لأخشى اذا دخلت في هذه التفاصيل أن أدخل الخوف على قلب القارئ الكريم ، فحسبي أن أقول في أخينا جورج : انه مخيف ، مخيف بشكله وأكله وشربه . ولكن هذه المخاوف كلها تنقلب انسا اذا حدثنا جورج عن مشكلات زواجه ، فهو خفيف الروح ، قلت له : هل أنت متزوج يا جورج ، قال : لا ، قلت : لماذا ، ولا بد قبل أن يخوض في الأسباب من سب الدين مرتين أو ثلاث مرات ، قال : تريد أمي أن أتزوج بنتا من أصل عربي في « سان فرنسيسكو » وهي لا تريد الأميركان ، قلت : وما يمنعك عن ذلك ، قال : لاشيء ، ولكن البنات العربيات في « سان فرنسيسكو » غايتهن النهب والسلب ، فالفتاة تريد كذا . . . وتريد كذا . . . واذا اشترت لها ما تريد ذهبت ثروتي كلها ، فأنا أستطيع أن أهتدي في كل يوم الى فتاة أميركية أتزوجها ، ولكن أمي تريد فتاة عربية ، هذا حديث « جورج » عن الزواج ولكني لا أستطيع أن أصور حركاته وهو يحدث أو أعيد حلاوة ألفاظه التي يستعملها ، ولذة هذا الحديث في صورة جورج وفي ألفاظه ، وقد اغتنم هذه الفرصة فسألني السؤال نفسه : هل أنت متزوج ، فلم أجد بدا من ذكر الحقيقة ، قلت له : اني غلظت في حياتي غلظة فخطبت ، ثم تبين لي أن الفتاة وأهلها غايتهم في هذا الزواج المال وحده ، فصحوت وملصت ، فكأنني ألقيت على جورج بهذا الحديث ماء باردا ، فضحك حتى كاد يستلقي على الأرض ، ثم حلف عليّ أن أحدث أمه بهذا الحديث حتى تؤمن بطمع بنات العرب وبميلهن الى النهب والسلب في الزواج .

الاعتماد على النفس .

نعود الى السيدة العجوز ، سيدة دار « مالك » قلت ان لها ثلاث بنات ، احدهن « فرنسيس » وعمرها احدى وثلاثون سنة ، دعنا الى شرب الشاي في دارها وهي متزوجة وزوجها في « آلاسكا » لهذه السيدة ولد عمره ثلاث عشرة سنة ، اسمه : ادوار ، لقد عرفت في حياتي أطفالا من عمره رزقهم الله كثيرا من قوة العقل ، ولكني لم أعرف أقوى عقلا من « ادوار » في مثل هذه السن ، لقد أنس بي كثيرا ولما علم أنني عميد كلية الآداب أخذ يسألني عن عدد الطلاب والطالبات وعن التدريس ومواده ، ولما وجدت انه أنس بي هذا الأنس أحببت أن أزيد في ايناسه فأخذت أسأله عن المدرسة التي يدرس فيها وعن نوع العمل الذي يسيل اليه ، فتركني دقيقة وخرج الى غرفته الخاصة ثم جاءني ببرامج زراعية ، قلت له : ما هذا ، قال : كتبت الى وزارة الزراعة أن ترسل الي برامج زراعية للاطلاع عليها ، قلت له : وما حاجتك اليها ، قال : اني أميل الى الزراعة وقد عزمت على أن أكون مزارعا ، فلا بد لي من الاستعداد لهذا النوع من العمل من اليوم .

هنيئا للأهل الذين يرزقهم الله أمثال هؤلاء الأولاد ، واذا كان البنون زينة الحياة الدنيا فان ادوار زينة أهله في قوة عقله وشدة رزاقته ، ولما ودعته لم يسعه الا معاقتي وتقيلي . سألت الدكتور ايلي سالم عن السبب في هذا الاستئناس الزائد قال : لا غرابة في ذلك فان الأولاد الأميركان لا يجدون من أهلهم مثل هذه البشاشة التي وجدها ادوار منك ولهذا استأنس بك كثيرا .

أما أم ادوار فانها لما رأت تعلق ابنها بي أثّر فيها هذا المنظر ، فلما دنوت من توديعها قالت : قبّلني ، وهذه عادة شائعة في بعض الأسر التي تشتد الالفة بينها وبين زوّارها .

خرجت من « سان فرنسيسكو » وآخر أثر من آثارها هذه القبل الصافية .

مصارعة العجول .

اتفق أنه وقع في هذه الأيام عيد البقر في « كاليفورنية » فقد دخلت الفندق الذي نزلته في « سان فرنسيسكو » فوجدت في إحدى زوايا البهو عجلا جاء به فلاح من الفلاحين لعرضه ، وقد اعتنى به الاعتناء كله ، فكان يحسن القيام على علفه وشربه ، وهو عجل سمين ، قد ركب شحمه بعضه بعضا بحيث كاد العجل يتفزر ، فسألت عن هذا الضيف الكريم ، فقالوا لي : انا نحن الآن في أسبوع عيد البقر ، وفي ليلة من الليالي اقترح عليّ رفيقي الدكتور ايلي سالم أن نقضي السهرة في قصر البقر ، وهو قصر بعيد عن « سان فرنسيسكو » فركبنا السيارة العامة ووصلنا بعد ساعة أو أقل .

ما هذا القصر ، انه ملعب من الملاعب الكبيرة يسع ثلاثين أو أربعين ألف رجل وهو على شكل مدرج ، يقطع الناس بطاقتهم ويجلسون في مجالسهم ، فقطعنا بطاقتنا ودخلنا وقد غص المكان بالمتفرجين رجالا ونساء وأطفالا .

الفرجة نوعان : سباق الخيل ومصارعة العجول ، أمّا سباق الخيل فلم أجد فيه شيئا طريفا ، فقد ألفنا هذا النوع من الرياضة في بلادنا وشهدنا كثيرا قفز الخيل على جسور من خشب ، وقد كان بين الفرسان الذين يقفزون بخيلهم فتيات واتفق أن أحد الفرسان عثر به حصانه ، ولكنه لم يصب بأذى .

إلا أن الفرجة الطريفة إنما هي مصارعة العجول ، وأظن أن هذه المصارعة تختلف عن مصارعة الثيران في اسبانية أو في أميركة الجنوبية

فليس فيها شيء من سفك الدم وإنما هذا الضرب من الرياضة يستلزم بعض الخفة والسرعة ، والمصارعة على شكلين ، في الشكل الأول ينطلق عجل من محل معين فيلحقه فارس على حصانه وييده حبل ، فيلقي الحبل على رقبة العجل حتى يمنعه عن الركض ، وعلى قدر إسراع الفارس في منع العجل يكون نجاحه ، ففي بعض الأوقات تحتل هذه الرياضة مقدارا من الثواني وفي بعض الأحيان يسمح العجل فيتعضى على الفارس ويتقلت منه ، وفي الشكل الثاني ينطلق العجل فيتبعه الفارس حتى يصل اليه ، فاذا وصل نزل عن حصانه وصارعه حتى يصره ويلقيه على الأرض ، وقد يخفق الفارس في بعض الأوقات ، فلا يبلغ العجل ، أو اذا بلغه فلا يقدر عليه ، وفي آخر الفرجة تقرأ أسماء الناجحين وتوزع الجوائز عليهم وهي مبلغ من الدولارات لا بأس به .

هذا النوع من الرياضة طريف بالنسبة اليّ فلم أشعر فيه بشيء من الملل والضجر ، فقد يقضي الانسان في قصر البقر ساعتين أو أكثر من دون أن يشعر بحاجة الى الخروج من القصر .

لم يلفت نظري قصر البقر المنيف بقدر مالقت هذا النظر الازدحام عليه ، فالأميركي مخنوق من كثرة العمل ، فهو يفتش في كل وقت عن متنفس يتنفس فيه ، ولكن ميله في مثل هذه المتنفسات منصرف الى الرياضة ولا ريب في أن مصارعة العجول نوع من هذه الرياضة وهو نوع شديد ، ولذلك نجد الأميركي كان يقبلون عليه إقبالا شديدا .

٣ تشرين الثاني ١٩٥٣

على نصف ساعة من « سان فرنسيسكو » أو أكثر تقع قرية اسمها : « بركلي » فيها جامعة كان عليّ أن أزورها • فقد غادرت « سان فرنسيسكو » في ٢ تشرين الثاني فوصلت الى « بركلي » بعد الظهر وجلت قليلا في هذه الضاحية ، وهي هادئة وفيها شارع كبير على نحو مدن أميركة ، ففي كل مدينة شارع كبير وهو الشارع الرئيس ، تحيط بهذه الضاحية جبال مخضرة وعلى هذه الجبال بيوت أو قصور ، انك في ولاية « كاليفورنية » بيئة الغابات والحدائق والسهول •

استيقظت في الصباح واذا الضباب يغطي القرية كلها ويغطي جبالها ، فيشعر الانسان في مثل هذه الحال بهدوء ولكنه هدوء الكآبة ، فلا شمس مشرقة ، ولا جبال ضاحكة ، ولا حدائق باسمة ، استيقظت في الصباح وسلكت الطريق الى الجامعة ، فلما وصلت اليها بعد دقائق معدودة أخذت عيني غاباتها وحراجها وتلالها وأوديتها ، في كل جامعة خصائص ، وجامعة « بركلي » فيها حدائق منسقة يتخللها شجر ومروج خضر ، وفيها زيادة على هذا كله غابات وحراج وأودية ، فترى الجامعة غارقة في هذا كله ، تحيط بها الجبال الشجيرة ، فما أشد التناسب بين هدوء الطبيعة وبين هدوء جامعة « بركلي » في مثل

هذا النهار ، ما أشد التناسب بين كآبة الطبيعة وبين كآبة هذه الغابات والحراج ، هذه خصائص جامعة « بركلي » انك تنتقل فيها من وهود الى أنجاد ، ومن أنجاد الى وهود .

جامعة « بركلي » فرع من جامعة « كاليفورنية » وجامعة « كاليفورنية » عبارة عن تسعة فروع موزعة في مدن مختلفة ، وفي كل فرع كلية خاصة أو أكثر من كلية وهذه الجامعة من أكبر جامعات أميركة ، قيل لي انها الجامعة الثانية بعد جامعة « نيويورك » ان جامعة « كاليفورنية » من جامعات الحكومة وفرعها جامعة « بركلي » فيه ثلاثة عشر ألف طالب وخمسمائة طالب ، أمّا أساتذتها فقد يزيدون على الألف . فيها مركز لدراسة لغات الشرق ودياناته وحضاراته ، كاللغات السامية ، العربية والعبرية وغيرها ، وكاللغات المصرية والقبطية والفارسية والتركية ، وكلغات بابل وغير ذلك .

مباني هذه الجامعة حديثة كلها ، لا خصائص لها ، ما خلا بناءً أو أكثر بني على طرز يجمع بين الفن الاسباني والفن الأميركي الحديث ، وهذا التناقض يلفت النظر في بعض الأحيان .

لم أجد في أبنيتها بناء يحبس العين بدقة فنه أو روعته ، كما وجدت في أبنية ثانية ولكني وجدت ما أجده في أكثر الجامعات ، فان مكتبتها مثلاً أنشئت ذكرى لرجل اسمه : Franklin Doe ، معنى هذا أن الهبة لها الفضل الأعظم على جامعات أميركة ، فأكثر أبنيتها من مال الأغنياء ولولا ذلك لصعب إنشاء الجامعات .

سألت أحد الأساتذة هذا السؤال : لماذا يدرس الطلاب لغات الشرق كالعربية وغيرها ، فقال : انهم يدرسونها على أمل أن تقلدهم الحكومة مناصب سياسية في بلاد هذه اللغات أو على أمل أن يذهبوا الى بلاد النفط وهم يعرفون لغة البلاد .

أبرز شيء في جامعات أميركة الملاعب ، فالرياضة هي روح الجامعات في أميركة ، وفي جامعة « بركلي » ملعب يسع خمسة وثمانين ألف مقعد ، وفيها دار للطلاب الأجانب ، ومعنى الدار أن الأجانب يجدون فيها ناديا لهم وغرف قرآءة وغرف نوم وغير ذلك ، ولكن هذه الدار تختلف عن غيرها من حيث أن الطلاب الأميركيين يستطيعون اذا شاءوا أن يسكنوا الطلاب الأجانب ، وعلى هذا الوجه تشتد الصلة بينهم ويقوى التعارف ويقرب التبادل بالأفكار ، أمّا دور الطلاب في غير هذه الجامعة فانها مقصورة على الأجانب وفي ذلك شيء من العزلة .

قيل إن جامعة « بركلي » مشهورة بالتسامح ، وقد طلب الى الأساتذة أن يتعهدوا أن لا تكون لهم أفكار شيوعية فأبوا ، لأن مثل هذا التعهد يناقض حرية الفكر ، قال لي أحد الطلاب : لماذا لا يأتون بأستاذ شهير لتدريس الشيوعية ومبادئها ، فلا خوف من تدريس الشيوعية ما دامت الديمقراطية هي الغالبة وسألني رأيي في ذلك ، فقلت له : اذا درست الشيوعية فقد تخشى الحكومة أن يقوِّي هذا التدريس مذاهبها في البلاد .

اجتمعت إلى رئيس قسم الدراسات الشرقية ، فوجدت سحنة تدل على أن صاحبها غير أميركي ، وما زلت أتلطف في السؤال حتى علمت أنه يدرس في جامعة « بركلي » من ثماني سنين وكان قبل ذلك أستاذاً في الجامعة العبرية في القدس ، فعلمت أنه يهودي واسمه : Fischel وهو يعرف دمشق ويعرف الأستاذ العلامة المرحوم كرد علي ، سأله عن المادة التي يدرسها ، فقال : انه يدرس حضارة الاسلام وقد وصل الى آخر بني العباس ، حرصت على أن أحضر درسه فوجدت أنه كان يتملص من ذلك ، لم يدعني الى درسه وانما دعاني الى الغداء في مطعم

الأساتذة في الجامعة ، وقد جرى على الأكل حديث الجاحظ ، فقلت له :
ان الجاحظ خبيث ، لقد تكلم على اليهود والنصارى في بعض كتبه ،
فقال لي : انه ضرب النصارى ، فقلت : لم يضرب النصارى وانما
ضرب اليهود ، فقد قال في اليهود : انهم حسدوا المسلمين على نعمة
الدين والاجتماع والتواصل ، وشبهوا على العوام ومائثا الأعداء ،
أمّا النصارى فقد كانوا ملوكا قبل الاسلام فجاء الاسلام وكرمهم
وعظّمهم ، وكان لهم امتياز في مراكبهم وملابسهم وصناعاتهم ، وكانوا
كتّاب السلاطين وفراش الملوك وأطباء الأشراف ، أمّا اليهودي فكان
صبّاغا أو دبّاغا أو حجّاما أو قصّابا أو شعّابا أو خمّارا ... فلم أر
على وجهه أثر الارتياح بعد هذا الحديث ، ثم أخرج ساعته فنظر فيها
وودع وهروا .

زرت أستاذ اللغة الفرنسية وهو أميركي الأصل ، درس في
السوربون والأميركي يسألك قبل كل شيء هذا السؤال : كيف رأيت
أميركة ، وما هو الفرق بين شرقها وغربها ، ولما أنهيت إليه نتائج
شعوري في هذا المعنى قال : انها صحيحة ونتائج الشعور الأولى هي
الصحيحة ، ثم تكلمنا على العقلية الأميركية وعلى العمل في أميركة
وعلى المرأة وغير ذلك ...

انه يوم كآبة ، وكأن برج الساعة القائم في ساحة من ساحات
الجامعة أحسّ بهذه الكآبة ، فأخذت أجراسه في الظهر تدق الدقات
المناسبة لهدوء هذا النهار وكآبته ، هدوء الغابات والجراج ، انها
موسيقى هادئة خاشعة ، تأخذ بمجامع القلب ، فكل شيء في هذا النهار
كئيب ، حتى الطلاب والطالبات ، فانك لا تجد المرح على وجوههم
كما تجده على وجوه غيرهم في الجامعات ، فقد جلس كل طالب الى

طالبة تحت ظل شجرة من الشجر وأخذا يتأملان وينظران في الورق
الأصفر المتناثر على الأرض ويسعانان في النظر والتأمل ، وإذا لم يكن
الى جنب الطالبة طالب أخرجت السجارة من علبتها وشعلتها وبدءت
دخانها في الفضاء ، فاجتمع ضباب الطبيعة الكثيب وورق الشجر
الأصفر ودخان السجارة الملتهبة .

أي حزن أعظم من هذا الحزن !

٦ تشرين الثاني ١٩٥٣

في هذا الصباح شعرت بأني على أبواب الشتاء ، فقد نهضت من النوم وسلكت الطريق الى جامعة « سياتل » واذا الجوّ مثقل بالغيوم والضباب ، اني في ولاية كلها غابات وحراج ، على حدود الكندا ، فما كنت أرى في طريقي الى « سياتل » من « بركلي » إلا الغابات والأنهار ، يشحنون الخشب على هذه الأنهار ، فهم يقطعون الشجر ويلقونه في الماء ويحبسونه في دائرة معينة حتى لا يجرفه الماء ، فاذا تمّ القطع أطلقوا الخشب يجري على صفحات الماء نحو الجهة التي يريدونها ، واذا فتنني شيء على الطريق فقد فتنتني هذه الدور البسيطة المبثوثة في مزارع غير كبيرة ، كلّ فلاح وداره في مزرعته وحطبه على بابه وبقره برأى منه ، والشتاء قد هجم ، ما له ولضوضاء المدن ، ما له ولمشكلاتها ، يشتغل في النهار هو وزوجته وأولاده ، ويضمّمهم البيت في المساء حول مدفأة ، يتساقطون أحاديث عملهم في النهار ويتمتعون من حياة الأسرة التي تكاد مفقودة في المدن ، هذه لذة المزارع ، كل فلاح يشعر بأنه مالك أرض وبأنه ملك صغير في أرضه وهذا ما يحبّب الأرض اليه ويجعله يهون الموت عليه في سبيلها ، أمّا المزارع الكبيرة التي يملكها المزارعون ويشغل الفلاحون عندهم بالأجرة فان هؤلاء الفلاحين عيونهم فيها كل وقت ، وقد سألتني أحد

الصحفيين : ما الذي استهواني في أميركة ، قلت له : تمنيت أن أكون فيها طالب جامعة أو صاحب مزرعة ، فقال : ان المزارع لا تجلب لأصحابها من الخيرات على قدر ما تجلبه المعامل للناس ، ولذلك فان خمسة وعشرين رجلا في المائة هم مزارعون في أميركة ، فقلت له : مالي وللربح ، غايتي في الحياة التمتع من مشاهد الطبيعة !

مالي ولهذه الاستطرادات ، أعود الى « سياتل » هذه المدينة التي تحصّنها جبال شجيرة قد بنيت عليها دور وقصور مطلة على بحيرتين متصلتين بالمحيط الهادئ ، أعود الى هذه المدينة الساكنة على الرغم من شوارعها العظيمة ، فهي تشبه « سان فرنسيسكو » من أكثر الوجوه ، انها بنيت على التلال ولذلك تجد الشوارع تنخفض مرّة وتعلو مرّة ، تقف في بعضها فترى شارعاً تحت أقدامك متصلاً بالبحيرة ، وترى شارعاً فوق رأسك ، فهي فريدة في تركيبها ، كنت أظن أن « سان فرنسيسكو » لا شبيه لها واذا بمدينة « سياتل » تشبهها ، ولكنها لا تجاريها في العظمة ، لا في كبرها ولا في عدد سكانها ، إلا أنها صورتها الصغيرة ، لا أقل ولا أكثر .

واذا التفت النظر فيها الى شيء فقد التفت الى هذا الأثر القائم في أحد شوارعها وهو عبارة عن جدار من مرمر مصقول ، كتبت على وجهه أسماء الجنود الذين قتلوا في الحرب الماضية ، لا تماثيل للقواد ، ولكن التماثيل للذين بفضلهم اشتهر القواد ، وهم الجند .

ولكن أين الجامعة ، لقد وصلت اليها بعد سير قليل ، إنها متصلة بالمدينة ، غير منفصلة عنها مثل كثير من الجامعات ، دخلتها والجو أسود قاتم ، والضباب يملأ السماء والبرد شديد ، والورق يتناثر على الأرض ، فشعرت في هذا الدخول بشيء لم أشعر به في كل الجامعات ، شعرت بهيئة الجامعة وبهيبة العلم ، شعرت بأني طالب بين الطلاب ، لم

أر تلميذة تدخن ولا تلميذة يخاصر ، فالطلاب أكثرهم يسرون وعلى وجوههم أثر التحصيل والجد ، فلا جمال يفتن ، ولا محاسن تشغل ، وليس في الجامعة غابات وحراج وحدائق كبيرة ، ولكن فيها على الأرض بسطا من العشب الأخضر يتخللها الشجر من مكان الى مكان .

ألقيت النظر على بعض الصفوف ، فاذا الطلاب كلهم مصفون الى الأستاذ ، يكتبون عنه ، فلم أر الاهمال الذي تعودت أن أراه ، ولا رأيت الملل .

قل لي ان في هذه الجامعة ثلاثة عشر ألف طالب وخمسةائة طالب ، وهي مشهورة بأمور كثيرة ، منها دراسة الغابات ودراسة لغات الشرق الأقصى وتاريخه وأدبه ، ومشهورة بالتمثيل ، فيها ثلاثة مسارح ، مسرحان في داخلها ومسرح آخر في خارجها وهو باخرة على البحيرة ، يتعلم فيها الطلاب ، وهذا لم أره في جامعة ثانية .

الجامعة للحكومة وفيها متحف يشتمل على آثار الهنود الحمر في ولاية « واشنطن » في القديم .

أمّا طرز المباني فبعضها نمطه إنكليزي محض ، وبعضها يجمع بين النمط الانكليزي والنمط الهندي .

لقد ملأت هذه الجامعة عيني هبةً وهزّت شعوري ، انها تدرّس الغابات وهذا أمر طبيعي ، لأن ولاية « واشنطن » كلها غابات ، وانها تدرّس أمور الشرق الأقصى وهذا طبيعي لأن الشرق الأقصى قبالتها من وراء المحيط الهادى ، وهكذا نجد أن الجامعات تعنى بالأمور التي تحيط بها ، فهي قريبة من الحياة ، متصلة بها .

لم أخرج من هذه الجامعة إلاّ بعد أن اجتمعت الى أستاذ اسمه : Shelmi dine وهو يدرّس التاريخ ، أي تاريخ جزء من الشرق الأدنى ، وقد سألني عن زميلي في كلية الآداب الدكتور جورج حداد

وأعطاني نسخة كتاب هذا الزميل الفاضل عن سورية ولبنان ، ثم أعطاني برنامج تدريسه نفسه ، وهو برنامج حافل بأمور العرب ، مثل سيادتهم واستقلالهم ووحدةهم وغير ذلك من الموضوعات التي تهمننا ، حرّف اسمه فقال : اسي شيخ المدينة ! زار مدنا كثيرة في الشرق من جملتها دمشق الشام ، فقد زارها سنة ١٩٣٠ ولكن الفرنسيين منعوه عن الاتصال بأحد من الرجال ، ثم هنأني بالتخلص منهم •

شاء هذا الأستاذ أن يكون حديثنا عن شيء من السياسة ، سألني رأيي في قضية فلسطين ، قال : اني عدو اليهود ، واني أسمع تناقضات كثيرة في مسألة فلسطين ، فلا أعرف رأي العرب على حقيقة وجهه ، نحن في أميركة نسمع أقوال اليهود وحدهم وهذا غير كاف ، قلت له : ان قضية فلسطين بسيطة جداً ، ومعقدة جداً ، انها بسيطة ، اغتصب اليهود فلسطين اغتصاباً ، فحلّ هذه القضية متوقف على إعادة الحق الى أهله ، انها معقّدة ، احتلّ اليهود فلسطين فيصعب عليهم التخلي عن بلاد اغتصبوها فاحتلّوها ، العرب متشدّدون في المطالبة بحقوقهم واليهود متشدّدون في المطالبة بباطلهم •

خضنا كثيراً في أمور اليهود ، انهم أصحاب تأثير في أميركة ، يؤثرون بجرائدهم ومجلاتهم واذاعاتهم ودور سينماهم ومصارفهم ومعاملهم ، انهم يفهمون العقلية الأميركية فيخاطبون الأميركيين على مقادير عقولهم ، يصورون لهم الباطل في صورة الحق فيقنعونهم بذلك ، أمّا العرب فكأنهم لا أثر لهم في أميركة ، فينبغي لهم أن يجيئوا اليها وينتشروا في آفاقها ، ويتصلوا بصحفها وأنديتها وأساتذتها ورجال سياستها ، وأن يشرحوا للأميركان قضية فلسطين بأسلوب يرضاه الأميركي ولا يستنكره ، الأميركي صاحب عقلية محسوسة لا مجردة ، فهو لا يؤمن إلاّ بالأمر الواقع ، بالأمر الذي تراه عينه وتلمسه يده ،

أمّا اللغة الشعرية فلا محل لها في المخاطبات العامة ، فالعرب مقصّرون في كل هذا المعنى .

قال هذا الأستاذ الفاضل : إنَّ في أميركة كثيراً من أعداء اليهود وقد أخذت القلوب تتحول عنهم قليلاً ، ولكن تأثيرهم لا يزال قوياً ، فمن يومين صرّح الرئيس ايزنهاور بأنه سيقطع الاعانات عن اسرائيل ، ولكنه ما لبث أن نقض تصريحه بعد يومين لضغط اليهود الشديد ، فالمسألة مسألة زمن ، وأرجو أن لا تضيق صدور العرب عن الأميركان الذين يحبّون الصراحة وحرية القول ، فقلت له : ان العرب ضعفت ثقّتهم بالأميركان وضعفت ثقّتهم بهيئة الأمم المتحدة وبمجلس الأمن ، تحاول أميركة في هذه الأيام أن تحوّل سياستها عن المحيط الأطلنطي الى المحيط الهادى لتقرب من الشرق كله على اختلاف أقسامه ، ولتكون أقوى صلة به ، فجدير بها أن تجيء بالبراهين على إنصافها وأن تعمل بوصية جورج واشنطن الذي كان ينصح للأميركة أن لا تفضل في سياستها الخارجية دولة على دولة .

هذا بوجه التقريب ما دار من الأحاديث بيني وبين « شيخ المدينة » ولما ودعته وحاولت الانصراف أعطاني كتاباً عن الصليبيين للاطلاع عليه ، صاحبه عزيز عطية ، ففتحت الكتاب ووقع نظري على قصيدة فرنسية لشاعر فرنسي من أيام الصليبيين اسمه : Eustache Deschamps وفيها بيتان يحث فيهما الشاعر قومه على جمع الكلمة وتأليف القلوب لانتقاد الأرض المقدسة ، فقلت للأستاذ : اقرأ هذين البيتين ، اقرأهما في الليل والنهار ، لأنكم معاشر النصارى أولى بانتقاد الأرض المقدسة .

نزّهة .

تعرفت الى أستاذ آخر في هذه الجامعة وهو روسي من الروس الببيض اسمه : Ivar Spector ، وقد أهدى إليّ كتابه : العصر

الذهبي في الأدب الروسي *

دعاني هذا الأستاذ الكريم الى غداء في مطعم قريب من الجامعة ، ثم دعاني الى نزهة في ضواحي « سياتل » جاءت زوجته بالسيارة وهي من الكندا وانطلقت بنا نحو ضاحية مرتفعة ، لقد اشترى الأستاذ « سبكتور » قطعة أرض في هذه الضاحية تطل على البحيرة ، وهو مفتون بها ، مفتون بموقعها وبجودة الهواء فيها ، ففي رأيه أن « الروماتزم » يشفى في دقيقة في هذه البقعة ! لا شك في أن الضاحية موقعها من أحسن المواقع ، أمّا أن يشفى « الروماتزم » في دقيقة ، فهذا موضوع آخر ، فقد خرجت من « بركلي » المبللة برطوبة الغيم ، ثم دخلت « سياتل » التي لا تقل عنها رطوبة ، فتحرك « الروماتزم » في جزء من بدني ، فلم تشفه ضاحية الأستاذ « سبكتور » . قلت للأستاذ : لماذا لا تبني دارك على هذه الأرض من اليوم ، قال : اني عملت في الجامعة كل هذه السنين حتى استطعت أن أشتري الأرض التي تراها ، فمن أين لي تكاليف البناء ، الحقيقة ان رواتب أساتذة الجامعات قليلة بالنسبة الى تكاليف الحياة في أميركة ، وقد سمعت شكاوى كثير من الأساتذة في هذا المعنى ، فقد سألت الأستاذ « شيخ المدينة » أن يزور دمشق ، فقال : من أين لي نفقات السفر ، ثم شكّا إليّ رئيس جامعة قلة راتبه وغلاء الأسعار ، وأنا أعرف فتاة تعلم الأدب الانكليزي في إحدى الجامعات وراتبها أقل من مائة دولار في الشهر . أمّا الأساتذة الذين لا بأس برواتبهم في الجامعات فهم أساتذة قسم من العلوم ، لأن هذه الطبقة تستطيع أن تجد لها أعمالاً ثانية في غير الجامعة ، فالمهندسون وأساتذة الكهرباء والكيمياء وما شابه ذلك لا يشكون قلة الرواتب ، أمّا أساتذة الأدب أو التاريخ أو

الفلسفة أو الجغرافية فان رواتبهم قليلة جدا بالنسبة الى الحياة في
أميركة ، وما أظن أن هذه الرواتب تزيد عن أربعمائة دولار في الشهر
أو خمسمائة وهو الحد الأعلى •

اني لم أرم في هذه السطور الى وصف النزهة وانما رميت الى
التنبيه على قلة الرواتب في جامعات أميركة •

سولت ليك سيتي SALT LAKE CITY

١٠ تشرين الثاني ١٩٥٢

خرجت من « سياتل » وقد أزعجتني رطوبة هوائها ورطوبة هواء « بركلي » من قبلها حتى اشتدَّ عليَّ ألم الأعصاب ، فلما وصلت الى « سولت ليك سيتي » بعد صحراوات قطعتها شعرت بأن لهذه المدينة فتنة خاصة ، فقد دخلتها في الليل ، فأول ما أخذ نظري كنائس متلاثة وقد آثرت النوم على السهر من التعب .

جلت في الصباح في المدينة وأطرافها ، وإذا أنا في مدينة تشبه في وضعها مدينة دمشق من كثير من الوجوه ، فيها أحياء مرتفعة تحديق بها جبال جرد رابعة ، تشبه هذه الأحياء حي المهاجرين في دمشق ، ومن تحتها المدينة نفسها ، ومن وراء هذه المدينة سهول منبسطة ، اني في صحراء تنتهي الى جبال • قيل لي ان المدينة ترتفع عن البحر مقدار ألف متر وخمسمائة متر ، حقاً ان هواءها جاف جداً ، وقلما تجد في أميركة مدينة من هذا الوضع ، فقد مررت بمدن سابعة في الصحراء ولكن ليس لها فتنة مدينة « البحيرة المالحة » انك لا تكاد تجد في أميركة مدينة تحديق بها جبال جرد ، فهي بلاد الغابات والحراج والجبال الخضر • ان جمال « سولت ليك سيتي » لا يتجلى إلا في الليل ، فاذا خرج الانسان الى أحيائها المرتفعة الواقعة على سفح جبال جبارة ، وسرح طرفه في المدينة من رأس هذه الأحياء وقع هذا الطرف على

الأنوار الساطعة وعلى الشوارع الطويلة العريضة ، وتذكر بيت
البحثري الذي تكاد القصور اللامعة فيه تضيء الظلام للساري ، يشعر
المرء في مثل هذه المناظر بشيء لا يسهل عليه التعبير عنه ، هذا الشيء
انما هو سحر المنظر الذي يغلب على شعوره وتفكيره ، فينقاد الى هذا
السحر غير مبال بشعور أو بتفكير .

هذا قليل من خصائص مدينة « البحيرة المألحة » ولهذه المدينة
الفتانة شيء خاص تجده في جمال فتياتها وفي مركزها الحربي ومركزها
الديني ، أمّا جمال الفتيات فقد ظهر في أعياد الجامعة ولا سيما في
مهرجان لعبة الكرة ، وأمّا مركزها الحربي فهي واقعة في وسط أميركة
بوجه التقريب ، ومنها تتشعب الخطوط العسكرية الى نواحي أميركة
كلها .

ولكن هذا كله لا شأن له ، أمّا الشأن كل الشأن في مركزها
الديني ، انها قبل كل شيء عاصمة ولاية « يوتا » ودار الحكومة فيها
آية من آيات العمران ، كلها من المرمم وقبتها من أروع القباب ، وعلى
القبة صورة الطير : « أبو سعد » وقصة هذا الطير ان « المرمون » لما
دخلوا المدينة وزرعوا أرضها أكل الجراد زرعهم ، فصلوا ، فأرسل الله
اليهم « أبا سعد » فأكل الجراد كله ، فحرموا صيد هذا الطير ،
وخلّدوا ذكره على قبة دار الحكومة ، والصور الباقية المنتشرة على
أطراف القبة والجدران تمثل انتقال الولاية من طور الى طور ، وفي
وسط دار الحكومة تمثال عظيم لرجل هندي أعان « المرمون » على
فتح المدينة .

اشتهرت « سولت ليك سيتي » بمركزها الديني وبزعتها الدينية،
انها بيئة « المرمون » وقصة هؤلاء المرمون انه من مائة سنة أو أقل أو
أكثر وأنا لا أهتم بهذه التواريخ ظهر أحد الأنبياء المذكورين في التوراة

وهو « مرمون » لرجل من (نيويورك) اسمه : يوسف سميث وقال له : ان في الصحراء بحيرة مالحة ، فازحف اليها ، واجعلها قاعدة لك ولجماعتك ، وأوحى اليه دين المرمون ، فالتف حول سميث جماعة ولما أخذت فكرته تشيع وتقوى قتلته الجباهير واضطهدت الحكومة جماعته ، ففروا الى الصحراء الموعودة ، فمات أكثرهم من البرد والثلج على الطريق ، ولما وصلوا الى سفح الجبال الواقعة تحتها مدينة البحيرة المالحة ظهرت البحيرة ، فقال لهم رفيق سميث الذي زحف بالجماعة : هذا هو المكان الموعود ! فنصب لهذا القائد واسمه : « Young » تمثال في سفح الجبال في أعلى المدينة وعلى دائرة التمثال جماعته وهم على خيلهم وعجلهم وفي سلاحهم ، وكتبت تحت التمثال هذه العبارة This is the place ومعناها : هذا هو المكان ! وفي أكبر شارع في المدينة ، في شارع يبلغ طوله من دار الحكومة الى أحد الجبال مقدار ثمانية وأربعين ميلا وهو أطول شارع في أميركة نصب لهذا القائد قوس وعليه على ما أظن صورة نسر ، وقد نصب هذا القوس على مقربة من مزارعه القديمة ، من دوره التي جعلت اليوم متاحف .

أمّا « المرمون » فهم نصارى ولكنهم يعتقدون أن الكاثوليك والبروتستان ليسوا نصارى في حقائقهم ، فهم لا يشلون النصرانية على النحو الذي أراده السيد المسيح ، وقد اجتمعت الى رجل من أكابر رجالهم وأخذ يقص عليّ حقيقة معتقداتهم ، وفي جملة ما قال لي : انّا نؤمن بنبيكم محمد ، فقلت له : هل أستطيع اذا رجعت الى بلادي أن أقول لهم هذا القول ، فتردّد حينئذ دقيقة وأخذ يشرح لي معنى ايمانهم بأنبياء الديانات ولا بد لي من أن أعترف في هذا المقام بأن صدري ضاق من الدخول في أمثال هذه الأمور ولكنني أستطيع أن أقول وهو كل ما بقي في ذهني من شرح صاحبنا انهم يقولون بتعدد

الزوجات وقد كان لقائدهم Young عشرون زوجة ، ويتزوج الرجل منهم ثلاث أخوات ويجمع بينهن ، ويتزوج أمًا وبناتها ، وقد كانت الحكومة في الماضي ساكتة عن ذلك ، أمًا اليوم فقد منعت تعدد الزوجات ، فاضطر المرمون الى الاكتفاء بزوج واحدة ، ولكنهم في المبدأ لا يزالون يعتقدون تعدد الزوجات ، معنى هذا أن الحكومة اذا سمحت لهم بهذا المبدأ عادوا اليه ، وقد قرأت مقالا في بعض المجلات الأميركية لرجل مرموني يشرح قصته ويقول : عندي خمس زوجات ، ولماذا يعجب الناس من هذا الأمر ، اذا سألنا كل أميركي عن رأيه في النساء أفلا يشتهي أن يكون عنده أكثر من امرأة !... انهم يهتمون بامر الزواج كثيرا ، فقد وقف شاب منهم على باب هيكلمهم وأخذ يعظ الناس ويحملهم على الزواج بواسطة الكنيسة لأن الزواج المدني كثر فيه الطلاق ، ثم أخذ يتكلم على الزواج في شريعة المرمون ويقول لهم : ان الزواج لا يكون في الدنيا وحدها ولكنه أبدي يمتد الى ما بعد الحياة ، معنى هذا أن الرجل اذا مات فقد تبقى امرأته زوجته بعد موته ، ولما سمعت عجزوز هذا القول استغربته وكادت تشهق ، ثم قالت للخطيب : اذا مات زوجي أفلا يحق لي أن أتزوج بعده ! فارتبك الشاب وتردد قليلا ثم قال : يحق لك ذلك ! وطلق الجمهور يضحكون !

من قواعد المرمون : لا تدخين ولا سكر ولما كان أحدهم يشرح لي هذه القواعد قلت له : ولا نوم ، قال : وكيف ذلك ، قلت : كيف يستطيع الرجل الذي عنده في داره عشرون زوجة أن ينام !

لا أريد أن أدخل في تفاصيل هذا الدين ، فقد ظهرت فيه كتب مفصلة يستطيع الانسان أن يرجع اليها اذا شاء ، ولكنني سمعت أن عددهم في العالم كله أكثر من مليون ، وهم منتشرون في أوروبا كلها ، وفي الشرق الأدنى لهم مبشر ، ومن محاسنهم أنهم أرسلوا الى إخوانهم مساعدات مالية تبلغ تسعة ملايين دولار ، فانهم ينقطعون في الشهر مرة

عن الأكل فيأكلون في النهار مرة واحدة بدلا من ثلاث مرات ، ويرسلون أنسان الأكلتين الى اخوانهم الفقراء ، ولهم معامل ينسجون فيها أنواع الأقمشة ، ويوزعونها على فقرائهم ، ويربون البقر والخنازير ويجمعون اللحوم والألبان ، وعندهم مجففات ولهم مصانع في بعض الولايات تهيء لهم كل حاجاتهم كالصابون والكولونيا وغير ذلك من الضروريات والكماليات ، وقد زرت معملهم الكبير في « سولت ليك سيتي » فضاقت صدري بهذه الزيارة حتى كدت أختنق من رائحة الجبن المخسر المكنوز والبيض المجموع ، وما فرّج عني إلاّ الخروج من هذا المعمل الى نزهة على شواطئ البحيرة المالحة ، وفي جبال النحاس !

هذا بعض الشيء عن المرمون ، فالمدينة نزعتها دينية . في الفندق الذي نزلته وهو أمام هيكلكم إعلان على السفارة نجد فيه :

دعنا في هذا الاسبوع نذهب الى عبادة الله ، والى جانب هذه العبارة عبارة ثانية مأخوذة عن الشرطة السرية وهي :

« تستطيع الأسر الأميركية أن تساعد على الاقلال من الجرائم في أميركة بحثاً أبناءها على الروحانيات .. »

في مدينة « البحيرة المالحة » مستشفى للأمراض النفسية تقوم أميركة في مخابره بتجاربها في هذا الباب .

وفيها جامعة وهي جامعة « يوتا » وفيها البحيرة المالحة وهي تبعد عنها ساعة أو أقل بالسيارة ، ويستطيع الانسان أن يرى قسما منها في النهار اذا صحا الجو ، وذلك من أحد مرتفعات المدينة ، تبلغ مساحة هذه البحيرة خمسين ميلا في ثلاثين ميلا ، وقد ذكر علماء طبقات الأرض أنها كانت من آلاف السنين ممتدة الى المدينة ، أي الى سفح الجبال ، ثم انحسر الماء حتى بلغ مكانه اليوم . وفيها معادن نحاس وذهب واذا قلنا معادن فلا نعني بذلك أن

المعدن مخبوء في أرضه ، فقد زرت معدن النحاس ورأيت العمال كيف يعملون وكيف يستخرجون النحاس من أرضه ، ثم يحولونه الى نحاس مصقول ، والمحل الذي يستخرجون النحاس منه أشبه شيء بمدرج كبير ، وفي قاع المدرج ساحة كبيرة يجمعون منها المعدن ثم ينقلونه على عجال تسير على خطوط من حديد ، يمر القطار من ثفق حتى يصل الى المعمل وقد انتشرت هذه الخطوط على مقاعد المدرج كله ، فعلى كل درج يمر خط من الخطوط وألوان الجبال في هذه البقعة مختلفة ، وقد كانت هذه الجبال في الأصل داخلة في ملك المرمون ، ولكنهم لم يضعوا أيديهم عليها ، وانما اعتنوا بالزراعة ليأكلوا ولم يفتنوا الى الجبال ، فملكها غيرهم لأن المعادن ملك الأفراد لا ملك الحكومة .

جامعة يوتا UTAH

مهرجان الكرة

تختلف جامعة « يوتا » عن غيرها من الجامعات وأعني بهذا الاختلاف وضعها وحدائقها ومداخلها ، فلا تكاد تجد فيها شيئاً من انحدائق الغلب أو الجراج أو الشجر ، ويظهر أنها فقيرة وإن كانت مبانيها لا بأس بها ، فهي واقعة على سفوح جبال جرد ، فيشعر الانسان بأنها جرداء مثل هذه الجبال ، ولكن لهذه الجامعة فضلاً عظيمًا ، فيها شعرت بالحياة الجامعية وبالنشاط الجامعي ، لقد شهدت في هذه الجامعة أربعة مشاهد : مشهد الغناء ومشهد الاستعداد للعب الكرة ومشهد التمثيل ومشهد اللعب نفسه .

أمّا المشهد الأول فقد دعاني اليه أستاذ اللغة الفرنسية وهو شاب من سويسرة الألمانية ، فقد اجتمع في قاعة من قاعات الجامعة في الليل أساتذة اللغات الأجنبية وطلابها كالفرنسية والايطالية وطفقت كل جوقة من الطلاب والطالبات تغني على المسرح أغنية من الأغاني الفرنسية والايطالية ، وأذكر أن من جملة الأغاني الفرنسية : « المارسييز » وأغنية : تحت جسر باريز ، وأغنية السين ، والخريف ، والقبرة ، ثم عرضت مشاهد السينما وهي تمثل جزءاً من البلاد التي يدرس الطلاب لغاتها مثل فرنسا وبلجيكا واطالية .

وأمّا المشاهد الثلاثة فهذه خلاصتها :

إذا أردت أن تعرف اهتمام الأميركان بالرياضة فراقبهم في الجامعة ،
تظهر خصائصهم كلها في الجامعة ، تظهر أخلاقهم وعاداتهم وتقاليدهم
وأمزجتهم وغير ذلك ، وإذا كانت الجامعة صورة الأمة فجامعات أميركة
أنطق صور للأميركان •

طُفت في الليل بجامعة « يوتا » فقد قيل إنها تهيء لعبة الكرة ليوم
السبت الواقع في ١٤ تشرين الثاني • لقد كانت الحياة ظاهرة آثارها
على الجامعة في الليل أكثر من ظهورها في النهار ، فقد انتشر الطلاب
والطالبات في الأزقة الممتدة عليها أنديتهم المختلفة وبيوت جماعاتهم ،
كل طالب يخاصر طالبة وتخاصره ، فتجد الطلاب والطالبات ذاهبين
جائين ، مقبلين مدبرين ، فهم روح هذه الأزقة ، هم مرحها وسرورها ،
ينظرون الى هذه التماثيل والتساوير التي عملها كل ناد على مقدمة
بنائه ، تقع العين في بعض الأحيان على عشر صور ، على أقل أو أكثر ،
صنعها الطلاب والطالبات وجمعوا فيها كل ما يسلكونه من ذوق ومن
إبداع ومن خيال ، صنعوها قبل مهرجان الكرة بأيام استعدادا لهذه
اللعبة •

على أي شيء تدل هذه الصور •
تجري المباراة بين جامعة « يوتا » وبين جامعة « الكولورادو »
وهي ولاية ثانية قريبة منها ، فعلى جامعة « يوتا » أن تخلق صورا
تمثل الخصم في أضعف صورة ، والخصم شعاره كبش أبيض وجامعة
« يوتا » شعارها رجل هندي ، فترى على وجه كل ناد من الأندية
صورة كبيرة من ورق ، وألوانا مختلفة تمثل الرجل الهندي والكبش
الأبيض على أشكال شتى ، صورة تمثله وفي يده مطرقة يهشم بها
رأس الكبش ، وصورة تمثله والرجل الهندي أوقد النار وشوى
الكبش ، وصورة تمثله وقد مدّ السفرة لأكل الكبش ، وصورة تمثله
والكبش بين يديه يشغو من الألم الى غير ذلك من الأشكال التي تشعر

بضعف الخصم وبقوة جامعة « يوتا » ولهذه الصور جائزة تعينها لجنة من الطلاب المحكمين ، تجتمع اللجنة فتحكم لأشد الصور إبداعاً وأسلسها ذوقاً وأروعها فنا .

ترى أزفة الجامعة في هذه الليلة الهائجة المائجة تزخر بحلق الطلاب والطالبات ، كل طالب يرقص مع طالبة ، ثم يؤلف الطلاب دائرة ، كل طالب فيها قابض على خاصرة الطالبة في الرقص ، فيدورون عدة دورات في هذا الرقص .

هذا أكثر ما تصل اليه حرية الطلاب والطالبات في الجامعة ، وهذا أكثر ما يصل اليه الاهتمام بالرياضة ، ولم يكتف الطلاب بهذه المظاهر التي أشرت اليها ولكنهم يجتمعون ليلة المباراة في قاعة ويحضر جمهور كبير من المتفرجين ، فيمثلون على المسرح مشاهد مختلفة تعبر عن المعنى نفسه ، أي عن غلبة جامعة « يوتا » لجامعة « الكولورادو » وتمثل حياة أميركة في بعض نواحيها العامة ، كناحية السكر مثلاً ، ثم تكثر على المسرح مشاهد الرقص على أنواعه ، كالرقص الهندي والرقص الأميركي ، ثم تنطلق الأغاني ، كل هذا والطلاب والطالبات هم الذين يمثلون ويغنون ، ثم تنتخب ملكة الجمال من بين الطالبات لتطوف يوم المباراة على المتفرجين وتحمس اللاعبين ، ولكنك لا تخرج من هذه القاعة بعد ثلاث ساعات إلا وأنت تحس بسيل الأميركي الى الضحك والمرح والنكتة وغير ذلك .

إلا أن روعة المشاهد لا تجدها في الليل وإنما تجدها في صباح المباراة ، ماذا تجد في هذا الصباح ، ترى شوارع المدينة مكتظة بطلاب الجامعة وبعض المدارس ، تراها مكتظة بفرق من ضباط الجامعة الذين تعدهم للجيش وبجوقة الموسيقى وبالبنات والصبيان ، كل هذا تراه على صفوف متتابعة ، ثم تجد لكل كلية شعاراً يجعلونه فوق سيارة ، فتجد مثلاً على سيارة كبشاً أبيض بين يدي رجل هندي ، ثم تجد على

سيارة ثانية طلاباً في ثياب الهنود ، فهم عراة في يوم البرد ، ثم تجد سيارة عليها بنات عاريات السيقان والأذرع والصدور ، يرقصن على السيارة ، ويتمرن على الحركات في الشوارع ، والطبول تدق ورجال الموسيقى يعزفون على حركات البنات ، ثم تجد طائرة على سيارة ، ثم تجد فتيات وقد لبسن ثياب الهنود وهن أجمل فتيات الجامعة •

أمّا فرق الموسيقى ففيها الطالبات والطلاب ولكل فرقة لباس خاص لونه أحمر أو أزرق أو أبيض ، والطالبات لبسن لباس الجند أو القواد •

ثم يطوف حاكم المدينة ورئيس الجامعة على سيارة بشوارع المدينة •

ثم تجد ممثلي أندية الجامعة ، الرؤساء منهم ونواب الرؤساء على سيارة ، ثم تجد مشجعات اللعب على سيارة وهن من طالبات الجامعة الفاتنات ، ثم تجد ملكة الجمال والوصائف بين يديها يطفن على السيارة •
كل هذا تجده في الصباح استعداداً للمباراة •

فاذا أزفت الساعة الثانية بعد الظهر وذهبت الى الملعب ، فما الذي تلقاه بعد كل ما لقيته في الصباح •

الجو مثقل بالغيوم السود ، والهواء مع ذلك جاف ، فاننا في فضاء أجرد والجبال من وراء الملعب ذاهبة في السماء ، رابعة بسوادها ، وعلى رؤوسها قطع من الثلج كأنها النمر في لونها الأبيض ولون الجبال الأسود ، وكأن هذه الجبال أهدت بملعب يسع ثلاثين ألف رجل لتحصنه وقد أحاطت به من ناحية صغيرة شجرات سود من السرو ، فالطبيعة كلها سوداء ، ولكن ما الذي يخفف من كآبتها في هذا النهار ؟ خفف من هذه الكآبة طالبات لبسن ثياباً حمراً وبيضاً وتهيأن لتشجيع اللاعبين من جامعتهم ولنفض الروح فيهم ، وقفن على

جانب من جوانب الملعب يرقصن الرقصات المنسقة على مرأى من اللاعبين والمتفرجين ، والابتسام ملء ثغورهن ، والغنج ملء أجسامهن ولكنه غنج الطبع لا غنج التصنع ، ورجال الموسيقى يعزفون والأطفال والصبيان والشباب والكهول والشيوخ والنساء قد ملأوا المقاعد ، والمناديل تخفق في الفضاء ترحيبا بالناجحين في اللعب وأصوات المتفرجين تشق أعنان السماء ! •

هذا هو المشهد الساحر ، هذا هو المشهد الذي يحرك الصخور ، وكلما نجح طلاب جامعة « يوتا » في اللعب رقصت الطالبات المشجعات رقصة الهنود ، كأنهن طواويس بريشهن المنفوش ، حتى اذا وصلت المباراة الى منتصفها دخلت فرقة الموسيقى الملعب وعددها مائة وعشرون طالبا وطالبة ، وأخذوا يعزفون ويقومون بحركات لا مثيل لها في خفة الأقدام ورشاقتها ، مرة تكون الفرقة على شكل دائرة ، ومرة على شكل مستقيم ، وحيناً على هيئة نصف دائرة وحيناً على هيئة خط منحني ، وقد تكون حركات الطالبات الرشيقة أحلى من اللعبة ذاتها فترى الفرقة تارة يتصل أفرادها ، وتارة ينفصلون ، وحيناً تتدحرج طالبة على الأرض وحيناً تتقلب في الهواء ، وأنغام الموسيقى في هذا المشهد كله تماشي حركات الأقدام ، والأجسام منسجمة منسقة ، ولكن هذه الحركات لم تكن سدى ، فانها مرة تؤلف على أرض الملعب أحرفاً تفصح عن رمز الجامعة ، ومرة تؤلف تاج ملكة الجمال ، وانك كذلك اذ تمرّ ملكة الجمال التي انتخبت في الليل تحيط بها الوصائف على عجلة يجرها حصان ، حركاته متزنة مثل حركات اللاعبات ، ويجري وراء الملكة فارس حركات حصانه في مثل هذا الاتزان ، فتطوف الملكة حول الملعب وتحيي جماهير المتفرجين ويحيونها ، تطوف مرة ومرتين وثلاث مرات والطائرة في السماء تشجع اللاعبين

وتحييهم ، وهي إحدى طائرات الجامعة ، حتى اذا بلغت المباراة منتصفها الأخير سمعت أصوات طالبات المدارس وطلابها تخرق الجو فتموج فيه أصدااء أهائهم المشجعة المحمسة ، ثم يختم هذا كله بنشيد الجامعة ، وهو نشيد مقوٍ منشط ، فترى القوة ماثلة في كل شيء : في طبيعة الجبال ، وفي اللعب ، وفي الحركات ، وفي الرقصات ، وفي نغمات الموسيقى ، وفي النشيد نفسه .

هذه أميركة كلها في هذا اليوم ، هذه تربيتها وأخلاقها وتقاليدها ، هذه صورتها في الجامعة ، في ملاعبها ، وقد تتوقف سمعة الجامعة في بعض الأحيان على نجاحها في اللعب أو على إخفاقها ، أمّا انجاح فيجلب لها الطلاب والطالبات وأمّا الاخفاق فيدفعهم عنها ، ولهذا تجد الجامعة تعنى باللاعبين العناية كلها ، فتنتخبهم من أقوى الطلاب أجساماً وتهتم بغدائهم ، فيتدللون عليها ، وقد تراعيهم في الامتحانات !

احاديث .

لا أجد مندوحة لي عن الشاء على أساتذة جامعة « يوتا » وعلى عميد كلية الآداب فيها ، فقد بلغت عنايتهم بي المبالغ ، زارني العميد في الفندق ساعة وصولي ودعاني الى الغداء في مطعم الجامعة ، ثم دعاني الى شرب الشاي في داره ، وهو إنكليزي الأصل .

لقد تكلمت في جامعة « يوتا » مرتين .

كلفني في المرة الأولى أستاذ الأدب الانكليزي أن أشرح لطلابه أسلوبه في التدريب على الانشاء ، فدخلت على الطلاب وبينت لهم شأن تفسير النص ووضحت لهم طريقتي في هذا التفسير ، وذكرت لهم أن لكل أستاذ طريقة في ذلك ، أستاذ تغلب عليه نزعة النحو والتصريف ، وأستاذ يعنى بالبلاغة ، وأستاذ يهتم بتنسيق الفكر ، ولا شك في أن الطلاب يستفيدون من هذه الطرائق كلها ، فما ينبغي لهم أن يقتصروا

على واحدة منها ، أصل الأمر في التفسير أن يدرك الطالب الفكرة العامة في النص وأجزاء الأفكار التي تحيط بها ، فإذا أدرك هذا الأمر لزمه أن يبحث عن اتصال الأفكار بعضها ببعض ، عن المنطق في تسلسلها ، حتى يهتدي الى موطن الاختلال فيها أو الى موطن الانسجام وعلى هذه الصورة يقوى تفكيره ويصح ، فإذا اهتدى الى اختلال الفكرة في النص أو الى انسجامها انصرف حينئذ الى البحث عن القالب الذي أفرغت فيه هذه الفكرة ، هل استطاع الكاتب أن يلبس فكرته لباساً مناسباً لها لا يزيد عليها ولا ينقص عنها . هذا هو الأسلوب الذي يدرّب الطلاب على الانشاء ، فإذا طالت ممارسة الطالب لامتحان فنون القول ، واهتدى الى محاسن هذه الفنون ومقايحها عرف يومئذ كيف يصوغ فكره وكيف يفصح عن شعوره .

هذه جملة ما قلته للطلاب في باب التدريب على الانشاء ، أمّا التفاصيل فلا أدخل فيها ، ولما انقضت الساعة شكرت لأستاذ الأدب تمهيده السبيل الى الاتصال بطلابه ، ثم ودّعته وانصرفت ، ولكنني لم أنصرف إلا بعد أن ألحّ عليّ الطلاب في سماع الشعر العربي ولم تهمهم صور الشعر وإنما الذي أهمّهم سماع النغمة ، فأشددتهم قصيدتي : نوح العندليب ، مرتين ، ثم أشددتهم أبياتاً مختلفة العروض ، ثم ذكرت لهم كيف تضبط موازين الشعر ، والخلاصة ان الأميركان غريب أمرهم في التطلع الى المعرفة ، فهم يريدون أن يعرفوا كل شيء ، ولكنهم يريدون أن يعرفوا في أسرع وقت ممكن .

ودعاني في المرة الثانية عميد كلية الآداب الى الكلام على التعليم في سورية في جميع مراحلها ، فتكلّمت على درجات التعليم في بلادنا ، وفترت بين برامج الأرياف وبين برامج المدن في بعض الحالات التي تستوجب هذا التفريق ، ثم أشرت الى أزمة المعلمين والأساتذة في الماضي ، حتى كانت وزارة المعارف تضطر الى نقل المعلمين من المدارس

الابتدائية الى المدارس الثانوية ، والى نقل المدرسين من المدارس الثانوية الى الجامعة ، ثم ذكرت أن هذا النقل لم تبق حاجة اليه ، فان دور المعلمين الابتدائية تهيء المعلمين للمدارس الابتدائية ، وان كلية التربية تهيء المدرسين للمدارس الثانوية ، وان الجامعة أصبح فيها عدد لا بأس به من الأساتذة الدكاترة ، وأفضت في الكلام على التدريس في الجامعة .

اليهود في الجامعة .

لما كنت أتكلم على مراحل التعليم في سورية سألتني طالبة هذا السؤال :

ما هي نسبة الأولاد الصغار الذين يذهبون الى المدارس ، نظرت في وجه هذه الطالبة فوجدت أنها لا تشبه الأميركانيات في حال من الأحوال ، أثر العنصر السامي على وجهها ، فقلت لها : هل أنت من إسرائيل ، فضحكت وقالت : نعم ، وكأنها فهمت مقصدي من سؤالي كما فهمت مقصدها من سؤالها ، فقلت : ثقي بأن الأولاد الصغار الذين تسألين عنهم لو كانوا يجدون لهم أماكن كافية في المدارس لملأوا هذه المدارس ، ولكن النسبة ستكون بعد قليل من الزمن مائة طالب وطالبة في المائة ! أي نسبة الأولاد الذين يذهبون الى المدارس ، فابتسمت وقالت لرفيقتها وهي طالبة من طرابلس الشام اسمها نجوى مصطفى السيد : يظهر أن هذا الأستاذ شيطان ، وقد نقلت الي هذا الكلام الآنسة نجوى نفسها .

أفرائنا اهتمام اليهود بكل ناحية من نواحيها ، أفرائنا تتبعهم لأخبارنا ، أفلا نرى أن هذا العدو مخيف ! .

أديبة أميركية .

لما فرغت من الكلام على تفسير النص والتدريب على الانشاء وخرجت من صف الطلاب لحقتني طالبة أميركية وعرفتني الى نفسها وسألتني : هل في الامكان أن تجد لها عملا في الجامعة السورية أو في بعض المدارس ، فقلت لها : ما هو العمل الذي ترغبين فيه ، قالت : تدريس اللغة الانكليزية ، فقلت : سأجتهد بعد رجوعي الى وطني في البحث عن ذلك ، فشكرت لي ودعتني الى نزهة على السيارة ، ثم دعتني الى شرب القهوة في دارها .

تسكن هذه الطالبة هي وأمها داراً مؤلفة من بهو وغرفتين ، فلما زرتها في دارها أهدت اليّ كتاب منتخبات شعرية : أميركة تغني ، وهو مخطوط وقد كتبته بيدها وقالت : لا أملك نسخة ثانية غيره ، ثم عادت الى البحث عن عمل لها في سورية وعدت الى قولي لها اني سأجتهد في البحث عن ذلك . هذه الطالبة من البروتستان وهي متشددة في سيرتها وتبين لي ذلك من سؤالها ، قالت : اذا جئت سورية فهل أستطيع أن أجيء وحدي وأن أسكن وحدي ، قلت لها : اذا كان لك نصيب من المجيء فخير لك أن تأتي أنت وأمك ، ثم عرفتني الى خطيبها وهو طالب في الجامعة ، اجتمعت اليها مرة ثانية وسألتها : هل اعتمدت على خطيبك وهل أحببته ، فقالت : هو يحبني ، أمّا أنا فلا أزال أختبره .

الفتاة الأميركية غير سريعة في عاطفتها ، انها تخالط في أول الأمر كثيرا من الشباب للاعتماد على خطيب ولكنها لاتسرع في الارتباط به ، ويلزم كل فتاة في الصف الأول في الجامعة أن تخالط كثيرا من الشباب ، والفتاة التي تعتزل الشباب يقولون فيها ان بها مرضا نفسيا ، والفتى الذي يبعد عن الفتيات يقولون فيه القول نفسه ، فالمخالطة أمر واجب

في الجامعة وهي تنتهي في أكثر الأحوال بالزواج ، وأصبح الزواج في الجامعة من سن العشرين حتى الثالثة والعشرين .

والفتاة الأميركية بوجه عام غير معقّدة ، فهي لا تنطوي على نفسها وإنما تحب المكاشفة ، لأنها صريحة والانطواء لا يخلو من بعض الخبث ، وإذا تعرفت الى رجل أصبح هذا الرجل واحداً من أهل الدار ، فإن المكاتبات بيني وبين الفتاة الأديبة التي أشرت إليها لم تنقطع ، وإذا كتبت إليّ كتاباً دخلت في تفاصيل حياتها في الدار ، فإذا دعت أحداً الى عشاء أو الى سهرة ذكرت لي ذلك ، ثم ذكرت ألوان الأكل ، ثم أشارت الى الغناء والى الرقص ، وأنا لم أجمع إليها الا ساعة وكان في الدار خطيبها وأمها في الاجتماع ، ومع هذا كله أصبحت وإياها كأن بيننا صداقة من سنين طويلة .

عشاء وسهرة .

في جامعة « يوتا » فتاة من طرابلس الشام اسمها : نجوى مصطفى السيّد ، أرسلتها حكومة لبنان لتدرس التربية ستة أشهر ، وفي هذه الجامعة شاب من طرابلس من أسرة الحفار ، أنهى تحصيله أو كاد ، ولكن قلبه متعلق بمدينة البحيرة المالحة ، فهو لا يحب الرجوع الى وطنه .

الفتاة والشاب من أطيب الناس ، فما قصّرا في وجه من وجوه العناية بي ، رأت الآنسة نجوى أنني سئمت أكل الأميركان فدعّنتني الى عشاء شرقي : دجاج بالرز واللبن ، أتقنت طبخه الاتقان كله ، تقيم هذه الآنسة بدار أسناذ الفلسفة في جامعة « يوتا » الدكتور Hillard ولما تعشينا وشكرنا لصاحبة العشاء وأثينا على مهارتها في فن الطبخ أخذنا في فنون الأحاديث .

إذا كان ليس من الضروري أن يكون أستاذ الفلسفة صاحب مزاج فلسفي فلا بأس بأن يكون له مثل هذا المزاج ، والدكتور

« هيلارد » أستاذ فلسفة وفيلسوف بمزاجه ، بهدوئه وصفاء قلبه وتقواه سريرته ، تمازحه زوجته فلا يغضب ، فقد شكت اليها هذه الزوجة الفاضلة أمرها ، قالت : ان زوجي ملاً البهو العام كتباً حتى ضجرت من رؤية الكتب ، وعلى الرغم من ذلك انه في عيد الميلاد أو عيد رأس السنة لا يهدي اليّ إلاّ كتاباً ، فقلت لها : الأمر هيّن ، عامله المعاملة نفسها ، أهدي اليه مسطرة ونشّافة ! قالت : اذا فرغ أولادنا من العشاء جلس الى مهودهم وقرأ لهم بعض أوراق من كتاب مقدار نصف ساعة ، فاذا تمت القراءة جاء اليّ وأنا على السرير وقرأ لي أوراقاً من كتاب مقدار نصف ساعة ، فأحمد الله على أن الآنسة نجوى دعتكم هذه الليلة الى العشاء ، فنجأ الأولاد من القراءة ونجوت أنا أيضاً .

قضينا ساعتين في السهرة ونحن نخوض في أحاديث شتى ، قال الدكتور « هيلارد » : اني نعمت بكم هذه الليلة لأن الأميركان لم يتعودوا هذا النوع من السهر وهذا النحو من الأحاديث ، لقد كانت أحاديثنا متصلة بشيء من الأدب والفلسفة والاجتماع ، ولهذا سمى الاستاذ بذلك كل السرور ، وظهرت آثار السرور عليه ، فان الحياة الاجتماعية في أميركة ضعيفة جدا ، فالتناس لا يتفرغون للناس ، وانما همّهم عملهم قبل كل شيء ، وقد أحببت أن أعرف رأي الأستاذ في هذه الحياة الاجتماعية ، فسألته عنها ، فقال : ان الأميركان لا يعرفون هذه الحياة ، أفلا تجد أن أبناءهم يتركون دورهم ويلعبون في ساحة الحيّ ، رمى الأستاذ في كلامه هذا الى ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية ورميت الى ناحية ثانية ، فقد قصدت بكلامي أن الأميركان لا يذوقون لذة الاجتماع في الدار ، اجتماع الرجل والمرأة والولد في المساء ، ولا سيما في ليالي الشتاء حيث تحلو الأحاديث قبل النوم ، ويتمتع الأهل من نعمة الولد ، ويتمتع الولد من لذة الأهل .

كره اليهود .

لا أشك في أن الأميركان يكرهون اليهود ، ولكنهم في الوقت نفسه يخشون سلطانهم ، فقد اجتمعت مرة الى قيم مكتبة أميركي ، فأخذ يقص عليّ أخبار المشرف على المكتبة وهو أستاذ يهودي ، ومن جملة ما قاله لي : انه كان يمنع القيم عن شراء كتب تتصل بالاسلام والعرب ، ولكنه كيف كان يقول لي ذلك ، انه كان يلتفت الى اليمين والى الشمال خوفا من أن يسمع كلامه أحد من اليهود ، ولست أعتقد أنه كان الى جنبه أحد منهم ، ولكن الحذر مسيطر عليه في هذا المعنى، ثم كيف يقص عليّ أخبار هذا اليهودي ، انه كان يهمس همسا .

وقد زرت في مدينة « سولت ليك سيتي » صحيفة سميت باسم المدينة نفسها ، فقابلت رئيس التحرير ، فأحب أن ينشر حديثا غني ، فاستأذنتني في ذلك ، ثم طرح عليّ هذا السؤال : ألا تعتقد أن اليهود سوّدوا وجه أميركة في الشرق ، ان هذا الصحفي ماهر في صنعته ، انه لم يقل لي : ما رأيك في وضع أميركة بالنسبة الى اليهود ، ولكنه أوحى اليّ سوء تأثير اليهود في سمعة أميركة اىحاء بارعا ، وجرّني الى هذا الموضوع جرأ لطيفا ، وقد استنتجت من ذلك أنه يكره اليهود ، انه يعيش في بيئة تغلب على أهلها نزعة دينية ، وما أظن أن لليهود فيها أثرا قويا ، فجوابته عن سؤاله وكان جوابي من روح سؤاله ، ونشر حديثي في صحيفته وجاءت فيه هذه العبارة : وصف عميد كلية الآداب في الجامعة السورية سياسة أميركة في فلسطين فقال : ان هذه السياسة سوّدت صحائفها البيض في الشرق الأدنى .

لا أشك في أن الأميركان يكرهون اليهود ، واني أشعر شعورا شديدا بأنه سيأتي يوم يصيب اليهود فيه ما أصابهم في ألمانيا على يد « هتلر » لأن ثقل ظلهم في الولايات المتحدة لا يطاق .

١٦ تشرين الثاني ١٩٥٣

لا أدري لماذا أحبوا أن أزور « دنفر » فلم أجد فيها شيئاً يستهويني على شهرتها من بعض الوجوه ، فقد قيل لي انها مشهورة بطبع النقود ، ما لي وللنقود ، لقد هجم الشتاء عليّ في « دنفر » ، فسرعت أشعر بشيء من انقباض الصدر ، وكأني أخذت أمل من طول الرحلة ، فلم يكن لهذه المدينة نصيب من قلبي ، ويظهر أن الفندق الذي نزلت به انما هو فندق الدراويش ، فلم أجد فيه راكباً ولم أجد فيه خادماً ، فصاحبه هو الذي يحمل عياب المسافرين وينقلها . أمّا الجامعة فقد طفت حولها على سيارة دقيقة أو دقيقتين وكان معي جماعة من فلسطين يقيمون بدنفر ، فلم تبق في ذهني منها الا صورة كئيبة ، ولا أذكر أنني في هاتين الدقيقتين رأيت طالباً أو طالبة أو أستاذاً أو حديقة أو شجرة ، وكان الوقت بعد العصر ، وأظن أن الانسان اذا ضاق صدره من أمر ضاق صدره من كل الأمور التي تحيط به ، ومن يدري فقد تكون هذه الجامعة لا بأس بها ، ولكني لما كنت ضيق الخلق وجدت فيها كل البأس ، فالذنب ليس بذنب الجامعة ، وانما هو ذنب مزاجي الذي كنت عليه في تلك الزيارة .

فأنا لم أدون شيئاً عن مدينة « دنفر » ولا عن جامعتها ولكني لم أخرج منها من دون أثر ، فقد رأيت فيها صورة دمشق ، وكيف ذلك ،

استقبلني في الفندق جماعة من فلسطين وعلى رأسهم تاجر اسمه موسى اسماعيل ، احتفوا بي كل الاحتفاء ودعاني السيد موسى الى الغداء والى السهرة في داره ، وهو من قرية على مقربة من أريحا ، اسمها : دير دوان ، وزارني رجل من الأميركان آدمي أسلم من سنين وسمى نفسه : عبد الله ، فزدت على هذا الاسم لقب الشيخ وسميته : الشيخ عبد الله ، ودرج هذا الاسم بين إخوانه المسلمين ، ولم أعرف رجلا أطيب قلبا من الشيخ عبد الله ، يبلغ من العمر سبعين سنة أو أقل ، وهو مصاب بلجلجة في لسانه ، فاذا نطق ترددت الحروف في فمه ، فتعذر عليه النطق إلا بعد حين . دعاني الشيخ الى العشاء في مطعم فرنسي ، ولا حاجة بي الى التنويه بالمطاعم الفرنسية مرة ثانية ، فالأميركان يتزاحمون عليها وهي قليلة .

أعود الى دعوة السيد موسى اسماعيل وقبل أن أخوض في شيء من الكلام على السهرة في داره لا بأس بأن أذكر أن هذا الرجل الفاضل يفرج غم كثير من الطلاب الشرقيين ، فقد تضيق ببعضهم الحال في آخر الشهر ، فيدينهم ، وقد تقع له مشكلات مع طائفة منهم في هذا الدين ، فتحلها المحاكم ، ومن غريب الاتفاق أنه ذكر لي اسم صحفي من دمشق وهو صديقي ، أخذ منه في « دنقر » خمسين دولارا ولكنه ما لبث أن أعادها اليه بعد وصوله الى « نيويورك » فحمدت الله على أن هذا الصديق لم يسود وجوهنا في أميركة .

ذهبت الى دار السيد موسى اسماعيل في النهار ، وذهبت اليها في الليل ، واذا السجّاد العجبي مسدود على الأرض واذا أصوات محمد عبد الوهاب وأغاني لبنان تدوي في البهو ، واذا الأركيلة والتنباك العجبي ، وأبو داود صاحب الدار يسألني : هل تدخن ، وقد كنت استرحت من الأركيلة طول إقامتي بأميركة ، ولكن النفس أمّارة

بالسوء ، ففطن أبو داود الى أنني من جماعة الأركيلة ، فهيأها بيده ، وأوقد الفحم ، وجاءني بها .

في دقيقتين شعرت بأني في دمشق ، فقد دار الكلام وتساقطنا الأحاديث وموضوعها قضية فلسطين مرة ، وتناحر العرب مرة ، وفلان طيب ، وفلان غير طيب ، وما شابه ذلك ، في دقيقتين شعرت بأني في مقهى من مقاهي دمشق التي ألفتها مقدار أربعين سنة ، أضيع فيه الوقت ، لا بل أقتله قتلا ، لأن الوقت لا قيمة له في نظرنا .

خرجت من دار صاحبنا أبي داود وهو رجل كريم النفس ، لا يزال يتكلم بالعربية ولكن زوجته فارسية الأصل لا تعرف غير الانكليزية ، وابنه داود لا يعرف العربية ، خرجت من عند أبي داود فازدحمت الخواطر على ذهني ، وأخذت أقابل بين طرز حياتنا وبين طرز حياتهم في أميركة ، وأنا لا أحب المقابلات ولا المقاييسات ولا الاستنتاجات ، فاني لست من علماء الاجتماع ولا أذكر أنني في هذه الخواطر التي دوّنتها في رحلتي لجأت الى شيء من هذه المقابلات وأشباهها ، ولكنني هذه المرة أحببت المقابلة ، قلت في نفسي : ما أعظم الفرق بين ميلنا وبين ميلهم الى العمل ، اني لا أريد أن أظلم أحدا ، فأنا أتكلم على نفسي ، فقد قضيت أربعين سنة في الذهاب الى المقاهي ، كل مرة أصرف في المقهى ثلاث ساعات أو أربع ساعات ، وفي بعض الأحيان خمس ساعات ، بين أركيلة أجدّد نارها ، وماء أطلب زيادة ثلجه ، وقهوة أوعز باكثار الهيل فيها ، ونرد يساعدني الزهر فيه حيناً ويعاكسني حيناً ، لقد قضيت أربعين سنة على هذا الشكل .

أمّا الأميركي فانه مفتون بالعمل ، انه يعبد إله هذا العصر وهو العمل ، وقد أصبحت هذه العبادة من ضرورات الأيام التي نعيش فيها ، وأميركة تشعر بهذه الضرورات أكثر من كل أمة ، وهذا الشعور انما هو السر في نجاحها ، فالأميركي لا يستطيع أن يعيش بلا عمل ، واذا

عاشت أميركة بلا عمل أصبحت ميدان البطالة ، وأعني بذلك ميدان المستأين والفقراء ، وسلام حينئذ على ثروة أميركة ، سلام على ازدهارها ، سلام على عظمتها . يعرف الأميركان هذه الأمور كلها ، ويشعرون بها ولذلك نجدهم يعملون في الليل والنهار ، انهم لا يقضون أوقاتهم في المقاهي أو على الأرصفة ، ولا يزورون بحيراتهم وجبالهم وشلالاتهم وأوديتهم إلا نادرة .

لا بد لي في هذا الباب من خاطر خطر ، اني أرى أن هذا الأسلوب من الحياة متعبة للانسان ، ففي حياة الأميركان كثير من الجهد ، فالأميركان يعيشون ليعملوا ، انهم لا يعرفون اللذة والراحة ولا يزورون الأرياف إلا قليلا ، ولا ريب في أن هذه الطريقة من العيشة تجهد الأعصاب ، لقد أولعنا في الشرق بالميل الى الراحة وأولعوا في أميركة بالميل الى العمل ، ولكن بين هذين النمطين من الحياة حدًا وسطا .

قليل من العمل ، قليل من الراحة ، هذه هي الحياة !

مائة وخمسون خطبة .

من الجماعة الذين زاروني في « دتفر » رجل اسمه : خميس ، وهو من فلسطين ، ألح عليّ في زيارة دكانه ، فذهبت الى الدكان ، عنده ثياب للنساء والرجال ولكنها من نوع وسط أو أقل ، فلم أجد على الدكان آثار النعم ، فسكت قليلا وقلت في نفسي : ان هذا الرجل غير ناجح في عمله ، واني لكذلك إذ أخرج من دفتره ورقة كتبت عليها أسماء كثير من رجالات دمشق ، فعلمت أن صاحبا من البنائين الأحرار ، أخذ يذكر لي مكاتبتهم لهم ومكاتبتهم له ، وقد اشتد بي الميل الى معرفة ما جناه في أميركة ، ولكني لم أجد الفرصة حتى دخل بي

آخر الدكان ، وفتح باباً صغيراً ، فوجدت وراء الباب طنجرة على النار ، فقلت للسيد خميس : ما هذا ، قال : مجدرة أطبخها بنفسى ، ثم وجدت دفتين من خشب عليهما لحاف ، فقلت : ما هذا ، قال : تختى ، ثم وجدت حفرة ، فقلت : ما هذا ، قال : مغسلة ، فالسيد خميس يأكل وينام ويستحمّ ويقضى حاجته في الدكان ، فاغتيمت الفرصة وسألته : متى جئت أميركة ، قال : من خمس وأربعين سنة ، قلت : أجئت أميركة لتأكل فيها المجدرة بعد خمس وأربعين سنة ولتنام هذه النومة اليابسة ولتعيش هذه العيشة الخشنة ، أفلا كنت تستطيع أن تجد هذا كله في قريتك في فلسطين ، وأنت في وطنك ، ما لك وللغربة ، قال : ولكنى في هذه الخمس والأربعين سنة خطبت مائة وخمسين خطبة في المحافل ، قلت : وكم خطبة خطب صاحبك السيد موسى اسماعيل ، قال : انه لا يقرأ ولا يكتب ، قلت : انظر الى الذي لا يقرأ ولا يكتب ، أن له داراً من أحسن الدور ، وزوجة من أصلح الزوجات ، وولداً من أنه الأولاد ، وسيارة من أفخم السيارات ، وتجارة من أوسع التجارات ، أمّا الذي يقرأ ويكتب ويخطب في خلال خمس وأربعين سنة مائة وخمسين خطبة فقد عاش على المجدرة !

سانت لويس ST. LOUIS

١٨ تشرين الثاني ١٩٥٣

رقص القروود .

هذه آخر مدينة زرتها في أميركة في رحلتي الأولى ، أقمت بها يوماً ، ثم ركبت منها الطائرة الى « نيويورك » لقد شبت من كل شيء ، شبت من الفرجة والنزهة والجامعة ، فمتى يأت وقت الرجوع الى الوطن لم تبق حاجة لنفسي إلا قضيتها ، لم أدر ماذا أصنع في « سان لويس » قيل لي : ان فيها نهراً عظيماً وهو « الميسيسيبي » فانحدرت اليه وهو على بضع خطى من الفندق ، فلم أجد فيه شيئاً عظيماً ، وان الذي يعرف النيل في القاهرة أو دجلة في بغداد لا يستعظم نهر « سان لويس » ، فوقع في خلدي أن أركب السيارة العامة وأن أطوف بالبلد على سبيل الفرجة ، ففعلت ، فلم أهتد الى شيء جديد يسليني ، فأكثر الدور في أميركة متشابهة ، وأكثر المدن متماثلة في شوارعها . ولكنني لم أغادر « سان لويس » دون طرفة من الطرف ، جلت قليلاً في بعض أسواق المدينة ، وقد أخذت أميركة بأجمعها تستعد لعيد الميلاد ، فوقعت عيني في مخزن من المخازن على صورة من أغرب الصور ، صورة جوقة تعزف بأنواع المعازف ، من هم العازفون وما هي المعازف ، هذا موضع الاستغراب .

تتألف الجوقة من خمسة أو ستة قروود ، من ورق أو من خشب

أو من حديد لا أدري ، كل قرد ومعزفه بيده ، وقد انتصبت القروود على أقدامها ، هذا عوده بيده ، وهذا طنْبوره بيده وهذا يعزف بالبيانو ، وهذا بالكمنجا ، ورئيس الجوقة يشير بعصا في يده حتى لا تختل الأنغام ، وحتى تتناسق الأصوات ، فإذا جاء وقت الرقص رقصت الجوقة على أنغام الموسيقى فتحرّكت أقدام القروود وهي لم تشعر بحركاتها ، ولا إرادة لها في مثل هذه الحركات ، رجل تتأخّر ورجل تتقدم ، كتف يميل ذات اليمين وكتف ذات الشمال ، وبطن ينتفخ ثم يغور وظهر يغور ثم ينتفخ ، ووجه يتسم ووجه يعبس ، وغير ذلك من الحركات والاشارات ، والجوقة كلها تتحرك وتسكن بزر تضغط به الكهرباء ، فالحركات والسكنات والاشارات والاتفاخات والرقصات والنعجات ، كل هذا ابن الآلة وحدها ، فالآلة في أميركة غلبت على كل شيء ، غلبت على المزارع والمعامل وعلى نواحي الحياة بحذافيرها ، حتى أثرت هذه الآلة في التفكير نفسه ، فكأن الأميركي مستعد لأن يركزوا الأفكار في ذهنه بواسطة آلة من الآلات حتى لا تبقى به حاجة الى التفكير ، ومن يدري ، فقد يأتي يوم لا يفكر فيه بعقله ولا يشعر فيه بقلبه ، وانما تنقل اليه هذا التفكير وهذا الشعور آلة من الآلات ، واذا اهتدى الخيال الأميركي الى اختراع آلة ترقص القروود بها وتغني وهي لا تشعر بهذا الرقص وبهذا الغناء أفلا يستطيع هذا الخيال العجيب أن يخترع آلة يفكر الرجال بها ويشعرون وهم لا علم لهم بهذا التفكير وبهذا الشعور !

• صورتان .

تفنت أميركة في الاعلانات ، وما أظن أن أمة من الأمم بلغت في هذا الفن ما بلغته .

وجدت في سيارة من السيارات العامة صورتين :

تمثل الصورة الأولى « كوريا » وقد تهدمت دورها ، واحترقت
أبنيتها ، فلمست ترى فيها إلا سقفا فوق سقف أو عموداً فوق عمود ،
أو درجاً فوق درج ، والدخان في هذا كله متطاير قد عمّ الأتقاض
بأجمعها ، وبين هذه الدور المتهدمة والأبنية المحترقة طفل صغير تجري
الدموع على خديه ، لا أهل له يؤنسونه ، ولا دار تأويه ، يكاد القلب
يتفطر من رؤيته ، وفي أسفل هذه الصورة كتبت العبارة الآتية : أيها
الأميركي ! إن أردت أن لا يصاب وطنك وبلدك ودارك وطفلك بمثل
ما أصيبت به كوريا فأكثر من الانتاج .

وتمثل الصورة الثانية جسراً كبيراً وقد وقف على طرفه جندي
من الروس وفي يده بندقية ، ووقف على الطرف الآخر رجل أميركي
بقول لرفقائه الأميركيين : إذا أردتم أن لا يصل هذا العدو اليكم
فأكثروا من الانتاج .

تستنهض أميركة رجالها للانتاج بمثل هذه الاعلانات التي تفنتت
فيها ، فهي لا تميل الى العمل لمجرد العمل وحده وانما تجد فيه
حياتها ، فهي تعتقد أنها اذا قلّ انتاجها قلّت عظمتها في العالم ، وضعف
سلطانها ، ولذلك نجد الأميركيين كما قلت في أحد خواطري يعبدون
العمل عبادة ، مهما يكن في هذه العبادة من جهد وإرهاق .

غول الأميركيين .

غول الأميركيين في هذا العصر الروس ، ومن معاني الغول الشيطان
الذي يأكل الناس ، فترى الأميركيين يبحثون عن كل ناحية من نواحي
هذا الشيطان الذي أقصّ عليهم مضاجعهم ، من جملة هذه النواحي
صورة غريبة وجدتها في إحدى المجلات الأميركية ، وقد كتبت تحت
الصورة العبارة الآتية : الناس في روسية القديمة يعيشون ليأكلوا
والناس في روسية الحراء يأكلون ليعيشوا ، وأظن أن القارئ أدرك
الفرق بين هذين النمطين من العيشة ، قسمت الصورة قسمين : قسم

يمثل روسية البيضاء وقسم يمثل روسية الحمراء ، أمّا الناس في روسية البيضاء وكلهم من عليّة القوم وعلى رأسهم القيصر نفسه فانهم يأكلون في أواني فضة وذهب ، ولكنهم كيف يأكلون ، فرى أحدهم وقد تناول الحلواء بيده وأخذ يتلمظ وكأنه قد شعر بهذه العيشة الواسعة التي يعيشها ، وأمّا الناس في روسية الحمراء فقد جلسوا على السفرة وآثار الكآبة بادية على وجوههم ، وقد أخذوا يحسون المرق وكأنما همّهم الوحيد أن يملأوا المعد من الجوع •

لا ريب في أن أميركة تشعر بعيشتها اللينة الناعمة ، فلا يكاد الانسان يجد فرقا عظيما بين عيشة الأغنياء وبين عيشة العمال ، فالعامل قد يستطيع أن يحصل على كل شيء ، يستطيع أن يحصل على سيارته وعلى مطبخه الحديث وعلى المسخّنات والمبرّدات في داره ، وإذا عجز عن العمل في شيخوخته فالحكومة تقوم بأوده ، انه لا يملك ما يملكه الغني ، فليس له شيء من العمل الذي يعمل فيه ، ما خلا أجرته ولا يسكن قصرا مثل القصر الذي يسكنه صاحب العمل ، ولكنه يعيش العيشة الطيبة التي لا فقر فيها ولا جوع ، هذا ما رأيته بوجه عام ، وأنا لم أذهب الى أميركة من أجل الاستقصاء ، فقد يشذ بعض العمال أو الفقراء عن هذه القاعدة ، ولكن الحياة العامة إنما هي حياة واسعة ولا ريب •

هذه هي العيشة الراضية التي يفتخر بها الأميركيان ، وهي التي توحى اليهم أن يسخروا من روسية الحمراء ولكن لي رأيا في هذا الموضوع ، فقد تعودت أميركة هذا النمط من الرفاهية ، وما أظنها تعودت شيئا من الخشونة ، فإذا أصيبت في يوم من الأيام بصيبة عامة ، اذا وقعت في بلادها أزمة شديدة أو حدثت حرب أشدّ فهل تدوم هذه الرفاهية وهل يسهل على الناس أن يخشوشنوا وقد ألفوا العيشة الناعمة •

لا أعلم هل نظرت أميركة في عاقبة هذا الأمر من اليوم •

نيويورك NEW YORK

كثيراً ما دخل عليّ الوهم في زيارة المدن الكبيرة ، قد يكون لهذه المدن في ذهني صورة من الصور ، فإذا دخلتها انقلبت هذه الصورة ، فرأيت غير ما كنت أتصور ، ولا تنقص هذه الحال شيئاً من عظمة المدن أو من خصائصها ، فإن مدينة نيويورك لم يكن لها في ذهني هذه الصورة التي رأيتها عليها ، كنت أتصور بحسب ما كنت أسمع من الذين يعرفونها أن أبنيتها تصل الى السماء واني اذا أردت أن أرى آخر طاق من طيقان هذه الأبنية عجزت عن ذلك مهما يبلغ من رفع رأسي إليها وكنت أظن أن شوارعها بلغت من العظمة مبلغاً لا أستطيع وصفه ، وما علي اذا قلت اني كنت أتوهم أن ناسها لا يشبهون غير ناس ، وأن أبنيتها لا تشبه غير أبنية ، وأن شوارعها لا تماثل غير شوارع ، وما أريد في قلبي هذا أن أخفض من قدرها وانما أريد أن أعبر عن حالة نفسية تعتريني في أول زيارتي للمدن الكبيرة كمدينة باريز أو نيويورك ، ولكن هذه الحال لا تلبث أن تزول ، فيعود الذهن الى طبيعته فيرى الأشياء على حقائق صورها ، فكأن حجاباً يلقي على هذا الذهن قبل الحال التي أشرت إليها ، ثم يرفع الحجاب عنه ، فيحكم على الأمور بحسب مقاديرها •

دخلت نيويورك في المرة الأولى ، فلم يشغل ذهني شيء منها وانما كان هذا الذهن قلقاً ، مشتتاً ، فلم يستطع أن يحكم على الأمور حكماً

صادقا ، فقضيت فيها ليلة ثم خرجت منها كما دخلت ، ولكنني جئتُها في المرة الثانية وأطلت الاقامة بها ، فجلت في بعض شوارعها ، وزرت بعض آثارها ، ودخلت بعض مخازنها ، فانكشف لي جبروت هذه المدينة ، فرأيت تناقضها ، واذا أحببت أن أجد صفة لها فلا أجد أصدق من هذه الصفة : انها مدينة جبّارة ، فهي نظيفة قدرة ، موحشة مؤنسة ، عظيمة صغيرة ، هادئة صاخبة ، ساكنة متحركة ، تجد فيها كل شيء ، تجد مباني متراكبة يكاد يخفق الرجل في جوها ، وتجد مباني يلعب الهواء في أطرافها ، تجد شوارع أرسطوقراطية يسكنها الموسرون والأغنياء مثل هذه الشوارع الواقعة على مقربة من المتحف ، وتجد شوارع يشيع الفقر في جوانبها ، تمرّ ببعض شوارعها فترى آثار النعم عليها وأعني بهذه النعم الأخذ والعطاء ، ثم تمرّ ببعض شوارعها فترى آثار الشقاوة عليها مثل هذه الشوارع التي استقبلتني قبل وصولي الى حديقة الحيوانات ، فالموت مستول عليها ، على أنبيتها السود الكثيرة ، كيف يتفلسون فيها وكيف يستضيئون ، وعلى أزقتها التي تشبه المقابر في وحشتها ، فأين كآبة هذه الأزقة من بهجة الشارع العظيم : « برودوي » تدخل بعض المطاعم فتجد فيها من نظافتها ما لا تجده في مطاعم أي بلد من البلدان ، ثم تدخل بعض المقاهي في شوارعها السود الحزينة ، فتجد الذباب في كؤوس الشاي ، تجول في بعض أسواقها فتراها هائجة مائجة كأنها البحر الهادر ، أو الريح العاصف ، ثم تبعد الى بعض ضواحيها فترى فيها من الهدوء ما لا يخطر لك على بال ، تشي في بعض شوارعها فتجدها ممتدة امتدادا منسقا ، ثم تدخل هذا الشارع الذي سموه شارع الجدار « ولت ستريت » فتجد الالتفات والتعاريج والمنحنيات والمنعطفات ، انه شارع مخيف ، مخيف بسحن أهله ومعظمهم من اليهود ، مخيف

بأبنيته المرسوسة ، وأغلبها مصارف ، فكأن رأس مال الدنيا كلها في هذا الشارع وكان بأيدي أهله مقادير تجارة العالم بأجمعه .
وسمي شارع الجدار لأنه بني في سنة ١٦٥٠ جدار من الشاطئ الى الشاطئ لحماية المستعمرة الصغيرة التي كان أهلها يعيشون في جنوب هذا الشارع من هجوم الهنود .

لا أدري كيف أصف « نيويورك » ولا أملك من البلاغة ما يعينني على هذا الوصف ، انها متناقضة في كل مظهر من مظاهرها ، فيينا تسمع الناس يقولون لك انك اذا تعرضت لامرأة ولم ترتج نفسها الى مثل هذا التعرض وشكت أمرك الى الشرطة نالك من ذلك ما نالك ، بينا يقولون لك هذا القول اذ تنطلق الى ضفة من ضفاف نهر « الهدسون » فتجد مئات السيارات مصفوفة عليه في ظلمة الليل ، في كل سيارة رجل وامرأة ، أمّا حركاتهما في هذه السيارة فانك قد أخذت تدركها ، فقد بدأت بادراك الضمّ والشمّ والمصّ والقرص والعناق وما شابه ذلك كله ، ما خلا أمراً واحداً لايجوز عمله في داخل هذه السيارة ، والشرطي بين هذه السيارات مقبل مدبر ، يسكت عن كل هذه الحركات ، فقد سمح بها في عرف الآداب العامة في أميركة ما عدا الأمر الواحد الذي أشرت اليه ، فانه لا يسكت عنه ، فاذا وقعت عليه عينه فهو حر في التصرف في أنواع العقوبة التي يراها .

هذا شيء من التناقض في « نيويورك » في هذه المدينة الجبارة التي اذا ألف الانسان سكانها صعب عليه أن يغادرها فقد دخلت « مطعم دمشق » فلقيت فيه أحد أصدقائي من أيام الدراسة ، فسلمت عليّ وجلس إليّ وتساقتنا شيئاً من الأحاديث والأخبار ، فسألته عن عمله ، فقال لي انه جمع في يوم من الأيام نصف مليون دولار ، ثم طارت هذه الثروة ، فهو الآن لايملك شيئاً ، وانما يشتغل بالسمسرة ، فقلت له : لماذا لا تعود الى دمشق ، فقال : لقد تعودت العيشة في

نيويورك ، ومن يتعود مثل هذه العيشة فلا يستطيع أن يعيش في أي مدينة غيرها .

مدينة مخيفة ، متناقضة ، جمعت أنواع الاختلافات ، ولا سيما الاختلاف في السحن ، فترى أجساما طويلة وأجساما قصيرة ، وترى قدوداً رشيقه وقدوداً بشعة ، وترى أجسادا قوية وأجسادا ضعيفة ، سر تحت الأرض فتجد غرائب الأشكال في هذه الأتفاق ، تجد الغرابة في السحن والخلق ، فتجد عناصر من جميع الأمم ، من العبيد واليونان وغيرهم ، شيخوخات هرمة وعجائز متهدمة . وترى أدبا في الأحاديث العامة ، ثم تسرّ بأعظم شارع من شوارعها ، تسرّ بشارع « برودي » فتسمع باعة الجرائد يتسابون بالألفاظ البارزة عن ظل الأدب مما لا تسمعه في أضعف المدن حظا من هذا الأدب .

هيئة الأمم المتحدة

أظن أن الانسان اذا وصل الى نيويورك فقد يخطر بباله أن يزور هذه المؤسسة التي سموها : هيئة الأمم المتحدة ، تقيم هذه الهيئة بينيان واقع تجاه بحيرة النجاح في جوّ يقلّ فيه الدخان ، جوّ صاف ملائم للسلم والسلام ، ولكن أين هذا السلم وأين هذا السلام !

ذهبت الى هذه المؤسسة مرتين أو ثلاث مرات لا أدري ، فكنّت أتبذ ناحية وأراقب حركات الناس ، أراقب جيئتهم وذهوبهم وأحاديثهم ووشوشتهم ، ولكنني لم أشعر بأن على وجه واحد منهم أثر الاقتناع بأن هذه المؤسسة قادرة على شيء ، إن حكوماتهم انتدبتهم لحضور الجلسات أو لتمثيلها ، فهم يجيئون وكأنهم آلات مسخرة ، عليهم أن يتكلموا في بعض الأوقات وأن يسكتوا في بعض الأوقات ، وأن يقولوا : نعم، حيناً ولا ، حيناً ، ثم أجد اهتمامهم بشرب الشاي في المقصف أو بالعداء في المطعم أشدّ من اهتمامهم بهذه الأمور التي انتدبوا اليها ، ولا أنسى مشية سفيرنا وهو مشغول الذهن ، ملبك التفكير ، كأنه يحمل العالم على ظهره ، وماذا وراء هذا الشغل وهذا التلبك ، وما هي نتائج هذا كله : لا شيء ، كلمات في بعض الجلسات فيها أثر من اللغة الشعرية لا تعمل أي عمل في أذهان الذين تعودوا لغة الأمر الواقع ، ولم يتعودوا لغة الخيالات الباطلة .

القاعة العامة في هيئة الأمم المتحدة فضمة مرتبة ، أمّا قاعة مجلس

الأمن فهي بسيطة ليس فيها شيء من العظمة ، ولا يشعر فيها الانسان برهبة ، في صدر هذه القاعة صورة تمثل السلام في العالم و انتهاء العبودية ، وقد عبّر عن هذا السلام وعن هذا الانتهاء جندي ألقى سلاحه على الأرض ، وصورة مرح ورقص ، وصورة عالم متصل بالسماء أي بأفق الملائكة ، صور كلها معقدة ، أين السلام وأين انتهاء العبودية ومن يفكر في السماء والملائكة ، واذا صدقت صورة من هذه الصور فلم تصدق الا صورة المرح والرقص !

دخلت قاعة مجلس الأمن لأحضر مناقشة تتعلق بفلسطين ، وأرى من الواجب عليّ أن أشير الى شعوري بالذل لما نودي على ممثل الأردن ليحضر الجلسة وعلى ممثل اسرائيل ، فقد ظهر الانكسار على وجه ممثل الأردن ولا بأس بأن ألخص رواية هزلية مثلت في هذه الجلسة .

كان ممثل لبنان الدكتور شارل مالك ينوب عن الدول العربية كلها في مجلس الأمن ، حضر ممثل اسرائيل وألقى محاضرة دامت ساعة ونصف ساعة ، وكان وراءه مقدار خمسة عشر شابا يعطونه من حين الى آخر وثائق للاستشهاد بها في محاضراته ، أمّا ممثل الأردن فقد جلس في صف آخر مقابل له ، ولم يرفع رأسه من الأرض ، وعلامة الانكسار بادية على وجهه .

بَدَىء بالرواية الهزلية ، أطال ممثل إسرائيل الكلام ولم تكن اطالته عبثاً ، فكأن غايته كانت أن يشعر الأعضاء بالتعب والملل حتى يضعف أثر كلام ممثل العرب اذا جاء دوره .

لا يهمني أن أذكر ما قاله ممثل اسرائيل ، فقد فصل قضية فلسطين من بدئها ، ثم تكلم على حادث القرية التي قتل اليهود أبناءها ، ثم اقترح أموراً لتقرير السلم في الشرق الأدنى ، كل هذا لا شأن لي به ، فقد يستطيع ممثل اسرائيل أن يفرغ الباطل في قالب الحق أو بالعكس ، وانما الذي اهتمت به مراقبة ممثل العرب ، فقد كان يدوّن خواطره

على ورقة وهو يسمع كلام ممثل اسرائيل ، وما عليّ اذا قلت انه لم يوح إلي شيئا من الثقة من أول وقوع نظري عليه ، فقد كان كثير الحركات في جلسته ، مرة يلتفت الى اليمين ومرة الى الشمال ، وحينما يتقدم ، وحينما يتأخر ، الى غير ذلك من الحركات العصبية التي لا تدل على شيء من الرصانة ، وانما هي حركات يفتقر اليها الممثل على المسرح .

ولكنني لما رأيته يدوّن خواطره قلت في نفسي : لعل وراء هذه الحركات عقلا راجحا ، فرغ ممثل اسرائيل من محاضرتة ، فسأل رئيس مجلس الأمن : هل يريد أحد أن يرد على ممثل اسرائيل ، وكنت أنتظر أن ينتفض الدكتور شارل مالك وأن يثور ثورة العاصفة ، ولكنه لم يرفع اصبعه ، فانتقل حينئذ رئيس المجلس الى جدول الأعمال ، وجاوز أمور فلسطين ، كان كلامه عاما ، لم يذكر فلسطين ولا العرب ولا اليهود ، وانما ذكر بنصوص المجلس والمحافظة على السلم وطلب الى الجنرال ولم أذكر اسمه ، وانما كان حاضرا وأظنه كان كبير المراقبين في لجنة الهدنة في فلسطين أن يدرس الوضع وأن يضع تقريره ومقترحاته في خلال ثلاثة أشهر لاقرار السلم في فلسطين .

ذكرتني هذه الأمور كلها ما كان يجري في جمعية الأمم في جنيف على أيام الانتداب ، فقد كان يقع في سورية ما يقع من المظاهرات والاحتجاجات والثورات ، فينهض ممثل فرنسة في الجمعية « روبردي كه » ويغالط ما شاء من المغالطات ، فينتهي هذا كله بأن يطلب اليه أن يذهب الى سورية وأن يضع تقريرا عن الحال فيها !

خلاصة الأمر لم يوح إليّ مجلس الأمن شيئا من الثقة ، فان المحكمة القادرة على تنفيذ مقرراتها والمتهاونة بهذا التنفيذ انما هي محكمة مقصرة في واجبها .

أمّا الرواية الهزلية فقد بدىء بها بعد دقائق من كلام رئيس مجلس الأمن ، فقد رفع مندوب العرب إصبعه وطلب حق الكلام على فلسطين ، فقال له رئيس المجلس : ان حقه في هذا الكلام قد سقط من بعد سؤاله : هل يريد أحد أن يتكلم ولم يرفع أحد اصبعه ، وذكره بأنه في هيئة الأهم من سنين طويلة وبأنه يعرف النظام حق المعرفة ، وطرح الرئيس على الأعضاء هذا السؤال : هل توافقون على إعطائه حق الكلام ، فاقترح مندوب الصين تأجيل الجلسة لأن الكلام يطول ، والأعضاء قد تعبوا ، فأجلت الجلسة •

الذي حسبته في الأصل وقع ، فقد أطل مثل اسرائيل محاضرتة حتى يتعب الأعضاء ويملوا ، وقد تم له ما أراد ، ولما جاء حق الرد عليه تهاون مثل العرب باستعمال هذا الحق ، ولما فاته هذا الحق أخذ يطالب به •

هذا هو التمثيل بعينه ! هذه هي الرواية الهزلية !

اللاهي •

لا بد من زيارة مسرح من مسارح « نيويورك » اقترحت علينا خطيبة رفيقي الدكتور ايلي سالم أن نذهب الى : « راديو سيتي » فذهبنا فوجدنا فيه منتهى ما يصل اليه الاتقان ، فالمسرح يتغير في خلال ثانية ، معنى هذا اذا انتهى الممثلون على المسرح من عملهم انخفض بهم مسرحهم ، ثم ظهر مسرح آخر في ثانية عليه ممثلون من نوع آخر • أعظم شيء على هذه المسارح الرقص ، فتجد جوقة من أربعين أو خمسين راقصة قدودهن واحدة ، وسيقاهن واحدة ، وأجسامهن واحدة ، ترتفع الأيدي والسيقان والأقدام في طرفة عين ، وكأنها قطعة واحدة لا تزيد ولا تنقص إصبعاً • أمّا خفة حركات الرقص فوق الجبل

وتحت الجبل ، وأما القفز من الأرض والتقلب في الهواء فهذه حركات قد يجوز أن تتقنها راقصات في بلاد ثانية ، فالأميركانيات ينصرفن الى إتقان الرقص ويساعدهن على ذلك رشاقة قدودهن الناشئة في الأغلب عن الرياضة البدنية .

أمّا « الاوبرا » في نيويورك فقد ذهبت اليها مرة ، ولكنني لم أشعر بشيء من الميل الى هذا النوع من الغناء والتشيل في وقت واحد ، والقضية قضية ذوق ليس غير ، فأنا لم أذق لذة الغناء ولا ذقت لذة التشيل في « الاوبرا » وقد كان الى جنبي شاب أميركي مهندس جاء الى نيويورك لقضاء ليلتين فيها ، فسألني عن رأيي في هذه « الاوبرا » فقلت له لم يهزني شيء منها ، فقال : وأنا كذلك !

جامعة « كولومبيا » .

زرت جامعة « كولومبيا » في نيويورك بعد أن سئمت زيارة الجامعات ، انها مرتفعة عن المدينة ، على بضع خطى من نهر « الهدسن » تقابلها من شط هذا النهر مدينة « نيو جرسي » الضاحكة .

لم أجد في هذه الجامعة على شهرتها العظيمة شيئاً من الحياة ، فكأنهم اعتاضوا عن خضرة الأرض خضرة السطوح ، فالسطوح كلها خضر بألوانها ، فلا حدائق ولا غابات ولا شجر ، كأنها معمل من معامل « نيويورك » انها مناسبة لهذه المدينة العظيمة ، أين الطلاب ، أين الطالبات ، أين الملاعب الكبيرة ، مثل هذه الجامعة كمثل « نيويورك » نفسها ، انها قطعة منها ، قطعة من ظلمتها وكآبتها وضجتها ، مقامها بين الشوارع والسيارات ، ولكن فيها كنيسة عظيمة وأعظم شيء إنما هي الأجراس في البرج ، فلا يستطيع الانسان أن يتصور ضخامة هذه الأجراس ، كيف تدق ، كيف تكون أنغامها ؟ واذا وقف الانسان في هذا البرج رأى عظمة « نيويورك » ، رأى هذه

السيول الجارفة من السيارات تهدر ولا هدير البحر •

ما أشد التناسب بين جامعة « كولومبيا » وبين « نيويورك » فلنخرج منها ولنسرع في ذلك ، ولكنني لم أخرج إلا ونصب عيني صورة الرئيس « ايزنهاور » في لباسه الجامعي في حفلة تويج الاجازات، وهكذا نجد أن رئاسة الجامعات في أميركة أصبحت مقدمة لرئاسة الولايات المتحدة ، ألم يكن الرئيس « ولسن » قبل ايزنهاور رئيسا لجامعة « برنستن » !

٢٧ تشرين الثاني ١٩٥٣

مدينة في مخزن .

أخذت أميركة بأجمعها تستعدّ لعيد الميلاد وهي تستعدّ لهذا العيد قبل شهر أو أكثر ، فترى الأسواق غاصة بالناس ، رجل وزوجته ، أو امرأة وولدها ، يطوفون بالأسواق ، فيضربون بأعينهم في جامات المخازن ، فيشترون ما يروقهم من الثياب واللعب والتصاوير والهدايا ، ويستمر هذا الطواف شهراً كاملاً ، وفي يوم العيد ترى المدن كلها زاهية بألوان الكهرباء ، وقد طفقت هذه الأنوار تتلألأ في الأسواق من اليوم على اختلاف هذه الألوان ، لم أحضر عيد الميلاد ، فقد غادرت أميركة قبل هذا العيد بعشرين يوماً ، ولكنني شهدت شيئاً منه في أسواق « نيويورك » شهدت الزحمة في النهار والأضواء في الليل ، لقد دخلت مخزناً قيل لي انه أكبر مخازن العالم وهو Maey's لا أشك في ذلك ، فان الذين رأيتهم من رجال ونساء وأطفال بعد الظهر في هذا المخزن وهم يشترون يكاد عددهم يبلغ عدد الذين يشترون في النهار من مدينة يبلغ سكانها أربعمائة ألف نفس •

لا أريد أن أغضي على شكر قنصلنا العام في « نيويورك » السيد روجي جميل ، فإن الذين يعرفونه يعترفون بدماثة خلقه ورقة أدبه وجده في العمل ، فهو مثل الموظف الذي يشعر بتبعته في الوظيفة ، لم يترك السيد روجي وسيلة من الوسائل إلاّ توّسل بها الى إكرامي ، فقد دعاني الى منزله مرّات ، وسار بي في سيارته الخاصة الى « بروكلين » لأزور هذا الحيّ الذي يقيم به أبناء العرب من سورية ولبنان .

تظهر على « بروكلين » كآبة الشرق ، فكأنني في حيّ يختلف عن أحياء « نيويورك » الصاخبة ولكن الذي سرّني في « بروكلين » أنني أدخل مطعما فأسمع الناس يتكلمون بالعربية إلاّ أن هؤلاء الناس هم آخر من يتكلم بهذه اللغة لأن أولادهم من بعدهم يجهلون العربية .

لقد دخلت محل « علوان » فوجدت أنواع الحلواء الدمشقية مصفوفة في الصواني ، فسألته عن عمله ، فحمد الله وقال : ان شغلي ليس في نيويورك وحدها وانما أرسل الحلواء الى الهند والى انكلترا ، وأكثر ما يباع في الهند من هذه الحلواء الراحة المحشوة بالنفستق .

ثم دخلت مخزنا فوجدت فيه الأستاذ سامي الشوا الموسيقار المشهور ، وصاحب المخزن يسمعه أسطوانة من عزفه ، ولا شك في أن الانسان يأنس بهذه المطاعم والمخازن في مدينة مثل « نيويورك » تفصلها عن سورية ولبنان بحور مترامية الأطراف ، انما عادات الشرق

واحدة ، سوء أكانت في سورية ولبنان أم كانت في « نيويورك » ففي الشارع ٥٤ مطعم دمشق لصاحبه جورج بخاش الحلبي ، وهو المطعم الذي كان يختلف اليه دولة الأستاذ السيد فارس الخوري وعقيلته ، ولم يكن هذا المطعم في بروكلين . تجد أبناء العرب بعد الأكل يقضون وقتا لا بأس به في لعب النرد و « الكونكان » وهذا شيء لا تجد مثله في المطاعم الأميركية .

لقطنا ونحن في بروكلين أحد أبناء العرب على الطريق سمعنا تتكلم بالعربية ، فسلم علينا وماشانا ، سألته عن مدة إقامته بنيويورك ، قال : أنا فيها من ست وأربعين سنة ، قلت له : الى أين أنت ذاهب الآن ، قال : الى القهوة ، فعلمت أن هذا الرجل أضاع وقته في أميركة ولم يجمع شيئا من المال ، فان الجلوس في المقاهي في أميركة معناه إضاعة الوقت ، أحببت أن أتحقق من ظني بهذا الرجل ، قلت له : كيف شغلك ، فقال : يسترها ربك ، وهل يأخذ الانسان معه شيئا الى الآخرة !

ان ظني بهذا الرجل كان في محله .

الاعلانات .

أغادر « نيويورك » والاعلانات ماثلة لعيني ، فهي آخر صورة من الصور التي أبقها معي ، يكاد الانسان يحار في تفنن القوم في اعلاناتهم ، ويكاد يحار في هذه الأنوار التي تتلألأ في الليل ، أنوار الاعلانات وأضوائها ، وهل أبالغ في قولي اذا قلت إن ما ينفقونه على أنوار الاعلانات في شارع « برودوي » يكاد يضيء بلدة صغيرة .

اضرب بعينك في حيطان « برودوي » في الليل ، انك ترى شلالات من الكهرباء تهتز على هذه الحيطان ، وهي تعلن بنوع من السجابر

أو بنوع من الثياب أو بأنواع ثافية لا يحصيها إحصاء .
ثم اقرأ على أبواب دور السينما ، فانك تجد أسماء الروايات زاهية بمختلف الألوان ، ولكن ما هي هذه الروايات وما هي موضوعاتها : كيف تتزوجين صاحب ملايين ، هذا موضوع من الموضوعات ، وكيف تصبح غنياً ، هذا موضوع آخر ، ولكنه موضوع كتاب تجده في جامات الدكاكين ، لا موضوع رواية في السينما .

ثم ارفع رأسك الى السماء ، فانك تجد الطائرات تشق أعنانها ، ولكنها لا تحبل ركاباً وانما ترسم خطوطاً في هذه السماء ، اذا جمع بعضها الى بعض كان في جمعها اسم شركة أو محل تجاري أو بضاعة أو غير ذلك .

أميركة على وجه عام حياتها ظاهرة في اعلاناتها و « نيويورك » على وجه خاص ، واني أعتقد أن رونق شوارعها في الليل ولا سيما شارع « برودوي » انما هو في أنوار الاعلانات وأضوائها .
أجل لقد تقنن القوم في هذه الاعلانات وقد دار حديث بيني وبين أحد تجار فلسطين المقيمين بواشنطن ، فقال لي : لقد مهر القوم في الاعلان كل المهارة ، فهم يطبقون في هذه السبيل علم النفس ، فتراهم يصفون بضائعهم في جامات مخازنهم على شكل لا تستطيع معه المرأة اذا وقعت عينها على هذه البضائع أن تتفقت من الشراء .

ان ما يقوله هذا التاجر صحيح ، وقد رأيت الأمر بعيني ورأيت مقدار استمالة هذه الجامات للسيدات ، فكنت أرى تزاحمن عليها واسراعهن الى دخول المخازن للشراء ، فان علم النفس يستخدمه الأميركان أحياناً في سبيل الربح ، فقد قرأت مرة مقالاً في موضوع من موضوعات هذا العلم ، فقال صاحب المقال في خاتمته : وقد طبقت هذه الأساليب في المعمل الفلاني فربحت تجارة صاحب هذا المعمل ربها عظيماً .

همّ أميركة كلها الانتاج والبيع والربح ، انها تجد عظمتها في هذا الانتاج وهذا البيع وهذا الربح ، ولكن هذا الطرز من السياسة اذا جلب لأميركة النفع في الماضي فانه يجلب للعالم كله الضر في الحاضر ، وأظن أن مشكلات العالم يومنا هذا قائمة على هذا الانتاج ، أمم تريد أن تفرض منتجاتها على العالم ، وأمم استفاقت من نومها وأجبت أن تنجو من سلطان الاحتكار ، فتستقل بمذاهب اقتصادها ، فتنتج اذا قدرت على الانتاج وتشتري من الأسواق التي لا ترى فيها غبنا ، والتناحر واقع بين هذين الصنفين من الأمم ، والأفراد هم الذين يذوقون عذاب هذا التناحر ، فما نسمعه من اختراع القنابل الذرية ونظائرها من أدوات جهنم ان هو إلا عاقبة وخيمة من عواقب التناحر .

هذه آخر فكرة أخرج بها من « نيويورك » ومن أميركة وهذه آخر صورة تصحبني في رجوعي الى دمشق .

واشنطن WASHINGTON

سراصة المرأة

١ كانون الأول : واشنطن

جاءتني فتاة من فتيات وزارة الخارجية وقد كانت هذه الفتاة نفسها قابلتني في « واشنطن » في جيئتي الأولى وطرحت عليّ سؤالات شتى ، وأعطت وزارة الخارجية جواباتي ، ويظهر أن في الوزارة دائرة مختصة بمثل هذه الأمور ، يرسلون الى الزوّار الأجانب من يقابلهم ، وينقلون أحاديث عنهم ، ثم ينشرون هذه الأحاديث .

في المرة الأولى كان الترجمان واسطة بيني وبين هذه الفتاة ، وفي المرة الثانية كان الحديث بيننا من دون ترجمان ، لأنني جمعت معلوماتي القديمة بالانكليزية ، وتمرنت بعض التمرن على الكتابة والكلام في أثناء الرحلة .

هذه الفتاة من أصل ألماني واسمها معناه بالألمانية : الظلمة ، فقلت لها : لقد ظلمك أهلك ، كان يجب عليهم أن يسموك القمر بدلا من أن يسموك الظلام ، انها وديعة في ظاهرها ، هادئة المزاج ، قليلة الحركة ، يغلب عليها شيء من الجدد والخفر ، سألتني على عاداتها كيف كانت رحلتي وما الذي استهواني في هذه الرحلة وما هي البلاد التي زرتها وغير ذلك من السؤالات ، ثم استغربت حديثي معها بالانكليزية وقالت : في المرة الأولى احتجنا الى ترجمان بيننا والآن استغنيينا عن

الترجمان •

ذكرت لهذه الفتاة الأنيسة البلاد التي زررتها والجامعات وقلت لها :
أمران في أميركة أخذنا بسجامع قلبي : مشاهد الطبيعة والجامعات ، ثم
دخلنا في ناحية من نواحي الاجتماع ، فتكلمت على المرأة الأميركية
بحسب ما تيسر لي ، وقلت ان المرأة في أميركة أخذت تخرج عن طبيعتها
في مشاركتها للرجل في أعماله ، ان هذه المشاركة لا تلبث أن تضعف
قواعد الحياة الاجتماعية ، فكيف تستطيع المرأة أن تعمل في النهار
وأن تعني بدارها وبأولادها في وقت واحد ، فالمرأة الأميركية قد
اشتتت في هذه السبيل اشتطاطا قد يؤدي في عاقبة الأمر الى شيء من
التنازع بينها وبين الرجل •

سمعت الفتاة هذا الكلام ، فتغيرَ لونها وظهر هدوء الكآبة على
وجهها ، ولم يعجبها كلامي ، فقالت لي : ان اختي متزوجة وهي على
الرغم من زواجها لا تهمل دارها وأولادها ، فلما رأيت الانكسار على
وجهها وكلامها قلت في نفسي : رفقا بالقوارير ! وأخذت أبسط لها
رأبي بوجه أوضح ، وقلت لها لا بد في بعض القواعد من الاستثناء ،
وقد يجوز أن تكون أختك من غير النمط الذي أتكلم عليه ، وقد
يجوز أن تكوني أنت نفسك في زواجك أشد اعتناء بأولادك من أختك ،
ولكن حديثي عام •

على هذه الصورة فرجت بعض الشيء من غمّ هذه الفتاة الناعمة .
ما أغرب هذه الأمور ! لا تريد المرأة الأميركية أن تتخلى عن
العمل ، عن مشاركة الرجل في كل الحياة ، عن مزاحمتها لهذا الرجل ،
ولكن ما هي عاقبة هذه المشاركة وهذه المزاحمة ؟

محاضرة في المسجد .

دعيت الى إلقاء محاضرة في المركز الاسلامي في « واشنطن » أي

في المسجد ، دعاني مدير المركز الدكتور محمود حب الله ، وهو من مصر ، وقد حضر مؤتمر الثقافة الاسلامية في « برنستن » فأجبت الدعوة ، ولم أجد في قاعة المحاضرة إلاّ جمهوراً قليلاً وقيل لي ان الناس اذا حضروا محاضرة في هذا المسجد فلا يتجاوزون خمسين أو ستين رجلاً وامراً ، ومعظمهم أميركان ، ولست أدري السبب في قلة هذا العدد ، ولكنني أعتقد أن من جملة الأسباب قلة عناية القائمين على المركز الاسلامي ، فهم يدعون المحاضر ، فاذا أجاب الدعوة فلا يهتمون به ، فاذا قلت عنايتهم بالمحاضر فلا شك في أن عنايتهم بجلب الناس الى المحاضرة أقل .

موضوع محاضرتي ناحية من نواحي الجاحظ وهي الناحية العلمية ، وقد أوجت إليّ هذا الموضوع البيئة الأميركية نفسها ، فقد طقت بكثير من ولايات أميركة وكنت كثيراً ما أسمع كلمة الاسلام ، ولكن معرفة حقيقة الاسلام في أميركة لا تزال مشوهة .

بحث في مؤتمر الثقافة الاسلامية في جامعة « برنستن » عن العلم في الاسلام وأذكر أنه قيل ان العلم لا يتصل بالاسلام ، وفي جامعة « ستانفورد » طرحوا عليّ في قاعة غصت بالناس هذا السؤال : هل يتسع الاسلام لأطوار الحياة الحديثة وفي « سان فرنسيسكو » قال لي أحد الأميركيين : ألا تعتقد أن خمس صلوات في النهار مضيعة لأوقات المسلمين ، وفي مدينة « الباكركي » جاءني صحفي وقال لي : أترى أن الاسلام يساعد على نشر السلام .

من هذا كله تبين لي أن الاسلام لا يزال مجهولاً في أميركة وأن مبادئه القويمة قد يجوز أنه قد شوّوها بعض المشوهين ، فأحببت أن أتكلم في مسجد « واشنطن » على إمام من أئمة المسلمين لم يمنعه دينه عن الخوض في مسائل العلم على أحدث الأساليب في عصرنا هذا حتى أجيء ببرهان صادق على أن العلم يتصل بالاسلام وعلى أن الاسلام لم يكن عدو العلم في أحكامه .

لا حاجة بي الى أن أعيد في هذا المقام ما قلته في الجاحظ ، فقد
لخصت أصوله التي يبنى عليها في الوصول الى معرفة الحقيقة ، فهو
يستعين بالحواس وبالعقل على إدراك الحقائق ، وهذه هي طريقة
« باكون » و « ديكارت » .

وبعد أن فرغت من الإشارة الى أساليب الجاحظ في تحقيقه العلمي
قلت للجمهور : كيف يقولون ان العلم لا يتصل بالاسلام وقد وسعت
لغة الاسلام كتب أفلاطون وأرسطاطاليس وبقرات وجالينوس وأقليدس
وأرخميدس وبطليموس ، وهي في موضوعات شتى في السياسة
والتوحيد والمنطق والشعر والخطابة والأخلاق والرياضيات والنجوم
ونحو ذلك ، لقد أنشأت قراءة كتب أرسطاطاليس رغبة في الفلسفة ،
فكانت الفلسفة فاشية في طبقات المفكرين العلماء من المسلمين ، وطبق
المسلمون الفلسفة على السياسة ، فكان بعض مؤلفاتهم السياسية
يشتمل على جملة من النظرات الفلسفية ، وجارت الرياضيات الفلسفة ،
ونقلت كتب بعض المسلمين في الجبر والحساب الى اللاتينية ، وانتشرت
في أوروبا ووضع المسلمون كتباً في النجوم .

وعلى الرغم من هذه الحقيقة الناطقة تحامل بعض الغربيين على
الاسلام تحاملاً فاحشاً ، وفي مقدمة المتحاملين « رنان » الفيلسوف
الفرنسي الذي قال في بعض كتبه :

« ان الذي يميز العالم الاسلامي انما هو اعتقاد المسلمين أن
البحث لا طائل فيه ولا شأن له ، وانه قد يؤدي الى الكفر ، فعلم
الطبيعة يؤدي الى الكفر لأن هذا العلم ينازع الله سلطانه ، وعلم
التاريخ يؤدي الى الكفر لأنه اذا امتد الى العصور التي جاءت قبل
الاسلام أحيا أضاليل قديمة ، فمعتقدات هذا شأنها تفضي الى النتائج
الآتية : فقد يصبح خمول الذهن وقلة المبالاة من الفضائل ، فكلية :
والله أعلم ، انما هي فصل الخطاب في كل مناظرة اسلامية ! » .

ان كلاما مثل كلام « رنان » لا يخلو من تعصب يشمئز منه الانسان ، والظاهر أن الرجل وقعت عينه على طائفة من المسلمين الذين أعمى الاستعمار الفرنسي بصائرهم وأبصارهم ، وأمات فيهم حب العلم ، فحكم على الاسلام بما رآه من بعض المسلمين المغلوين على سلطانهم في إفريقية ، ولم يشأ أن يبحث عن أعظم العلماء في تاريخ الاسلام وأرجو أن يقل في عصرنا هذا ، عصر البحث المجرد والتحقيق النزيه ، عدد الذين يمشون على آثار « رنان » في التحامل والتعصب .

استفاقت أوروبا من نومها ونام المسلمون حيناً من الدهر ضعف فيه سلطان سياستهم ، فانحلت خلافتهم ، وتشتت كلمتهم ، وتغيرت أخلاقهم ، فأصابهم ما يصيب أكثر الأمم العظيمة التي تصل الى رأس العظمة ثم تنحط كالرومان في القديم ، ولكن أقل زيارة لقسم من هذا الشرق المستد من وراء المحيط الهادئ تدل على أن المسلمين شرعوا اليوم يلتفتون الى إخوانهم المسلمين في أيام الجاحظ ويتقيلون طريقتهم ، فيتصلون بحضارة هذا العصر وعلومه ، ويتبعون أطوار الحياة الحديثة ، ولا يأتي عليهم حين من الدهر غير طويل إلا وقد وسع اسلامهم هذه الحضارة وهذه العلوم في الحديث كما وسعها في القديم : وتلك الأيام نداولها بين الناس !

الرحلة الثانية

— ١٩٥٥ —

6. 1. 1900

1. 1. 1900

٦ تشرين الثاني ١٩٥٥

غادرت « نيويورك » في رحلتي الأولى في ٥ أو في ٦ كانون الأول سنة ١٩٥٣ وأذكر أنني لم أخرج من الولايات المتحدة إلا وقد شعرت بأن روحي عادت الى مقرها ، فقد سئمت كل شيء في أواخر الرحلة ، ولم يشغل ذهني إلا الرجوع الى الوطن ، فقد بلغ مني الحنين الى دمشق كل مبلغ ، ولكنني ما كادت النوى تستقر بي في دمشق حتى عادت الى ذهني صور الولايات المتحدة ، وأخذت تخطر على بالي ، وأخذت أفكر في الرجوع اليها حتى جاءت نوبة ايفادي ، فان كل أستاذ من أساتيد الجامعة يحق له أن يوفد من أجل الدراسة والاطلاع ، فاخترت السفر الى الولايات المتحدة مرة ثانية للدراسة والاطلاع وهذا حق من حقوقي ، ولكنني آثرت هذه المرة أن أقيم بواشنطن مدة الايفاد كلها ، أي ستة أشهر والسبب الذي حملني على تفضيل واشنطن هدوء هذه المدينة العظيمة ، فقد علقت صورتها بنفسني من الرحلة الأولى .

تركت دمشق في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٥ ولكن ما أعظم الفرق بين شعوري في الرحلة الأولى وبين شعوري في الرحلة الثانية^(١) ، فقد كنت في المرة الأولى رهين كل شيء ، كنت رهين محابس شتّى ، فلم يكن لي مشيئة في قطع بطاقة سفر أو حجز محل في فندق ، ولم يكن لي

(١) ورد سهوا في كلمة التصدير ان الرحلة الثانية كانت سنة ١٩٥٦ والصحيح انها كانت سنة ١٩٥٥

قدرة على الافراد بالحديث لأن انكليزيتي لم تكن تساعدني على شيء من ذلك ، أمّا في الرحلة الثانية فقد شعرت بالاستقلال ، كنت أستطيع أن أحدث بالانكليزية جيرانني في الطائرة وكنت أستطيع أن أقابل دائرة الجوازات وحدي وأن أخلص عيالي من الجمرک بنفسني وأن أذهب الى الفندق الذي أريده وأحجز فيه محلاً دون واسطة ، قد تكون هذه الأمور كلها تافهة ، ولكن هذه الأمور التافهة هي التي جعلتني أشعر بالحرية والاستقلال ، فأصعب شيء في السفر أن يكون الانسان رهين المحابس .

٧ تشرين الثاني ١٩٥٥

أذكر أنني وصلت الى نيويورك قبل الظهر ، وقد كان في انتظاري في المطار السيد روحي جميل قنصلنا العام في نيويورك ، وإذا كررت الشئ عليه في هذا المقام فاني أجد أن هذا التكرير قليل بالنسبة الى أخلاقه . دعاني الى الذهاب الى نيويورك وقضاء أيام فيها ، فاعتذرت وقلت له : اني لا أحب هذه المدينة الجبارة ، فاسترحنا مقدار ساعة في مقصف مائج بالفتيات والنساء والرجال ، ثم أسرعنا الى الطائرة ، فبلغت واشنطن بعد ساعة على ما أذكر .

دخلتها والمطر نازل ، وإذا بقيت في ذهني صور من مدخلها من المطار فقد بقيت صور تدل على العظمة في كل شيء ، عظمة الطبيعة وسحر الريف ، ولكنني شبت في رحلتي الأولى من هذه العظمة ومن هذا السحر وصحّت عزيمتي في الرحلة الثانية على أن أشبع من المجتمع وحده ، فلا أريد هذه المرة شلالات ولا بحيرات ولا أنهاراً ولا بحاراً ولا سهولاً ولا جبالات ، وانما أريد المجتمع لعلي أصل إلى إدراك يسير من خصائص هذا المجتمع .

٨ تشرين الثاني ١٩٥٥

اخترت فندقا اسمه « Continental Hotel » على مقربة من أعظم المباني في واشنطن ، يجد المرء على يساره دائرة البرق والبريد وهي من أروع الدوائر ، ثم يجد الى جنبها محطة واشنطن وحسب هذه المحطة أن يدخلها الانسان ويستريح على مقاعدها ، فلا يحتاج الى شيء من كتب ومجلات ومطاعم ومشارب إلا وجده فضلا عن هذا السيل الجارف من البشر الذي لا ينقطع لا في الليل ولا في النهار ، فكنت أقضي في المحطة كل يوم ساعة أو ساعتين ، وأنا أقرس في هذه السحن المختلفة ، وأقول في نفسي كيف استطاعت هذه العناصر المتباينة والأهم المتفاوتة ذات الأخلاق المتباعدة والعقول المتنافرة أن يعيش بعضها الى جنب بعض .

ثم يجد المرء أمام الفندق حدائق تشبه حدائق « التويلري » في باريس وقد تناثرت عليها مباني « الكونغرس » ومكتبته الفريدة والمتحف الوطني . انقردت في أول الأمر بهذا الجزء من واشنطن فبعدت عن المدينة وشوارعها ومخازنها لأنني وجدت فيه ما أستغني به عن كل شيء .

لقد قضيت أياما أو أسابيع في هذا النحو من العيشة أتأمل وأخذت أخزن في ذهني الصور وأقابل مرة وأستنتج مرة حتى ازدحمت في البال الخواطر ، وإذا لم أجد في هذه الخواطر العمق الذي أريده فأرجو أن أجد فيها طبعاً بعيداً عن كل تصنع .

واشنطن WASHINGTON

الحية والأرنب

أول هذه الخواطر : الحية والأرنب ، فقد قرأت في مجلة من مجلات واشنطن العبارة الآتية :

« إن إسرائيل لا تقف مغلوطة الأيدي مسترسلة في الذهول كمثل الأرنب الذي ينتظر الحية من حوله حتى تكبر وتبلعه » .

هذا القول قاله سفير إسرائيل في واشنطن على ذكر شراء مصر للسلاح ، ولقد وجدت فيه كل شيء ، وجدت فيه عقلية اليهود بحذاقها ، يقولون ان لغة التوراة من أكثر اللغات شعراً أي صوراً وتشبيهات ، وهذا سفير إسرائيل يلجأ الى اللغة الشعرية في كلامه ، ولكنه لا يبعد في تشبيهاته واستعاراته ، وانما يعمد الى اللغة الشعرية القريبة ، فالحية كل واحد يعرفها ، وكذلك الأرنب والأميركان الذين هم أبعد الأمم عن اللغة الشعرية بسبب حياتهم الميكانيكية يفهمون هذه الصور الفهم كله .

أين عقلية اليهود في هذه العبارة ، من خصائص اليهود في العصور البعيدة الشكوى ، فهم يظهرون في مظاهر الضعفاء المساكين المظلومين ، لقد صوروا مصر في صورة الحية التي تريد بلعهم وصوروا دولتهم في صورة الأرنب ، ولكنه أرنب حذر ، ولا شك في أن الأميركي كان اذا

سمعوا هذا القول أخذوا بظاهره واعتقدوا أن مصر تريد بلع الأرنب المسكين ، من هذا يشتد عطفهم على إسرائيل •

الواقع أن الذي يريد بلع العرب إنما هم اليهود أنفسهم ، فإسرائيل في الحقيقة هي الحية لا مصر ولا غيرها من دول العرب ، فإن العرب لم يخرجوا اليهود من ديارهم ، ولم يشتتوهم بين سمع الأرض وبصرها ، ولكن اليهود هم الذين اعتدوا على العرب ومع هذا كله انهم يصورون العرب في صورة الحية التي تريد بلعهم ، على أن العرب يريدون سلتهم بلا عنب ، هذا هو خلق اليهود من أيام التوراة ، انهم يلبسون لباس الفقر ويخفون الغنى من تحته ، ويلبسون لباس الضعف ويكتسبون القوة من ورائه ، جلبا للعطف عليهم ، حتى اذا أشفق المشفقون عليهم أظهروا غناهم وقوتهم ، وبطشوا جبارين •

ولقد وقف اليهود على عقلية الأميركيان وأخذوا يخاطبونهم على مقادير عقولهم ، وهذه المخاطبة من أسباب نجاحهم ، ولا شك في أن لنجاح اليهود أسباباً كثيرة لا مجال الى بسطها في هذا المقام ، ومن أراد أن يعرف من هم اليهود في أميركة فليقرأ مقالاً نشر في مجلة « لوك » ، لقد أخذوا بسخنق الأميركيان في مجامع النواحي ، في المال والسياسة والمحاماة والطب والتجارة والصحافة ودور السينما وفي « الكونغرس » نفسه ، واستولوا على مدن أميركة الكبرى : نيويورك وشيكاغو ولوس انجلس ، وهذا أمر أصبح معروفاً ، فالأميركان لا يمكن أن تحل قضية فلسطين على أيديهم ما داموا ينظرون إليها من ناحية واحدة ، أي من ناحية تأثير اليهود في الانتخابات ، فاذا أرادوا حلها وفقاً لمبادئ جورج واشنطن في الحرية لزمهم أن يزهدوا في أصوات اليهود في الانتخابات ، انهم لم يفعلوا هذا الأمر حتى اليوم وأظن أنهم لن يفعلوه بعد اليوم •

لذلك لا تحل قضية فلسطين الا في فلسطين ، فان الحية اذا لم تلع الأرنب من اليوم كبر الأرنب وبلعها !

بهرار الفيسفاء

سألني صديق أميركي في دمشق بعد رجوعي من أميركة من سنتين : كيف لقيت الأميركان ، فعكست الأمر وسألته : كيف لقيت السوريين ، فقال : لقينا فيهم حسن الصداقة والعشرة والألفة •
لقد خطر ببالي قوله هذا وأنا الآن في أميركة للمرة الثانية ، ان هذا الأميركي لفتت نظره أمور قلما يشعر بها قومه في بلادهم •

لما وصلت الى واشنطن فتحت الهاتف على صديق أعرفه من سنتين وبينني وبينه مكاتبات وزرته في اليوم الثاني وسألته عن أهله وقبل الانصراف من عنده قال لي : سنجتمع على غداء بسيط ولكني لم أره بعد زيارتي ، ولا اجتمعنا على غداء بسيط ولا على غداء مركب ، وهذا وجه الضيف كما تقول في دمشق •

ولي صديق لبناني في بيروت أعطاني قبل سفري عنوان سيدة تدرس في إحدى جامعات واشنطن ، وقال لعل الاتصال بها ينفعك في مهمتك ، فلما استقر بي المقام في واشنطن كتبت اليها كتابا وأعلمتها فيه بمجيئي وقلت لها ان صديقك فلانا حملني سلاما اليك وأنا في الفندق الفلاني ، فبعد ثمانية أيام فتحت علي الهاتف ودعيتني الى الغداء وقبل الغداء بيوم فتحت الهاتف مرة ثانية واعتذرت عن الغداء لعوارض عرضت وأعطيتني رقم هاتفها ، فاستغربت هذا الأمر وقطعت لها ورقة كما تقول في عاميتنا ، واستغنيت عن الفائدة التي أحصل عليها من معرفتي بها •

لا أريد الاستكثار من هذه الأمور ، فقد طويت منها نماذج كثيرة ،
أظن أنه ليس لألفاظ الصداقة والعشرة والألفة في لغة الجماعة المعنى
الواسع الذي لها في لغتنا .

ان كَتَّاب هذا الفندق الذي أقيم به يعطونني في بعض الأوقات
ورقة تدل على نفقة من نفقات الهاتف ، فأستوضح أحدهم بعض
الاستيضاح ، فيختصر الكلام وإذا كررت السؤال لوى بوجهه ،
فهم لا يهتمون إلا بما فيه بعض المصلحة ، فكنت أدخل مخزنا من
المخازن في شهر عيد الميلاد والمخزن محشوك ، فيعنى بي أحد أصحابه
أشد عناية وإذا طلبت شيئا جاء به ثم بدله ثم جاء بغيره الى نحو ذلك
من حسن المعاملة أملا أن أشتريه فيحصل على بعض الربح ، ثم كنت
أدخل محلا صاحبه من أهل الصين فيستقبلني بوجه يقطع الرزق .

ان أميركة تقيم بها جماعات من أمم شتى وكل جماعة جاءت
بأمزجتها من بلادها وبقي فيها أثر من هذه الأمزجة المتباينة ، فهذه
المعاملات التي أشرت اليها لم أجدها في صديق أميركي أصله فرنسي ،
فكان يفتح علي الهاتف كل ليلة من بلده البعيد ويدعوني الى زيارته ،
حتى زرته ، فكنت في بيته كأنني واحد من أهل البيت .

ليس في أميركة أساليب واحدة في التربية ، فكل ولاية مستقلة
بمدارسها وجامعاتها ، ولكل مدرسة نظام خاص ، وكذلك لكل جامعة ،
والمدارس بعضها للحكومة وبعضها للأهلين والطوائف وكذلك
الجامعات ، فليس في أميركة نظام واحد يدخل هذه العناصر التي جاءت
في قالب واحد من التربية تشعر به في كل ولاية ، ولا نكاد نجد مثل
هذا النظام إلا في الرياضة وحدها ، فالأميركان مولعون بها أشد ولع
في ولاياتهم كلها ، في مدارسهم كلها ، في جامعاتهم كلها ، وما خلا ذلك

فلكل عنصر من العناصر أخلاق وأمزجة خاصة ، انك تدخل أرلندة
مثلا فتجد فيها سحنا واحدة وأمزجة واحدة ، ولكنك تدخل أميركة
فتجد فيها مختلف الأجسام والسحن والأمزجة والمعاملات ، فلم تفرغ
أساليب التربية في أميركة الجماعات التي جاءتها في قالب واحد في جميع
أمورهم ، كما أفرغتهم في الولع بالرياضة ولذلك يصح أن نسمي
أميركة : بلاد الفسيفساء •

الشجرة المثمرة

حقا ان الجماعة انصرفوا في أميركة الى الآلة انصرافا غريبا ، ففي الفندق الذي أسكنه شروع في ببيان حديث ، فان صاحب الفندق أراد أن يقيم مقام الحديقة بناء يتسع به الفندق ، وقد أخذت الآلات تعمل عملها ، فكنت أرى الأميركيان وأكثرهم شيوخ يتركون مقاعدهم ويتفرجون من شباك البهو فينظرون الى الآلات وأعمالها مسرورين بهذه الفرجة ، على حين كان صدري يضيق بضجة الآلات ، فالجماعة غلبت على حياتهم الآلة وما تؤدي اليه من الانتاج ، فقيمة المرء في بلادهم ما ينتج ، ما لهم وللشعر ، ما لهم وللأدب ، وقد كنت أطلع كتابا فمر بي مقال عنوانه وحده يدلنا على رأيهم في الحياة وهذا هو العنوان : « الرجل شبه شجرة مثمرة » وفي المقال مقطع يوضح ميلهم الى الانتاج ، فان صاحبه يرى أن أشد الأمور التي يجب إتمامها في هذا العالم انما هما أمران : الحصول على الثروة بمجهود شريف ومعرفة الانتفاع بها بطريقة شريفة ، وفي نظر هذا الكاتب أن الشجرة المثمرة اذا عجزت عن حمل ثمرها سقطت فماتت ، وكذلك الرجل اذا عجز عن العمل .

هذه الفلسفة تكاد تكون فلسفة كثير من الأميركيان لأنهم يرون أن عظمتهم في العالم قائمة على الانتاج ، ولكن ليس معنى هذا أن

الأميركان كلهم على هذا الرأي ، فقد رأيت كاتباً من الكتاب يقول ان أكبر تسلية انما هي الطبيعة ، فهذه أن يذهب الى الغابات ومعه سلاحه وكلبه أو صديقه ، فيخفي في الطبيعة فلا يسمع الهاتف ولا يتسلم البريد ، ويعيش في الطبيعة ويشعر بالله تعالى من حوله .

لا يستطيع الانسان أن يحكم على الأميركي كان حكماً واحداً قاطعاً ، فهم يختلفون على اختلاف بيئاتهم ، ففي بلادهم صحارى تشبه صحارى إفريقيا ، وجبال جرد تشبه جبال سرغايا وحلبون ، وجبال شجيرة تشبه جبال العلويين ولبنان ، وسهول منبسطة وأنهار وبحيرات وغابات وقد اختلفت الأخلاق والأمزجة كما اختلفت البيئات ، فأهل الشرق مثل نيويورك وغيرها فيهم بعض الوحشة والانقباض وأهل الغرب مثل سان فرنسيسكو وغيرها من بلاد كاليفورنية فيهم بعض الأنس والانبساط ، وفي الشمال أمزجة تكاد تكون انكليزية وفي الجنوب أمزجة تكاد تكون اسبانية ، لذلك لا يمكن أن يكون الحكم واحداً .

وكذلك الحياة الاجتماعية في أميركة ، فبعض الأسر لا تكاد تعرف لذة اجتماع الأب والأم والولد في المساء حول مائدة البيت ، وبعض الأسر تعيش أهناً عيشة ، فلا أنسى أسرة دعتني الى زيارتها من أسبوع في مدينة « وليمسبرغ » في ولاية فرجينية ، فنت في البيت ، ولست أعرف في حياتي بيتاً أحسن نظاماً ، ولا زوجة أحسن تربية ، ولا زوجاً أحسن إخلاصاً ، ولا طفلة أحسن تربية .

وكذلك رجال الفكر فيهم فانهم غير رجال المعامل ، ونحن نقول فيهم انهم يعيشون على سطوح الثقافة لا على أعماقها ، والصحيح انهم يأخذون من كل نوع من أنواع الثقافة لبّه وخلاصته ، ولكنهم لا يعنون بالأجزاء عناية الأمم اللاتينية .

والخلاصة ان الانسان يحار في هذه القارة ، في عظمتها من جهة ،
وفي مناقضاتها من جهة ثانية ، فهو يشفق من ناحية على ظلمة الحياة
الميكانيكية ، ويعجب من ناحية ببساطة بعض الأسر في حياتها الاجتماعية .
وعلى كل حال ان قيمة صاحب معمل من المعامل تختلف عن قيمة
صاحب ديوان من الدواوين ، فقيمة المرء في أميركة على مقدار
اتجاهه .

الحياة المسلوقة

لي في « صوت أميركة » في واشنطن بعض معارف من لبنان وسورية ، وقد دعاني فريق منهم الى الغداء في مطعم في بناء دار الاذاعة نفسها ، فانهذرت معهم الى « الكافتريا » وهو اسم المطعم الذي يخدم الانسان فيه نفسه ، فوجدت الناس رجالا ونساء قد لزموا صفوفهم حتى يصلوا الى معارض الأكل حيث يختار كل واحد منهم ما يشاء من الألوان ويحصل ما يختاره في صينية ويذهب به الى مجلسه ، وقد اقترح علي الاخوان أن ألزم مجلسي وأن لا أحمل نفسي مشقة اختيار الأكل ففعلت ، وبعد دقائق جاؤا بصحونهم وجلسوا لياكلوا واعتذرت لأنني لا أهضم طبخ الأميركيان .

في أثناء الحديث وقع نظري عرضا على ألوان الأكل فوجدت في بعض الصحون بيضا مسلوقا وبطاطا مسلوقة وخضرة مسلوقة ، وقد كنت أفضي الى الاخوان برأيي في الحياة الأميركية ، فقلت لهم : ما أشد وجه الشبه بين أكلكم وبين حياتكم ، ان أكلكم على ما أرى كله مسلوق ، وان حياتكم كلها مسلوقة ، فما كدتم تدرجون الأكل في أفواهكم حتى قلت لي : اعذرنا نريد أن نرجع الى العمل ، فاسمح لنا بأن ندلك على الطريق .

لقد دلوني على المخرج من دار الاذاعة ، فودعتهم وانصرفت الى مطعم عربي ألقته وهو : مطعم بغداد .

أفضت كثيرا على السفرة في الاعتراض على الحياة الأميركية ،
اعترضت على هذه الحياة التي لا يعرف فيها صاحبها راحة ولا تسلية ،
فكان الاخوان يوافقون حيناً ويخالفون حيناً ، اعترضت على هذه
الحياة التي تتعب العقل والفكر ، حتى أصبح الانسان فيها آلة من
الآلات ، فهو يشتغل من الصباح الى الظهر ، فيسلق غداءه سلقا ،
ثم يعود الى العمل ، فما يكاد يخرج منه حتى يسرع الى العشاء في
بعض المطاعم ، فاذا فرغ من العشاء ذهب الى السينما أو الى النوم ،
فلا فراغ يتحدث فيه الى أصدقائه ، ولا فراغ يخلو فيه الى أهله ،
فكان الدنيا كلها عمل ، وكان البدن ليس له حق على صاحبه ، وكان
الروح ليس لها نصيب من المتعة ، فالأحاديث أكثرها يتعلق بالمادة ،
بالأرقام ، بالدولارات ، فالدنيا كلها بيع وشراء ، ربح وخسارة ، أخذ
وعطاء ، فلا نادرة تسلي القلب ، ولا طرفة حلوة تسلي الروح ، هذه
هي الحياة في أميركة ، ما خلا ليالي السبت والأحد ، فان الناس
يأخذون فيها نصيبهم من اللذة ، كل على قدر إمكانه .

قال لي أحد الاخوان : ولكنك اذا سألت الأميركي كان عن رأيهم في
هذه الحياة وجدتهم مسرورين بها ، راضين عنها ، قلت له : لا غرابة
في ذلك ، فاني أعرف بعض الفلاحين في بلادنا وأخالطهم من زمن بعيد ،
يذهب أحدهم في طلوع الشمس الى المرعى أو الى الحقل ومعه أربعة
أرغفة من الخبز ، ويضع حبات من الزيتون ، ثم يعود في المساء ويتعشى
وعشاؤه الخبز والبطاطا أو الزيتون أو البصل أو البرغل ، فلا يكاد
يفرغ من عشاءه حتى ينام هو والدجاج في وقت واحد ، ثم يستيقظ في
مطلع الفجر وهو راض عن حياته ، مسرور بها ، لأنه لا يعرف غيرها ،
ولم يبل نمطا آخر من الحياة ، وهكذا الأميركي الذين رضوا بحياتهم
على هذا الشكل وهم لو جربوا نوعاً آخر من أنواعها فيه بعض المرح
والانبساط لعدلوا رأيهم في حياتهم المتعبة .

تعشيت مرة في مطعم أصحابه من قرى فلسطين فوجدت على سفرة أربعة من الأميركان وأربعا من الأميركانيات ، فشربوا ما شربوا من النبيذ ، وأكلوا ما أكلوا من اللحم ، وأخذوا يتساقطون الأحاديث ، وانهم كذلك اذ جاءت عائشة صاحبة المطعم بالدف والدبكة ، وأخذت تنقر على الدف مرة وعلى الدبكة مرة ، وقام ابراهيم وهو فتى أميركي من قرى فلسطين ، ورقص الدبكة على نقرات الدف والدبكة ، فاغتنت هذه الفرصة لأرى تأثير ذلك في الأميركان والأميركانيات ، فما كاد الرجال والنساء يرون رقص الدبكة ويسمعون نقر الدف حتى قاموا الى وسط المطعم ، وأخذوا يرقصون الرقص الذي لا أقدر على وصف حركاته ، وبينهم امرأة أميركية غاية في الجمال وحسن القوام والرشاقة ، كادت تخرج من نفسها من كثرة المرح والسرور . ثم هدأ الدف وهدأت الدبكة وانصرف كل واحد الى سبيله .

هذه الصورة دلتي على مقدار خنق الأميركان في جوهم ، فهم لا يجدون متنفسا إلا تنفسوا منه ، وليس تقن هذه السيدة الأميركية في رقصها إلا تعبيراً عن تنفسها ، فالأميركان راضون بحياتهم لأنهم لا يعرفون غيرها ، أمّا اذا ألفوا نوعا آخر من الحياة فيه نقر الدف ورقص الدبكة تعوذوا بالله من هذه السنين التي يقضونها في حياة مسلوقة .

وليمسبرغ WILLIAMSBURG

العقلية الأميركية

لا أريد أن أخادع أحداً ، فأدعي الاحاطة بالعقلية الأميركية ، فان عملاً مثل هذا العمل تستلزم دراسته سنين طويلة ، فلا بد في معرفة هذه العقلية من دراسة تاريخ أميركة وجغرافيتها ، ثم لا بد من الوقوف على عناصر الأمم التي استعمرتها في بدء الأمر ، ثم لا بد من دراسة أحوال جامعاتها ومدارسها وقوانين حكوماتها وأوضاع طبقاتها المختلفة في كل ولاية من ولاياتها ، ثم لا بد من مخالطة هذه الطبقات الى غير ذلك من الأمور التي لا تتم إلا في زمن طويل .

ولكنني اذا قلت العقلية الأميركية أردت بذلك ناحية صغيرة مجملة على قدر ماتتحمله خواطر رحلة ، فهذه خواطر خطرت في سرعة البرق ، وقد يكون في بعضها جزء من الحقيقة ، ولكنه جزء صغير على كل حال .

دخلت مكتبة في واشنطن لأشتري كتاباً في فقه اللغة الانكليزية ألفه أستاذان في جامعة « هارفرد » وهي من أكبر جامعات أميركة ، فوقعت عيني على كتاب في النحو والبيان والانشاء ، صاحبه معاون أستاذ في جامعة « نيويورك » ، فاشتريت هذا الكتاب وشرعت في مطالعته ، وسرعان ما تجلّت لي في تضاعيفه ناحية من نواحي العقلية الأميركية .

يشتمل هذا الكتاب على عشرة فصول ، فإذا بحثنا عن مشتملات كل فصل من هذه الفصول وجدنا انها عبارة عن جواهر الأمور دون تعقيد ولا تركيب ، وفي كل واحد من هذه الأمور مثل بسيط بحيث يحفظ الطالب التعريف والمثل دون شيء من التعب ، ثم اذا بحثت عن ضرب الأمثال والتمرينات فيه وجدت أنها تتعلق بأمور تقع عليها حواس الأميركيان ، ففي بعض الأمثال المضروبة ذكر « الفيتامينات » فان للفيتامينات في أميركة عملا عظيما ، فتجد أكثر شباب الأميركيان وأطفالهم أصحاب بنية عجيبة في القوة ، لأن الغذاء في أميركة عنصر من أهم عناصر هذه البنية ، يضاف اليه عنصر آخر وهو الرياضة •

وهكذا فانك تجد فصول الكتاب كلها على هذا الشكل من البساطة والسهولة ، وفي آخره فصل يتعلق بالرجوع الى المكتبات والمصادر والفهارس ، بحيث يفرغ الطالب من قراءة الكتاب وقد ألم ، ولا أقول أحاط ، بشيء من كل ما يحتاج اليه من ضبط العبارة وتنسيقها والرجوع الى البحث •

هذه صورة من خصائص العقلية الأميركية • ان الأميركيان وقتهم ضيق ، وان خلقهم ضيق ، فهم يريدون أن يحصلوا على أكثر ما يمكن من أمور المعرفة في أقل ما يكون من الزمن ، يريدون الوصول الى جواهر الأمور في سرعة غريبة ، فهذا الكتاب حشر فيه صاحبه أموراً تتعلق بالنحو وقواعد البلاغة والانشاء ، ولو شئنا أن نضع كتاباً في كل باب من هذه الأبواب لضاع فيه القارئ •

الأميريكان على تعبير هذا العصر عمليون ، فان للزمن قيمة عندهم كبيرة ، فهم لا يريدون أن يضيعوا الوقت في العرض دون الجوهر ، ولذلك نجد أساتذتهم يهيئون لهم المعرفة كما يهيء أصحاب العقاقير « البرشانات » للمرضى حتى يسهل بلعها ، ان مكتباتهم كثيرة ومصادرههم وافرة ، ولكن أخلاق الطلاب ضيقة ، فقد دخلت مرة

جامعة من الجامعات ، فوجدت أن الأستاذ قد هيا درسه على ورق وشرع في الالتقاء وبعد خمس دقائق سأله أحد الطلاب سؤالا ، فطرح الأستاذ أوراقه وأخذ يجيب الطالب عن سؤاله ، وبعد أن فرغ من الجواب سأله طالب آخر ، وما زال طالب يسكت وطالب يسأل حتى انقضت الساعة والأوراق التي هياها الأستاذ بقيت على حالها .

ان الطالب في أميركة لا يتسع خلقه للأمور المجردة ، فانه يريد الوصول الى المعرفة المحسوسة في أقرب وقت ، وهذا على ما أظن يضيق آفاق التفكير في الطلاب الأميركيين ، لأنهم يعتمدون على قول الأساتذة أكثر من اعتمادهم على عقولهم الخاصة .

هذا شيء يسير من خصائص العقلية الأميركية : أعطني أكثر ما يمكن عطاؤه في أقل ما يكون من العناء ، فلا أنسى حديثا دار بيني وبين أحد ضباط الأميركيين الشباب ، قال لي : حدثني عن عادات بلادكم وماكلها ومشاربها وملابسها وأعمالها ، فان هذا الضابط يريد أن يعرف كل ما له صلة بسورية في سهرة واحدة .

انا نجد فرقا بين العقليتين الأميركية واللاتينية ، فقد قابلت بين كتاب في حياة الألفاظ الانكليزية وبين كتاب في حياة الألفاظ الفرنسية ، فان الأستاذ الفرنسي يمهّد لدراسة حياة الألفاظ بشيء من عوامل علم النفس والاجتماع وغير ذلك حتى يصل الى ميلاد الألفاظ وحياتها وموتها ، ولكن الأستاذ الأميركي يدخل موضوعه دون شيء من التمهيد الذي لا تحمله عقول الأميركيين .

أميركه في الكتب

عدت من بلد صغير على أبواب واشنطن دعاني إليه أحد أصدقائي الأميركان لأرى الثلج وقد غطى دوره الأنيقة وشوارعه الهادئة ، فأحببت أن أتملص من عظمة واشنطن ، فأقبع في الفندق ، فأعيش في كتاب ساعة من الزمن •

قال عبيد كلية السياسة في « نيويورك » في بعض مقالاته :

« اني أعتقد أنه لا يمكن أن يتم شيء من خير الحياة وعدلها وسعادتها في أي مجتمع تكون السلطة الاقتصادية أو السياسية فيه محصورة في أيدي فرد من أفراده أو جماعة من جماعاته ، وأنا أرى كما كان يرى الرئيس « جفرسن » أن البشر لا يستطيعون أن يبدلوا مجهودا في الوصول الى السعادة وأن تنجح مجهوداتهم إلا اذا كانوا يعيشون في مجتمع ديموقراطي ولو ناقصاً •

اني أعتقد أخيرا أن الناس على اختلاف أعراقهم ومعتقداتهم يمكنهم ادراك هذه الغايات البشرية ، واذا نحن أحسننا الانتفاع بمداركنا الاجتماعية وبحدود العلم الجديدة فسيأتي يوم لايسفك فيه دم ولا يشتد فيه بغض ولا مرض ولا فقر ، ولا يخاف فيه الناس ما يخافونه من مجهولات الأمور خوفا هداما » •

لما فرغت من قراءة هذه الأفكار الناضجة عرضت لي مناقضات أميركه ففي زيارتي الأولى لها غلبت علي فتنة طبيعتها وعظمة جامعاتها ،

فلم أجد سبيلا الى التفكير ، أمّا الآن فقد نجوت من سحرها الأول ، وأخذت أنظر الى الأمور نظرة مستقلة • يحار الانسان في مناقضات أميركة ، لا أدري هدف الكاتب لما قال ما قال ، أهو يغمز من بعض أفراد وجماعات في أميركة نفسها ، أم هو ينظر الى أمم ثانية ، على انه لم يخطئ في الأمرين معا ، ان في أميركة كثيرا من الامور التي أشار اليها ، ففيها السلطة الاقتصادية محصورة في أيدي أفراد أو جماعات ، وفيها السلطة السياسية محصورة في أيدي الجمهوريين أو الديموقراطيين ، ولكن الذي يسكت الناس في أميركة انما هي هذه الرفاهية البالغة التي تكان تكون لا مثيل لها في العالم ، على أن الناس يشكون كثيرا ، فهم يشكون الضرائب أو يشكون اليهود أو يشكون كثرة العبيد أو غير ذلك ، ولكن وراء هذه الشكاوى حياة رغيدة طيبة تلهي الناس ، فترى العامل يكسب ما يكسب وفي آخر النهار يستطيع أن يشرب ما يريد ، وأن يأكل على قدر إمكانه ، وكذلك صاحب الحالة الوسط ، وكذلك الأغنياء الذين لا يشكون إلا وجع القلب أو الرأس أو الكبد •

هذا هو الذي يهدى الأميركيان ويسكتهم ، فلا يهتمون بحصر السلطة الاقتصادية أو السياسية في أفراد أو جماعات ، فهم حاصلون على خبزهم ولحمهم ودفئهم وسائر حاجياتهم ، لقد وصلت أميركة في هذا المعنى الى أعلى ما تصل اليه رفاهية الحضارة المادية ، هذا قول حق لا بد منه ، ولكن ماذا بعد هذا كله • هنا بدء المشكلة •

اني لا أرى في أميركة روحا أميركية واحدة في جميع ولاياتها ، فالمدارس والجامعات التي تربي النشء لا تفرغهم في قالب واحد ، فان هذه الجماعات التي استعمرت أميركة قد جاءت بأخلاقها وتقاليدها وعاداتها ، ولا يزال فيها شيء من هذا كله • فكأنني لا أزال أسمع هذا البقال الايطالي يغني بايطاليته بعد أن أقام بأميركة خمسا وثلاثين سنة ،

وكأني لا أزال أرى هؤلاء الشباب من قرى فلسطين والأردن يرقصون الدبكة في بعض مطاعم واشنطن وكلهم من التابعة الأميركية ، وكأني لا أزال أسمع هذا الشاب الدرزي وقد جاء من لبنان لخدمة الجيش ، كأني لا أزال أسمع لهجته القوية : إذا كنت أميركيا أتخلى عن عروبتى !

فالأميركان لم يفرغوا في قالب واحد من الفكر والشعور والذوق ، فإذا اشتدت أزمة في داخل البلاد في يوم من الأيام وعجزت الحكومة عن معالجتها أو إذا أصيبت أميركة بهزة عنيفة من خارج البلاد ، فاختل هذا النظام الاجتماعي الذي جعل الناس كلهم يأكلون ويشربون وينامون ملء أفواههم وبطونهم وعيونهم ، فماذا يصيب أميركة حينئذ ؟ قال لي بعض الأميركيين والأميركانيات : إذا وقع شيء من هذا كله فلا خوف على أميركة لأن الأميركيين كلهم يفنون في المحافظة على بلادهم ، أمّا أنا فاني ما أزال أسأل نفسي هذا السؤال : إذا وقع شيء من الذي ذكرته أستبقي هذه العظمة التي لا نظير لها في العالم ، أم سينهار هذا البنيان الشامخ لأنه كالفسيفساء ، وليس هو كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا .

طبقات

أجل ، إن في الولايات المتحدة طبقات ، وهمي الآن أن أشير الى تباعد هذه الطبقات في طراز عيشتها . لي صديق من دمشق يقيم بواشنطن من سنين ، يدرس فيها ويدرس ، دعاني ذات ليلة الى العشاء في فندق من الطراز الأول اسمه : « شورام » Shoreham أستطيع أن أقول ان هذا الفندق من أعظم الفنادق في العالم ، ولا ريب في أن الذين يقصدون اليه انما هم من طبقة الأغنياء الموسرين ، يلبس الخدم في مطعم الفندق ملابس الانكليز في بدء استعمارهم لأميركة ، ويأكل الناس ويشربون ويرقصون على أنغام من أعذب الأنغام ، وتظهر آثار الفخامة على كل بهو من أبهاء الفندق ، والذين زاروا باريز وأكلوا في مطاعمها المشهورة يستطيعون أن يتصوروا عظمة فندق « شورام » .

تقصد الى هذا الفندق على نحو ما قلت طبقة أصحاب المال ، أو أصحاب المناصب ، ونجد في شارع من شوارع واشنطن المشهورة اسمه : Connecticut Avenue فندقا آخر وهو : May Flower تختلف عظمته عن عظمة « شورام » فيه مطعم فخم وفيه أبهاء فخمة كنت أجلس فيه أكثر الأحيان ، وأرقب وجوه الناس ، وجيئتهم وذهوبهم ، فيخيل الي أن هؤلاء الناس أكثرهم من اليهود الأغنياء ، واهتمامهم بمصالحهم أكثر من الاهتمام بأكل فاخر أو بشرب سائغ أو بأوتار وأنغام .

فالناس الذين يجيئون هذا الفندق قد تختلف طبقتهم بعض الاختلاف
عن طبقة فندق شورام .

ثم نجد بعد هذين الفندقين فنادق ثانية في واشنطن من درجة
وسط ، تقصدها طبقة وسط من الناس ، إمّا من أصحاب تجارة أو
زراعة أو عمل وإمّا من أساتذة ومدرسين وطلاب ، قد يلاقي الانسان
كل ما يحتاج اليه في هذه الفنادق ولكنه لا يجد فيها عظمة الفندقين
الآخرين اللذين ذكرتهما .

وبعد هذا كله نجد فنادق مشوثة في بعض أحياء واشنطن تظهر
عليها آثار الفقر ، يقصدها الفقراء من الناس .

وما يقال في الفنادق من حيث غناها وفقرها يقال في المطاعم ،
فلمطاعم درجات ، ولكل طائفة منها طبقات خاصة ، ولكني لم أذكر
ما ذكرت على سبيل الاحصاء ، فما هذه غايتي ، وانما غايتي الوصول
الى الكلام على المطاعم الفقيرة والمشارب الفقيرة التي يزدهم فيها
الفقراء والعبيد في كل ليلة ، ولا سيما في ليالي الأحد ، كنت أمر بهذه
المطاعم والمشارب كل ليلة ، فهي واقعة على طريقي الى الفندق الذي
نزلت به ، فأضرب بعيني دقيقة في هذه الطبقات المخنوقة فيها ، فأرى
دخان السجاير وقد قطع على الناس أنفاسهم ، وأرى أكواب الجعة
مرفوعة الى الأفواه ، وقد فرغها أصحابهما في أجوافهم ، وأرى هذه
الوجوه التي تلوح عليها آثار السكر وهي مستعدة للشر ، وأرى
علامات البؤس والشقاوة ، فأقابل بين طبقات هذه المطاعم والمشارب
وبين طبقات « شورام » و « مي فلور » وغيرها ، فأرى بعد هذه
المقابلات الفرق الشديد بين الناس ، أرى الفرق بين أكلهم وشربهم
ولبسهم ، وأرى الفرق بين طرز لهوهم وسهرهم ومرحهم ، فأستغرب
هذا النحو من العيشة ، وأعجب من هذا الشكل من الحياة ، كيف
تصبر الطبقات الفقيرة على مثل ما هي صابرة عليه ، كيف ترى نعيم

الطبقات الغنية وترفها وترضى ببؤسها وشقاوتها ، كيف تسكت عن ملايين الدولارات في أيدي أصحابها على حين لا تجد في أيديها من هذه الدولارات إلا ما تسد به عوزها ، أو تخفف به آلامها في ليالي الأحد في مشرب من المشارب المظلمة الخائقة العابسة •

أجل ، إن في الولايات المتحدة طبقات متباعدة متفاوتة ، طبقات تتقلب في أعطاف النعيم وطبقات تكاد ترضى بلقمتها وشربتها ، والذي يسكت هذه الطبقات الفقيرة إنما هو وجود هذه اللقمة وهذه الشربة ، فويل للولايات المتحدة اذا وقعت في أزمة ، ويل لها اذا انقطعت اللقمة والشربة عن أفواه المساكين في يوم من الأيام •

ثروتنا في أميركة

من ثلاث سنين أو أكثر ألقيت حديثاً في « صوت أميركة » في نيويورك موضوعه : الطبيعة في أميركة ، وقد تولى تقديمي الأستاذ سعيد جبرين ، وأذكر أنه كان في التقديم يسيل الى اللغة الشعرية ، فهو من « الكفرون » قرية قريبة من صافيتا ، هذا كل ما عرفته عنه في تلك الأيام .

ثم قدمت أميركة هذه المرة ، واني ذات ليلة أتعشى في بعض المطاعم العربية في « واشنطن » اذ دخل شاب ومعه سيدة ، فمرا على سفرتي وقعدا ناحية ، فكأنه عرفني وشك في معرفتي ، وكأنني عرفته وشككت في معرفته ، وبعد أسبوع كنت أتعشى في المطعم نفسه ، فدخل الشاب نفسه والسيدة نفسها ، ولكنه في هذه المرة لم يشك في معرفتي ، حيّاني باسمي ، وحييته باسمه وذكر كل واحد منّا صاحبه .

هذا الشاب هو الأستاذ سعيد جبرين ، عرفني الى السيدة التي معه ، ثم زرتهما بعد ذلك في مكاتهما ، الأستاذ جبرين في « صوت أميركة » في واشنطن والسيدة « بربارا جبرين » في مكتبة الكونغرس ، وقالت لي السيدة بربارا : ينبغي أن تزورنا في دارنا .

وبعد أيام دعاني الأستاذ جبرين الى العشاء في داره ، ودعا الآنسة صفية أبو شادي كريمة المرحوم الدكتور أبو شادي ، وهي آنسة مثقفة ، مهذبة ، كريمة النفس .

في خلال هذا العشاء وهذه السهرة التي لا أنساها كل عمري
عرفت شيئاً من فضائل الأستاذ جبرين ومن فضائل زوجته بربارا •

نشأ الأستاذ سعيد جبرين في « الكفرون » بين الجبال والسهول ،
وبين الماء والشجر ، نشأ نشأة شعرية ، ثم ضاق صدره بيئته يضيق فيها
معنى الحرية ، تحيط بها الظلمات من كل جانب ، ظلمات الفكر
والشعور والذوق ، فحدثته نفسه بالرحيل الى بيئة تتسع فيها معاني
الحرية ، رحل الى الولايات المتحدة ودخل جامعة « ايوا » فتعلم فيها
الصحافة العلمية ، أي تبسيط موضوعات العلم والزراعة وعرضها على
الجباهير ، فهو مرشد زراعي يزود الزراع كل أسبوع بلغته العربية
مما يهتدي اليه العلم والزراعة من يوم الى يوم •

درس الأستاذ جبرين الصحافة العلمية في مدينة (Ames)
كما درست فيها البنات الأمريكانيات تدبير المنزل وتدبير الأزواج في
الوقت نفسه ، لأن أكثر الزواج في أميركة يطبخ في الجامعات •

هذه جملة من حياة السيد سعيد جبرين الثقافية ، ولكن ما الى
هذا قصدت في مقالي ، لقد أردت التنويه بحياته الشعرية ، فقد جاء
أميركة لا لجمع المال لأن وظيفته لا تعطيه من المال الا مقدار ما يقوم
بأوده ، وتعاونته زوجته على الحياة ، وهكذا الأمر في أميركة فالرجل
يعمل والزوجة تعمل معه ، جاء الاستاذ جبرين أميركة ليحيا حياة
شعرية حرة في بيئة بعيدة عن الشعر •

رزقه الله زوجة أستطيع أن أقول انها آية في الجمال ، غاية في
الكمال ، درست علم النفس وطائفة من العلوم ، عمرها ست وعشرون
سنة وعمره خمس وثلاثون سنة ، فاستحكم التكافؤ بينهما من كل
جهة ، أحبته ملء قلبها ، وأحبها ملء قلبه ، فقد مضت عليهما أربع
سنين ولم يكدر صفو حياتهما مكدر ، وبدلاً من أن تجر السيدة بربارا

زوجها الى الذوبان في البيئة الأميركية استطاع زوجها أن يجرها الى الذوبان في البيئة العربية ، فقد اشترت بعض الكتب التي تبحث عن العرب وحضارتهم ، ثم تعلمت العربية ، وما يزال خطها ملء عيني ، فقد أهدت إلي صورتها وكتبت عليها بالعربية : هديتي الى صديقنا الأستاذ شفيق جبري ، ثم علّمها زوجها شيئاً من الموسيقى العربية ، فما تزال أذني تسمع نغماتها الهادئة وهي تغني : آه يا أسمر اللون وزوجها يعزف على آلة قريبة من الناي ، ثم حملها على تعلم الطبخ العربي ، فقد كان على سفرة العشاء صحن الحمص بالزيت زينة هذه السفرة ، ويفيض في هذا كله إخلاص الزوجة الى زوجها وإخلاص الزوج الى زوجته •

والسيدة بربارا عريقة في انكليزيتها ، فان آثار الأرسطوقراطية الطبيعية ظاهرة على بساطة ملابسها وبساطة أحاديثها ، فهي من هذه الأسرة الانكليزية التي استعمرت أميركة من ثلاثة قرون ، فترى عليها أثر الانكليز وأثر الأميركيين في وقت واحد •

يقيم الأستاذ سعيد جبرين وزوجته بربارا في بعض أطراف « واشنطن » بدار تدل الصور المعلقة على جدرانها على حياته الشعرية ، وحول هذه الدار شجر متسع الأفياء ، البحيرات على مقربة منها ، والخضرة والشجر في الربيع ، وإذا جاء الصيف ذهب السيد جبرين وزوجته الى جبال قريبة من نيويورك يقيم بها أحد أقاربه ، فيقضيان جزءاً من الصيف في صيد السمك في البحيرات •

حياة الأستاذ جبرين شعرية من أولها الى آخرها وأمامي وأنا أكتب هذه المقال قصيدته : موسيقى في الليل ، ألقاها في رابطة (مينرفا) في واشنطن في السنة الماضية ، وجد فيها الدكتور أبو شادي عناصر فن السيد جبرين مجتمعة على أحسن وجه ، وجد فيها الوجدان والغناء والابداع الوصفي والعرض التمثيلي ، أمّا أنا فوجدت فيها جوهر

الشعر العربي قبل هذا كله ، وجدت فيها بعض الألفاظ والتراكيب التي هي زينة شعرنا مثل قوله :

جَوَّاب آفاق — غريب الدار — جنه الليل ، الى غير ذلك من التراكيب التي لا يحسن شعرنا بغيرها .

هذا شيء يسير من مهاجر عربي ، بدلا من أن يذوب في البيئة الأميركية أذاب البيئة فيه ، فشعره عربي ، وعيشته عربية وموسيقاه عربية ووظيفته باللغة العربية ، وقد انقادت زوجته الى هذه العيشة العربية حتى ذابت في مآكل هذه العيشة ومشاربها وموسيقاها ولغتها .

هذه هي ثروتنا في الولايات المتحدة ، لا هؤلاء المهاجرون الذين فريق منهم يكادون يحصلون على خبزهم ولحمهم فلا هم من أميركة ولا هم من الشرق ، وفريق منهم اجتمعت لهم أسباب الثروة فلم تنتفع بلادهم بهم ولم يعل ذكرهم في البلاد التي هاجروا اليها .

شباط ١٩٥٦

غادرت واشنطن في أواخر كانون الثاني ، وانحدرت الى مدينة اسمها : « ولیمسبرغ » من ولاية « فرجينية » وهذه الولاية واقعة على حدود واشنطن ، والسبب الذي من أجله آثرت الإقامة بولیمسبرغ ناشئ عن أنني أردت مخالطة الأميركيين والاتصال بلغتهم ولم يتيسر لي هذا الأمر في واشنطن ، فقد كانت معارفي فيها من العرب ، فكانت العربية غالبية على أحاديثنا .

انحدرت الى ولیمسبرغ واستقبلني فيها صديقي Labalme وهو الذي جاء ذكره في هذه الرحلة كثيرا واختار لي أسرة تسكن داراً من دور جامعة ولیمسبرغ ، فأعطتني هذه الأسرة غرفة من غرفها حمدت الإقامة بها .

ولیمسبرغ من المدن المشهورة في الولايات المتحدة ، ولكن شهرتها

لا تقوم على عظمتها ولا على اتساعها ولا على غناها ، ولكنها مشهورة بالاحتفاظ بآثارها ، فان دورها لا يزال طرازها على شكله الأول ، أي على الشكل الذي كانت عليه لما كان الانكليز يستعمرون أميركة في بدء الأمر ، وأغرب شيء من آثار هذه المدينة انما هو سجنها الذي يصور لنا كيف كان الانكليز يعذبون الناس فيه أيام حكمهم ، وأظن أن الانسان لا يستطيع أن يتصور شدة هذا التعذيب وأدواته ، وقد قيل لي ان الروس صوروا هذه الأدوات وعرضوها في بلادهم وقالوا : انظروا كيف يعامل الأميركيان سجناءهم ، حتى اضطر الأميركيان الى إخفاء هذه الأدوات .

في شارع من شوارع المدينة دكاكين كثيرة تعرض فيها ملابس الانكليز في صدر استعمارهم لأميركة ، وأحذيتهم ومطابعمهم ومقاهيهم ، وفي هذا الشارع عجالاتهم التي كانت تجرها الخيل ، ومدافعهم ، ودار الحاكم وغير ذلك من الآثار القديمة ، وقد تعرفت الى ضابط من ضباط مصر أرسلته الحكومة الى الولايات المتحدة للتمرن مقدار نصف سنة فقال لي : انظر الى هذه الآثار ! وفي لهجته شيء من الاستخفاف ، فماذا يعمل القوم لو كانت آثارهم تشبه آثارنا في مصر ، والحقيقة ان هذه الآثار لا شأن لها ، إلا أن الأميركيان ليس لهم ماض يتعلقون به ، فقد أحيوا هذه الآثار لتكون ماضيهم ، فترى الموسرين منهم يزدهمون على وليمسبرغ في شهور معينة من السنة ، فيتفرجون ويصورون ويعجبون ويفخرون ، والمدينة تعيش عليهم ، فهم يقيمون بفنادقها ودورها ، ويأكلون في مطاعمها ، وإذا انقضى موسم فرجتهم كادت وليمسبرغ تخلو من السكان ، إلا أن لها فتنه أخرى وهي فتنه جامعته البسيطة وطلابها ، فهم زينة وليمسبرغ ، وهم سحرها ورواقها ولا سيما اذا انتشروا في مطاعمها في الليل ، ولولاهم لما كان لوليمسبرغ معنى ولا روح .

الدنيا الضاحكة

هل أستطيع أن أعرب في خاطري هذا : الدنيا الضاحكة ، عن
سحر هؤلاء الطلاب وعن رونقهم •

أعيش في هذه المدينة الفتانة في ظلال جامعتها ، لا بل في قلب
جامعتها ، فأرى الطلاب والطالبات كل يوم ، أراهم في حدائق الجامعة ،
وأراهم في الشوارع ، وأراهم في المطاعم ، واني لأكتب هذه الخواطر
وكأنني ما أزال أسع ضحكهم في المطعم الذي تعيش فيه ، وكأنني
ما أزال أرى انبساطهم ، مهملين الحياة وتكاليفها ، فلا تأتق في الملابس
ولا تكاليف في الحركات ولا تشدق في الأحاديث ، فالدنيا كلها في
نظرهم ضحك وابتسام ، مرح وانبساط ، لهو ولعب ، فلا مشكلات
تشغل أفكارهم ، ولا سياسة تستغرق أوقاتهم ، فكأنهم لم يخلقوا
إلا لهذه الحياة الضاحكة التي يتقبلون في أعطافها ، وكأن الدنيا خالدة
لهم ، وكأنهم خالدون لها ، فألذ أيامهم هذه الأيام التي يقضونها في
أفق مرح ، فهم يأخذون نصيبهم من هذا المرح قبل أن يندفعوا في
الحياة العامة ، فيشغلهم العمل ، ويقتلهم الاقبال على الدنيا ، فلا ساعة
بعد ذلك حلوة ، ولا سهرة ظريفة ، ولا حياة باسمة •

هذه هي الحياة التي أراها كل يوم من الصباح الى قبل منتصف
الليل ، ولكن ليس موضع الاستغراب في هذا المراءى وانما أرى الى
جنب هذا كله نوعا من الحرية يصعب تصويره في بلاد محافظة على

عادات وتقاليـد تختلف عن عادات الأميركان وتقاليـدهم ، أرى الى جنب هذه الدنيا الضاحكة حرية لا تعدلها حرية ، ففي كل طرفة عين طالب يخاصر طالبة ، وطالب يغازل طالبة على مرأى من الأساتذة ومن الناس كلهم ، فلا أحد يستغرب هذه المشاهد ولا أحد يهتم بهذه المخاصرات وهذه المغازلات أو بهذه القبل في بعض الأحيان ، هذه هي الحرية في جامعات أميركة والأساتذة في الصفوف يخاطبون طلابهم على مقادير هذه الحرية التي يتستعون بها ، فقد دخلت صفا من الصفوف ، فسمعت الأستاذ يقول لطلابه : كان ينبغي لكم أن تركبوا الجمل التي أملكها عليكم في فراغ الأكل ، ولكني رأيـتكم وقد صحب كل طالب طالبة ، وصحبت كل طالبة طالبا وبقيت وحدي على الأكل لم يصاحبني أحد ، فاندفع الطلاب في الضحك دقائق معدودة !

هذه العيشة التي يعيشها الطلاب في جامعات أميركة تكاد تكون بنت الطبع ، ولكن هل من محاذير في ذلك ، ان دراسة هذا الموضوع تستلزم احصاء لا يتسع وقتي له ، ولقد اعترضت على هذا النحو من الحرية ، فاستغرب بعض الأميركان كلامي وقالوا : انك تنظر الى هذا الموضوع من زاوية شرقية ، فنحن جبلنا على هذه الحرية ، ولا نرى فيها محاذير ، فالطلاب يدخلون صفوفهم ويصفون الى الأساتذة وهم لا ينتظرون فرصة ثانية لمخاصرة ثانية أو لمغازلة ثانية أو لقابلة ثانية ، هذا ما قالته لي بعض السيدات وال طالبات •

ولكن الحقيقة ان الجامعات في أكثر أميركة لها غايتان ، انها من جهة معامل لثقافة الفكر ، ومن جهة ثانية معامل للزواج ، فالطالب يصاحب من يختار من الطالبات والطالبة تصاحب من تختار من الطلاب ، وكل واحد يقبل على صاحبه ثم يدبر عنه ، الى أن يقع اختياره على أحد ، ويؤدي الأمر في أكثر الأوقات الى الزواج ، وقد أكدوا لي أن هذه الحرية لا تتجاوز ما أراه من مخاصرة أو مغازلة أو قبلة ، فان

للطالبات مناعة شديدة في الحرص على عفافهن ، فهن يخالطن الطلاب ويؤاكلنهم ويشاربنهم ويساهرنهم ولكنهن لا يزرن أحدا إلا مجتمعات، فهن يخفن السنة الناس ، ويحرصن على سمعتهن على الرغم من حريتهن ، حتى قال لي صديق من أصدقائي الأميركيين : انكم تعرفون نساء أميركة في « هولود » ليس غير ، فيذهب ظنكم الى أن نساء أميركة كلهن من هذا النوع الذي ترونه على الستارة البيضاء ، ولكنكم لا تعلمون أن الأميركيين شديد الغيرة على عرضهم ، وقد يؤدي الاعتداء على هذا العرض في أكثر الأوقات الى القتل .

هذه أمور لا أستطيع بيان الرأي فيها ، لأنها تحتاج الى تعمق في الدراسة ، ولكن الأمر الذي لا شك فيه أن الطالبة في الجامعة لا يقل اهتمامها بالتحصيل عن اهتمامها بالاهتداء الى الزوج ، لأنها بعد خروجها من الجامعة لا يتسع لها المجال للتفتيش عن زوج لها ، وكذلك الطالب ، واذا بلغت الطالبة ثلاثا وعشرين سنة أو أربعاً وعشرين سنة ولم تتزوج صعب عليها الزواج ، فلذلك تصرف همها في الجامعة الى الدراسة والى البحث عن زوج في وقت واحد ، والطالبات اللواتي تعرفت اليهن كل واحدة منهن خاتم الخطبة في إصبعها ، والزوجان متعادلان في السن أو متقاربان ، وقد يجوز أن يزيد الزوج على الزوجة سنتين أو ثلاث سنين .

حديث في جامعة

تعرف إلي طالب من طلاب جامعة وليمسبرغ ، لهذا الطالب صديقة تدرس في الجامعة ، وأظن أنها تدرس تاريخ بلادنا ، فذكرت لأستاذها أمي ، فأحب الأستاذ أن أزوره في قاعة التدريس ، وأن أتحدث في القاعة بمحضر من الطلاب عن أمور الشرق ، ونقلت إلي هذه الطالبة رغبة أستاذها في هذا الشأن ، فوافقت على ذلك .

دخلت قاعة التدريس وكان فيها على ما أذكر مقدار ثلاثين أو أربعين طالبا وطالبة ، انهم يفضلون الحديث على المحاضرة ، ويهتمون بالسؤالات والجوابات ، فهم يرون في هذا النوع فائدة أقرب .

شرع الطلاب يلقون علي السؤالات ، كل واحد منهم على حدة ، كان السؤال الأول : انكم تقيمون ببلاد فيها أديان مختلفة ، فكيف يقوم أصحاب هذه الأديان بأحكام شرائعهم ، أي هل يتمتعون من الحرية في صلواتهم ، فقلت : للمسلمين مساجدهم ، وللنصارى كنائسهم ، وللإهود كنيسهم ، وأصوات المؤذنين ودقات النواقيس تشق في الليل والنهار أعنان السماء ، فكل صاحب دين يدخل معبده ، فيصلي ما شاء ويعبد ربه ما شاء ، ولا أحد يتجاسر على منع أحد عن دخول مسجده أو كنيسه أو كنيسة ، فان حرية الأديان مضمونة .

فرغت من هذا الجواب ، ففاجأني طالب بسؤال آخر : ان عندكم مجلس نواب ، فكيف تؤلف الحكومة ، هل عندكم حزبان ، فقلت له :

ان عندنا أحزابا كثيرة في المجلس ، ويندر أن يظفر أحد هذه الأحزاب بأكثرية تمكنه من الحكم ، فلا بد له من أن يستعين بنواب من أحزاب ثانية ، حتى يستطيع تأليف الحكومة ، فاستغرب الطلاب هذا الأمر كثيرا وقالوا لي : انا نعجب من هذا الأسلوب في الحكم ، ونعجب كيف تستطيع الحكومة أن تحكم على هذا الشكل .

ثم طرح علي طالب آخر هذا السؤال : ما هي الأسباب في عداوة السعوديين والهاشميين ولما كنت واقفا بعض الوقوف على العقلية الأميركية أحببت أن أكون صريحا في الجواب ، قلت لهذا الطالب : انك تعرف أن السعوديين هجموا على الحجاز من سنين وأخرجوا الهاشميين منه واستولوا عليه ، فتشتت الهاشميون في الأردن والعراق ، وبقيت في نفوس القوم جراحات من تلك الأيام ، ولكن ثقوا بأن السعوديين والهاشميين لا خلاف بينهم في قضية فلسطين ، فقد عرضت القضية مرات كثيرة على مجلس الجامعة العربية ، فكان للدول العربية كلها رأي واحد فيها ، ورغبة واحدة ، وهي إخراج اليهود من فلسطين .

وبعد هذه السؤالات كلها وصلنا الى الطامة الكبرى ، قال لي الطلاب : هل تعتقدون في بلادكم أن أميركة دولة مستعمرة ، هل تنظرون اليها مثل نظركم الى فرنسا في إفريقيا ، قلت لهؤلاء الطلاب : قدمت بلادنا بعد الحرب الكبرى الأولى لجنة أميركية اسمها : لجنة كراين ، وقد قدمت سورية لاستفتاء أهلها في تقرير مصيرهم ، فأقامت بسيدان من ميادين دمشق ، وهو المرجة ، وأخذ الناس يفدون عليها ، فكانت تسأل كل واحد هذا السؤال : ماذا تريدون ، فكان الناس بأجمعهم يجيبون بأنا نريد الاستقلال التام ، واذا لم يتيسر لنا هذا الاستقلال فانا نطلب انتداب أميركة ، واذا رفضت أميركة فانا نطلب انتداب انكلترة ، واذا تعذر ذلك فانا نرفض فرنسا رفضا باتا ، من

هذا يتبين لكم منزلة أميركة في سورية بعد الحرب الأولى ، فقد كان للناس بها الثقة الكبرى ، وحسبهم أنهم جعلوها في المقام الذي يلي الاستقلال ، فقد فضلوها على الدول كلها لايمانهم بحرصها على حرية الشعوب وبعدها عن الاستعمار ، وتأكدت لهم نياتها الحسنة من سياسة رئيسها ولسن ، إلا أن الناس غيروا رأيهم فيها بعد ذلك لأنها غيرت سياستها ، فأعانت المعتدين على اعتدائهم ، أعانت اليهود على إنشاء دولتهم على الباطل ، ومكنت لهذا الباطل ولم تحافظ على المبادئ القويمة التي خلّقتها لها جورج واشنطن ، فلا تستغربوا بعد ذلك اذا تغير رأي السوريين في أميركة ، فقالت طالبة من الطالبات : ولكن ما ذنب الولايات المتحدة في قضية اليهود ، فان الذين يجمعون المال لاسرائيل في الولايات المتحدة انما هم اليهود أنفسهم ، ولا دخل للحكومة في ذلك . قلت لهذه الطالبة : أنسيت أن هيئة الأمم المتحدة مقرها « نيويورك » وأن النفوذ الأكبر في هذه الهيئة انما هو لأميركة فاذا شئت أن تحمل اليهود على تطبيق مقررات الأمم المتحدة فانها قادرة على ذلك ، واذا شئت أن تحمل اليهود على اعادة الحق الى أصحابه فانها قادرة على ذلك ، ولا يبقى بعد هذا كله قيمة لجمع المال من اليهود أو من غيرهم ، فان الناس يشكون حماية الولايات المتحدة لليهود ، ولو لاهذه الحماية لما بالى العرب باليهود ولا بجمع المال لهم .

هذا آخر ما بقي في ذهني من أحاديث ساعة قضيتها بين طلاب يرغبون في الوصول الى المجهولات من الأمور ، ثم شكر لي الأستاذ والطلاب ، فودعتهم وانصرفت .

غرائب

من ربع قرن جاءني سيدة أميركية وقد كنت في وزارة المعارف فقالت لي : اني أعنى بالصوفية ، وقد زرت الشيخ بدر الدين الحسني ، وهو مثل الملائكة ، ثم قالت لي : ان لي ولعا بالخط الكوفي ، فقلت لها : هل تستطيعين أن تكتبي لي شيئا بخطك الكوفي لأحفظه ذكرى ، فأخرجت قلما وأعطيته ورقا وكتبت سطرين في سرعة غريبة ، وأعطتني الورقة وانصرفت ، فاحتفظت بها واتفق أن زارني مدير المتحف الأمير جعفر الحسني ، فأخرجت الورقة من الدرج وسألته : ما هذا النوع من الخطوط يا أمير ، فاعتقد لأول وهلة أن الأمر جد وأخذ يدقق في الخط ، ثم تبين له الخلط فقال : هذا ما كنا نسميه في صغرننا : خرايش الجاج .

ومن أسبوع طلبت الي السيدة التي أسكن دارها في وليمسبرغ أن أزور سيدة أميركية قريبة من مدرسة ابنها ، فوافقتها على ذلك ، وتوجهنا نحو دار هذه السيدة ، والدور في هذه المدينة الشعرية مفتوحة أبوابها في الليل والنهار ، سواء أكان أهلها فيها أم لم يكونوا ، وليس للدور أجراس وانما لها ما نسميه في دمشق : سقاطات ، ويدخل الزائر عادة دون أن يدق الباب ، فهو ينادي صاحبة الدار ، فاذا أجابت دخل ، وهكذا فعلنا ، فاستقبلتنا السيدة ووقعت عيني على صورة في الحائط وهي صورة شيخ جليل القدر في عمامته البيضاء

وجبته السوداء ولحيته ، فلم أشأ أن أسأل عن هذه الصورة ، ولما استقر بنا المقام اندفعت السيدة في الكلام وقالت : اني على المذهب البهائي ، وهذه صورة صاحب مذهبنا معلقة على الجدار وأنا أذهب من سنة الى سنة الى حيفا وأزور مقامه ، ووددت لو أجد من يعلمني الفارسية ، فسألتها بعض السيدات عن هذا المذهب فقالت : انا تؤمن بالنبوات ومن جملتها نبوة سيدنا محمد ، فقلت لها : الحمد لله الذي أدخل في الاسلام سيدة جديدة تؤمن بنبوة نبينا ، ولماذا لا تنشرين هذا المذهب في بلدك ، فقالت : لست خطيبة ، فقلت لها : خاطبي الناس كما تخاطبين زوارك الآن ، فأنا من هذه الساعة أوشكت أن أكون على مذهبك !

ومن أسبوعين أرسلت إلي الجريدة التي تصدر في وليمسبرغ وهي « ديلي برس » محررها ، فتعرف إلي وسألني شيئاً عن حياتي وعن رأيي في جامعات أميركة ، ثم كتب مقالا في ترجمة حياتي ونشره في الجريدة ضمنه انتقادي لبعض أساليب التدريس في الجامعات الأميركية ، وقد جاءني بعد ذلك بيوم ، فشكرت له فضله ، فقال : ان لي حديثا آخر معك فهل تتكرم بزيارتي في المكتب ، فذهبت معه الى المكتب ، فقال : اني أعني ببعض أمور الشرق وهو شاب يوناني الأصل ولكنه أميركي ، وقد رأيته مرات في مكتبة جامعة وليمسبرغ يبحث عن بعض الكتب ورأيتة يطالع رواية من روايات دوستوفسكي وهي : الجريمة والعقاب .

أخذ هذا الشاب يسألني في المكتب عن الدراويش المولوية ، فذكرت له شيئاً قليلا عن الصوفية في أول أمرها ثم كيف تطورت في آخر الأمر حتى دخلها التدجيل ، وقلت له : يا أخي انك لا تجد في بلادنا الآن من يهتم بأمر الدراويش ولا تجد من يفرق بين السنة والشيعة وهذه نعمة كانت في القديم لأسباب لا مجال لذكرها . أما

اليوم فان الناس يهتمون بأمور طارئة تشغلهم أكثر من المولوية ، انهم يعنون بأمور استقلالهم واقتصادهم وما شابه ذلك ، ولو سألت غيري لأجابتك الجواب نفسه ، ويظهر على هذا الشاب أثر الذوق ، فاعتذر أرق اعتذار ، ثم أغلق هذا الباب •

وأذكر مرة في مؤتمر برنستن الذي عقد سنة ١٩٥٣ وحضره بعض علماء الشرق أن كنا نبحث عن شيء في شرع الاسلام ، فنهض أحد الأساتذة وفتح باب السنة والشيعية ، فرد عليه الدكتور جواد علي وهو من العراق وقال له : لا فرق بين السنة والشيعية إلا في أمور بسيطة جدا ، ثم أغلق هذا الباب •

هذه الأمور القليلة تدلنا على الزاوية التي ينظر منها بعض الأميركان الى بلادنا ، فهذه البلاد في نظر طائفة منهم بلاد الخط الكوفي والبهاية والدراويش المولوية والسنة والشيعية وغير ذلك مما أوشك أن لا يكون له أثر ، أما الأمور التي تشغل بلاد العرب في حاضرها ، أمور السياسة والاقتصاد وغيرها فان أكثر الأميركان لا يكادون يعرفون عنها شيئا ، وقد أخذت بعض الجامعات تعنى بدراسة تاريخنا ولغتنا ، ولكن لست أدري هل انتخبت هذه الجامعات أساتذة مخلصين مجردين يتخلون في تدريسهم عن كل نزعة دينية أو سياسية ، فاني ما أزال أذكر أن في بعض الجامعات أساتذة من اليهود يدرسون هذا التاريخ ، وقد دفع الي مدير المخطوطات في مكتبة جامعة ويسبرغ كتابا لأقرأه ، عنوانه : الميراث العربي ، تضافر على تأليفه تسعة أساتذة ، يبحث هذا الكتاب عن علوم العرب والجاهلية ومصادر الاسلام وشعر العرب والغزالي والحروب الصليبية والجهاد والفن الاسلامي وغير ذلك ، قرأت قسما كبيرا من هذا الكتاب ولما وصلت الى فصل مصادر الاسلام رأيت ان المؤلف انصرف الى المقابلة بين آيات القرآن وبين ما ورد في معانيها في التوراة والانجيل بدلا من أن ينصرف الى تعريف الأميركان ماهو الاسلام وما هي فضائله •

نزهة

ليس لكلمة السيران في اللغة الفصحى المعنى الذي لها في اللغة العامة ، وليتنا نستطيع جمعها على سيارين كما تجمعها العامة ، فلست أعتقد أن النزهة تقوم مقامها ، فاذا قلنا في دمشق : فلان في السيران هو وأهله تصورنا في الحال جماعة أخذوا أكلهم وشربهم وسائر حاجاتهم وانطلقوا الى بستان من البساتين أو الى واد من الأودية أو الى مرج من المروج ، فمدوا على الأرض بسطهم وحصيرهم وطبخوا ما شاؤوا أن يطبخوا وشربوا ما شاؤوا أن يشربوا وغنوا ومرحوا ماشاؤا أن يغنوا ويمرحوا ، هذه الأمور كلها تشتمل عليها في لغة دمشق العامة كلمة السيران ، أمّا النزهة فلا يراد بها إلا ترك المدينة ساعة من الساعات لشم الهواء الطلق فهي لا تستلزم كل ما ذكرته من الأكل والشرب وما شابه ذلك .

دعانا الى نزهة في مدينة « اناپوليس » صديق من أبناء بيروت يقيم بواشنطن ويعمل في وزارة الخارجية ، وزوجته أميركية ، وكان معنا صديقان آخران ، أحدهما من جبال العلويين في سورية والثاني من فلسطين ، وهما أميركيان بجنسيتهما ، وامرأة كل واحد منهما أميركية الأصل ، دعانا الى اناپوليس وهي مدينة على أبواب واشنطن

واقعة على البحر الأطلسي ، فيها كلية بحرية مشهورة يتدرب طلابها على باخرة في أمواه قناة ممدودة الى البحر . نستطيع أن نطلق على هذه النزهة اسم السيران ، لأن صاحب الدعوة قد حمل في سيارته كل ما يلزم ضيوفه من أكل وشرب ، وجلسنا في مرج أخضر على شاطئ البحر يشبه مرجنا الأخضر في دمشق قبل أن تشوه محاسنه الفريدة مباني المعرض القبيحة ، في هذا المرج مقاعد ثابتة من حجر ، ومواقد ثابتة لشواء اللحم أو للطبخ ، فقضينا في هذا السيران زمنا لا بأس به ، ولولا أن فاجأنا البرد لما غادرنا المكان .

ليس في هذا خاطر شيء من الطرافة يستحق التدوين في هذا الكتاب ، وانما أردت بإثباته في هذا المقام أن أؤيد ما سأفصله في خاطرات من ان القوم في أميركة شرعوا يمتزجون بالطبيعة على قدر استعدادهم وامكانهم ، لقد كنا نأكل ونشرب ونتحدث وتتصور ، فكانت تخطر على بالي حياة السيارين في دمشق ، اذ كنا نبعد عن مشكلات الحياة العامة في يوم من الأيام ، فنخلو الى أنفسنا ، وندفع في السرور والمرح حتى نعود الى أعمالنا أكثر نشاطا وأبعد همة ، لا شك في أن الضيوف كلهم عرب ، فهم قد ألفوا هذا النحو من العيشة ولكن زوجاتهم أميركانيات ، فقد وجدت أن سرورهن كان أعظم من سرور أزواجهن الذين ألفوا هذا كله ، ومرحهن كان أشد ، وغبطتهن بهذا السيران أو بهذه النزهة كانت أبلغ .

إذا كنت قد أردت بتدوين هذا خاطر الإشارة الى طرز من الحياة مألوف في الولايات المتحدة أو على الأصح في أنابوليس وهي حياة الطبيعة والبعد عن المشكلات في حين من الأحيان والانصراف الى الراحة والمرح بضع ساعات من النهار فقد أردت بتدوينه شيئا آخر ، كان يوم السيران يوم الأحد ، فقد انتشر طلاب البحرية الشباب ومع

كل طالب فتاة من الفتيات تخاصره ويخاصرها ، وللفتيات ولع برجال
البحرية غريب ، فهن يملن اليهم ويفضلنهم على سائر الطبقات من
الرجال ، وقد حصل في نفسي الشك في حصانة الفتاة الأميركية التي
أطروها لي ، فان بعض الفتيات اذا اجتمعن الى شباب من أعمارهن
دخل بينهم الشياطين ، واذا دخل الشيطان بين الفتى والفتاة عرف
القارىء عاقبة هذا الأمر .

فيلادلفيه PHILADELPHIA

ازاهير تصاوير انعام

لا ينبغي لي أن اغادر الولايات المتحدة دون أن أمسح من ذهني صورة رسخت فيه من أول الرحلة ، فقد كنت أعتقد ولا يزال كثير من الناس يعتقدون أن الأميركان أبعد خلق الله عن الفنون الرفيعة ولا يخلو هذا الاعتقاد من كثير من الصحة ، فإن الذي يزور هذه المعامل في أميركة ثم يرى هذا الدخان الذاهب في السماء يذهب وهمه لأول وهلة الى أن هذا الطراز من الحياة الميكانيكية بعيد عن حياة الفن والذي يبدو لي أن الأميركان أخذوا يشعرون بهذا الضعف في حياتهم ، فأحبوا أن يجربوا طرازا آخر من الحياة ولا أبالغ اذا قلت انهم في تجربتهم هذه برعوا البراعة كلها ، حتى ان الانسان لا يكاد يصدق أن من وراء هذه المعامل وهذا الدخان جوا صافيا تشيع فيه الفنون الرفيعة ويستفيض فيه حب الأزاهير والتصاوير والأنعام .

دعيتني الى زيارتها أسرة تقيم بفيلادلفية ، فلبيت الدعوة ومن محاسن الاتفاق أن هذه المدينة العظيمة كانت مقيمة يوم وصولي معرض الأزاهير ، فاقترح علي صاحب الدعوة أن أزور هذا المعرض ، ففعلت ، واذا كان لا بد لي من تدوين أول شعوري في دخولي هذا المعرض فاني أقول ما كادت قدمي تطأ هذه الجنة حتى استولى علي كثير من الدهشة ، فقلت في نفسي كيف يصدق الانسان أن شعبا مثل

هذا الشعب الأميركي منصرفاً الى فك الآلات وتركيبها ، غارقاً في دخان هذه الآلات ، مصروعاً في ضجتها وضوضائها يولع هذا الولع بحياة الشعر ، حياة الأزاهير وروائحها ، وإذا كنت أستطيع أن أصف عظمة المعرض من حيث اتساعه أو كنت أستطيع أن أصف مقاطعه وترتيبه فاني عاجز عن وصف شيء أعظم من هذا كله ، اني لا أجد في ذهني مفردات أسمي بها أصناف هذه الأزاهير وألوانها وأوراقها وروائحها ، ولست أعلم هل في لغتنا طائفة من هذه المفردات قادرة على هذا العمل ، اذا دخل الانسان هذا المعرض حسب نفسه في عالم جديد غير العالم الذي غادره على أبواب المعرض ، واذا قلت انه حسب نفسه في جنة فلا أشتط في التعبير ، فقد كنت أجول كما يجول الناس ، وأنظر كما ينظرون وأشهم كما يشمون ، وأعجب كما يعجبون ، ثم كنت أشعر بأنني لا أملك نفسي ، أين أنا ، أهذه هي الجنة التي جاء ذكرها في كتاب الله ، لقد كنت أرى فيها كل شيء ، ما خلا أمراً واحداً لا أثر له وهو الحور العين فما كانت تقع عيني إلا على عجائز تجر كل واحدة منهن نفسها جراً ، فكأنهن جئن هذا المعرض ليذكرن فيه نعومة الصبا ، كأن كل واحدة تقول في نفسها : اني من ستين أو سبعين سنة كنت مثل هذه الزهرة ، أضحك ضحكها ، وأبتسم ابتسامتها ، فتخفف بمثل هذا القول شيئاً من ألم الشيخوخة وعذاب الهرم وجنون الخرف ، وسواء عليها بعد هذه الذكرى أصبحت سنديانة نخرة أم أصبحت حورة مسوسة ، أم أصبحت نخلة يابسة ، فانها في نظر نفسها لا تزال زهرة زاهية ووردة ضاحكة ، وما عليها اذا بلغت السبعين أو الثمانين .

لندع هذه المساكين في تأملاتهن وأحلامهن وذكرهن ، فقد أخذت الفتيات يفدن على المعرض لأن الوقت وقت الظهر ، فهن قد غادرن أعمالهن في المكاتب والمخازن والدكاكين والمعامل ، وهن قد غادرن

الدراسة في المدارس والجامعات ، وجئن المعرض لا ليتفرجن فليس في قلوبهن شيء من الهم ولكنهن جئن هذا المعرض ليضفن الى حسنه شيئا من حسنهن ، والى فنتته شيئا من فنتتهن ، والى سحره شيئا من سحرهن ، وهكذا اجتمع في يوم من أيام آذار روتق الطبيعة وروثق الجمال ، فلتستع العين من هذه الطبيعة ومن هذا الجمال ، فان الدنيا كلها أحلام !

أظن أنني كدت أنحرف عن موضوعي ، فقد جبح بي القلم ، فمالي وللعجائز ، مالي وللفتيات ، كل همي في خاطري هذا أن أنفي من ذهني الوهم الذي تقدمت الاشارة اليه ، فقد طلق الأميركان يشعرون بميل الى الطبيعة والى التصاوير والى الأنعام ، لقد طفقوا يشعرون بميل الى الفن ، ويكاد يكون معرض فيلادلفية لا شيء بالقياس الى معرض واشنطن ، ولكني لم أزر معرض واشنطن ، وانما سمعت وصفه ، واذا فاتتني هذه الفرجة فلم تقتني فرجة غيرها في المتحف الوطني في واشنطن ، ان ما يشتمل عليه هذا المتحف من مختلف الآثار ، آثار التصوير والنسج والنحت والأواني ، يدل دلالة قوية على ما قلت من أن الأميركان أخذوا ينصرفون الى ما يلفظ الحياة ويحسنها ، قد تكون آثار هذا المتحف غير أميركية ، فهي مجلوبة ، ولكن الأميركي البحت فيها انما هو حسن التنسيق والترتيب والتنظيم والانسجام ، الأميركي البحت فيها انما هو حسن الذوق وهذا كاف على ما أظن ، ولما خرجت من المتحف وجدت على بابه رجلين فرنسيين ينقدان المتحف ، فسألتهما رأيهما فيه ، فتحفظا كل التحفظ وقد ظنا أنني أميركي أستدرجهما استدراجا ، ثم انطلقا بعض الانطلاق فقالا لي : ليس في المتحف شيء أميركي ، فقد يحتاج الى الشخصية الأميركية ، ولكن هذه الشخصية قد تتم في المستقبل •

واذا أضفت الى هذه الفرجة فرجة ثالثة وهي سماع الموسيقى في

قاعة من قاعات وزارة التجارة في واشنطن استطعت أن أؤيد اعتقادي أن حياة الأميركي كان شرعت تنتقل من طور مادي الى طور معنوي ، وإن كان هذا الانتقال ما يزال على قياس ضعيف ، إن طائفة من أصحاب الوظائف في الحكومة لهم ميل الى الموسيقى فهم يجتمعون من وقت الى آخر بمختلف آلاتهم في قاعة من قاعات وزارة التجارة ويعزفون على شبه مسرح أو يغتنمون فرصة قدوم موسيقار مشهور الى الولايات المتحدة فيدعونه الى هذه القاعة ويباح للجماهير الدخول والسماع .

فاذا كنت أغادر الولايات المتحدة للمرة الثانية ونصب عيني دخان المعامل وملء أذني ضوضاء الآلات وأمام فكري حياة اجتماعية جافة عابسة لا مرح ولا حبور ، فاني أغادرها وفي اعتقادي أن الحياة الفنية أخذت تخفف من ثقل كل ما ذكرت ، وأظن أنه اذا شاعت هذه الحياة الفنية في الولايات المتحدة فقد يلفظ الشعور العام ، وقد يجوز أن يكون للطافة هذا الشعور أثر في السياسة العامة ، سياسة السلم في العالم كله !

خاتمة المطاف

واشنطن ١٧ آذار ١٩٥٦

سأنعم قريباً بالعودة الى دمشق ، وسأستمتع من سحرها الغالب على كل طرف من أطرافها ، على جرد جبالها وغلب حدائقها ، واذا كان في البعد عنها حيناً من الدهر فائدة من الفوائد فما هذه الفائدة الا زيادة الشعور بالحنين الى ظلال بساطينها وهدوء أوديتها ورقة هواء جبالها وعذوبة ماء عيونها ، ولقد كنت في بعض الأوقات وأنا في مدينة من أعظم مدن العالم لا أعدل بدمشق الدنيا بحذافيرها ، سأنعم قريباً بالعودة اليها وفي ذهني ذكر كثيرة من رحلتي ، واذا كان المجال لا يتسع لهذه الذكر كلها فانه يتسع لخاطر واحد من الخواطر أحببت أن أجعله خاتمة المطاف .

لي صديق في لبنان كان أستاذاً في الجامعة الأميركية في بيروت ودرس في إحدى جامعات أميركة وتزوج فتاة أميركية من « فيلادلفية » وقد كتب إلي كتاباً من بيروت وألح علي فيه وألحت زوجته وألح أهلها في زيارتهم في « فيلادلفية » فما وسعني بعد هذه الالتاحات الكثيرة الا تلبية الدعوة ، فغادرت « واشنطن » في يوم شتاء وقصدت الى « فيلادلفية » وهي تبعد بالقطار ثلاث ساعات إلا قليلاً ، لا أريد أن أصف شيئاً من هذه الزيارة ، فقد طويت خواطري كلها ولكنني لم أطو خاطراً واحداً منها ، فقد كنت في القطار أصوب النظر وأصعده مرة

في مشاهد الطبيعة ومرة في الجدران الواقعة على مقربة من خط الحديد ،
وأذكر أنني قرأت على أحد هذه الجدران الاعلان الآتي : ما تعمله
« شستر » يعمل « شستر » وإذا أحببت أن أصيغ هذا الاعلان في
عبارة فصيحة قلت : على قدر ما تعمله مدينة « شستر » تكون عظمة
هذه المدينة •

لقد اقتبست هذا الاعلان فأردت أن أقول : على قدر ما تعمله
سورية تكون عظمتها ، ولكن العمل الذي أغنيه غير العمل الذي يعنيه
أهل « شستر » اني لم أزر هذه المدينة ولكن الظاهر انها من مدن
أميركة الصناعية ، فعظمتها وعظمة جاراتها في الصناعة ، أما أنا فلا
أقول ان عظمة سورية في الصناعة ، فأنا مهما نتج فلا يكون انتاجنا
شيئا بالنسبة الى ما تنتجه المدن الكبيرة ، واثنا مهما يكثر عددنا فان
كثرته لا تكون شيئا بالنسبة الى كثرة غيرنا ، فاذا كان أهل سورية يبلغ
عددهم أربعة ملايين فان هذا العدد أقل من نصف سكان بعض المدن
الكبيرة في العالم ، فلا تفخر بالثروة المادية التي يفخرون بها ، ولكننا
تفخر بشيء أعظم من كل ثروة ومن كل مادة •

لقد دخلت فرنسا بلادنا وما لبثت أن خرجت منها بعد ربع قرن
ولم تخرج بفضل سلاحنا ولكن شعراءنا وكتابنا وخطباءنا ورجال
سياستنا ظلوا يلهبون القلوب ويغرسون فيها بغض الاستعمار ربع قرن
كامل حتى اذا أمكنت الفرص قضى على هذا الاستعمار في طرفة عين •
واذا قسنا قوة اسرائيل الى قوة فرنسا فانها لا تكون شيئا
بالنسبة اليها ، فكما خرجت فرنسا من بلادنا بقوة ايمان أهل البلاد
فسيأتي يوم تخرج فيه اسرائيل من فلسطين بقوة مثل تلك القوة •

لا يقنع في خلد أحد ان المعامل وحدها انما هي عنوان عظمة الأمة ،
فان أميركة لم تبلغ عظمتها بفضل معاملها وحدها ، ولكنها بلغت هذه

العظمة بفضل الروح التي خلقت هذه المعامل ، انها بلغت هذه العظمة بفضل مغامرة أبنائها الأولين الذين حولوا غاباتها وصحارها وسهولها الى مدن تستوفي أعظم ما تحتاج اليه حضارة هذا العصر ، فلا يخطرن ببال أحد أننا نستطيع أن نخلق صناعات أو تجارات أو زراعات بروح مادية وحدها ولكن خلق هذه الأمور المادية يحتاج الى قوة معنوية في أول الأمر وهذه القوة المعنوية نجدها في ميراثنا الفكري الذي خلقه لنا العرب من قديم الدهر ، لقد خلف لنا العرب ميراثا في الفكر والروح والشعور لا يعده ميراث المعامل ، فاذا قلبنا النظر في هذه الكتب التي تملأ خزائننا في بلادنا وفي أوروبا نفسها فانا نجد فيها قوة لا تعدلها قوة النفثات والقنابل الذرية ، فان المثل الأعلى في القديم هو الذي جعل العرب يستولون على الدنيا بمجامعها ، ان أدبنا ملآن من الأخلاق القوية التي سالت على أقلام رجال شعرنا وفكرنا وفلسفتنا ، فان ما أورثنا إياه بعض شعرائنا وأصحاب الفكر فينا من روح البطولة ومن صوفية طاهرة عاملة ومن أدب روحاني رفيع يجعل من ضعفنا قوة ندفع بها جبروت كل جبّار غنيّد .

ولكن هذه الكنوز مبعثرة في تضاعيف ميراثنا الفكري ، فعلى قدر ما تعمله سورية ، مدارسها وجامعاتها ورجال الفكر فيها ، على قدر ما تعمله في الاقتباس من هذه الكنوز ومما تشتمل عليه من بطولات ومغامرات وفلسفات وآداب تكون عظمة سورية .

بعض ما اهتمدنا اليه من الخطا

الصفحة	الخطا	الصواب
٢٥	والتنكىت حتى يخف عناء الجد ، والمشهود فيها ميل الأميركان الى المرح (الطر ٢٠)	يعودون اليه ، ثم يعترضون ولا بدء في هذه المؤتمرات من شيء من المرح ..
٥٥	مللنا من التجول ...	مللنا من الجولان ...
٥٩	واذهب جهة مرة ...	واذهب الى جهة مرة ...
٦٥	وضعت النفس ...	وضعف النفس
٦٩	فهى الطالب ...	فهم الطالب ...
٧٠	يدرس Guy الجامعة ...	يدرس Guy في الجامعة ...
٧٢	وهذا الصديق لا انساه ..	وهذا الصديق مطافا لا انساه ..
٧٥	الصور القريبة ...	الصور القريبة ..
٧٥	يحرمننا من نعمة ...	يحرمننا نعمة ...
٧٧	محوط عجلة ...	محوط ، فيه عجلة ...
١١٠	في الحاشية : والخلبة الخداعة ...	والخلافة ...
١١٠	ابلق صورة واعمر ...	ابلق صورة واعمقها ...
١٢٠	رشيقة القوم ...	رشيقة القوام ...
١٢٠	إحدى المخازن ...	أحد المخازن ...
١٥٧	To Finish	To Finish
١٧٤	تزيد عن ...	تزيد على ...
١٨٥	على شكل مستقيم ...	على شكل خط مستقيم
٢٤١	تكان تكون ...	تكاد تكون ...
٢٤١	التابعة الأميركية ...	التابعة الأميركية ...
٢٥٤	أمي ...	أمري ...

ملتزم

الطبع والنشر

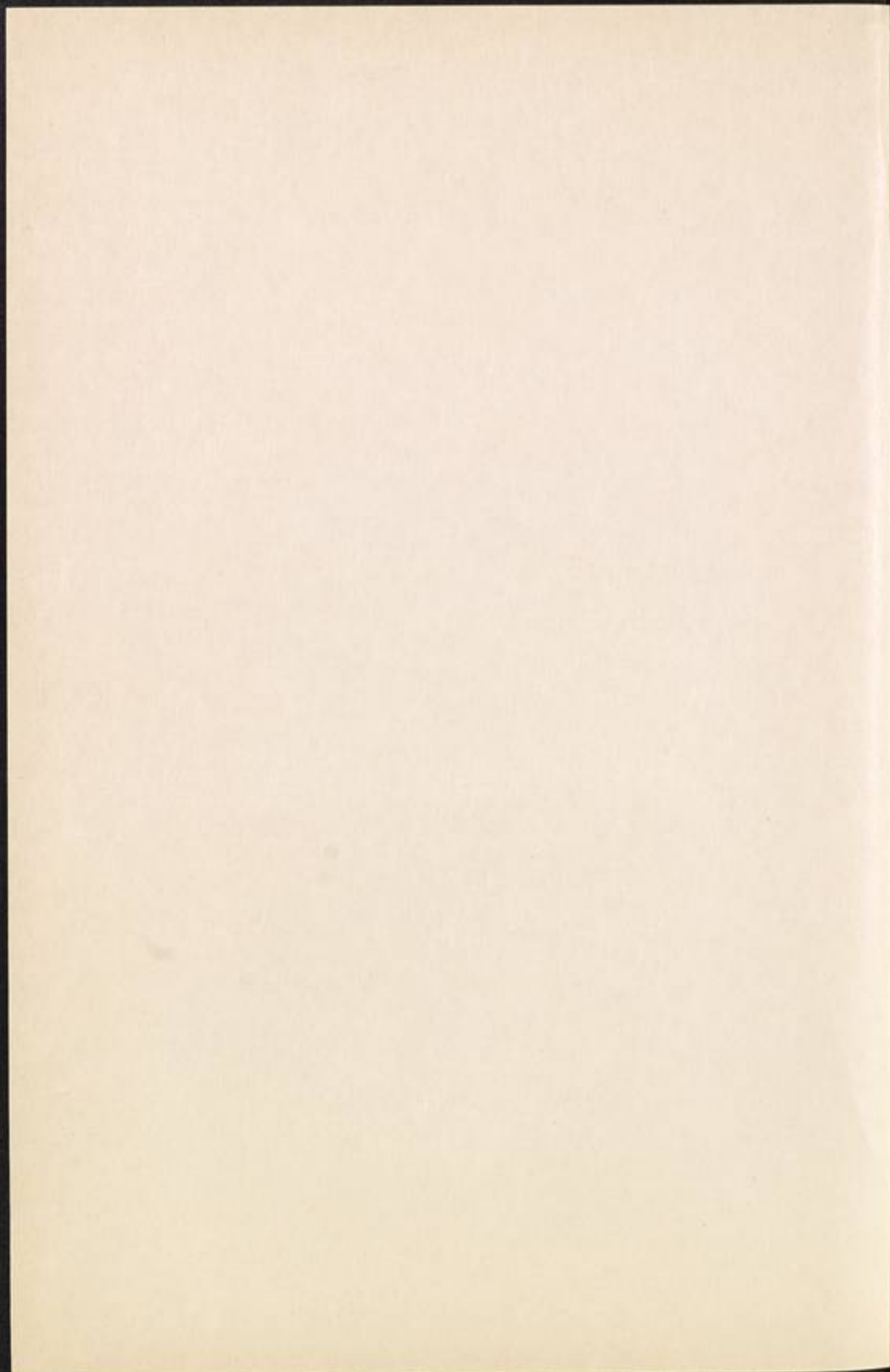
الفن الحديث العالمي

دمشق : شارع بور سعيد رقم ١١٧

ص.ب. : ٢٠١ هاتف : ١٣١٤٧

مطابع فتي العرب - دمشق : شارع الفردوس

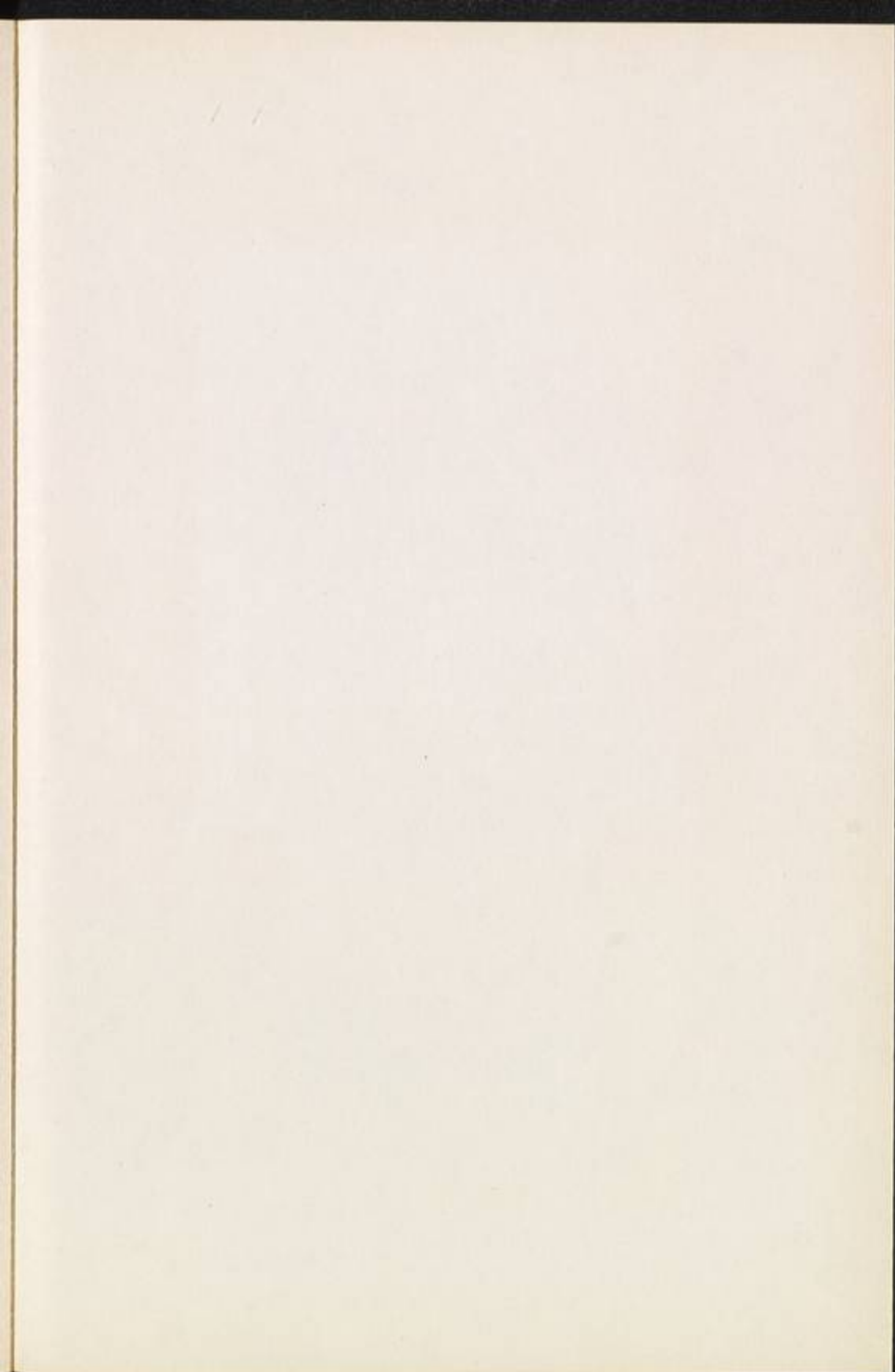
زنكوغراف ابوية - دمشق : شارع بور سعيد

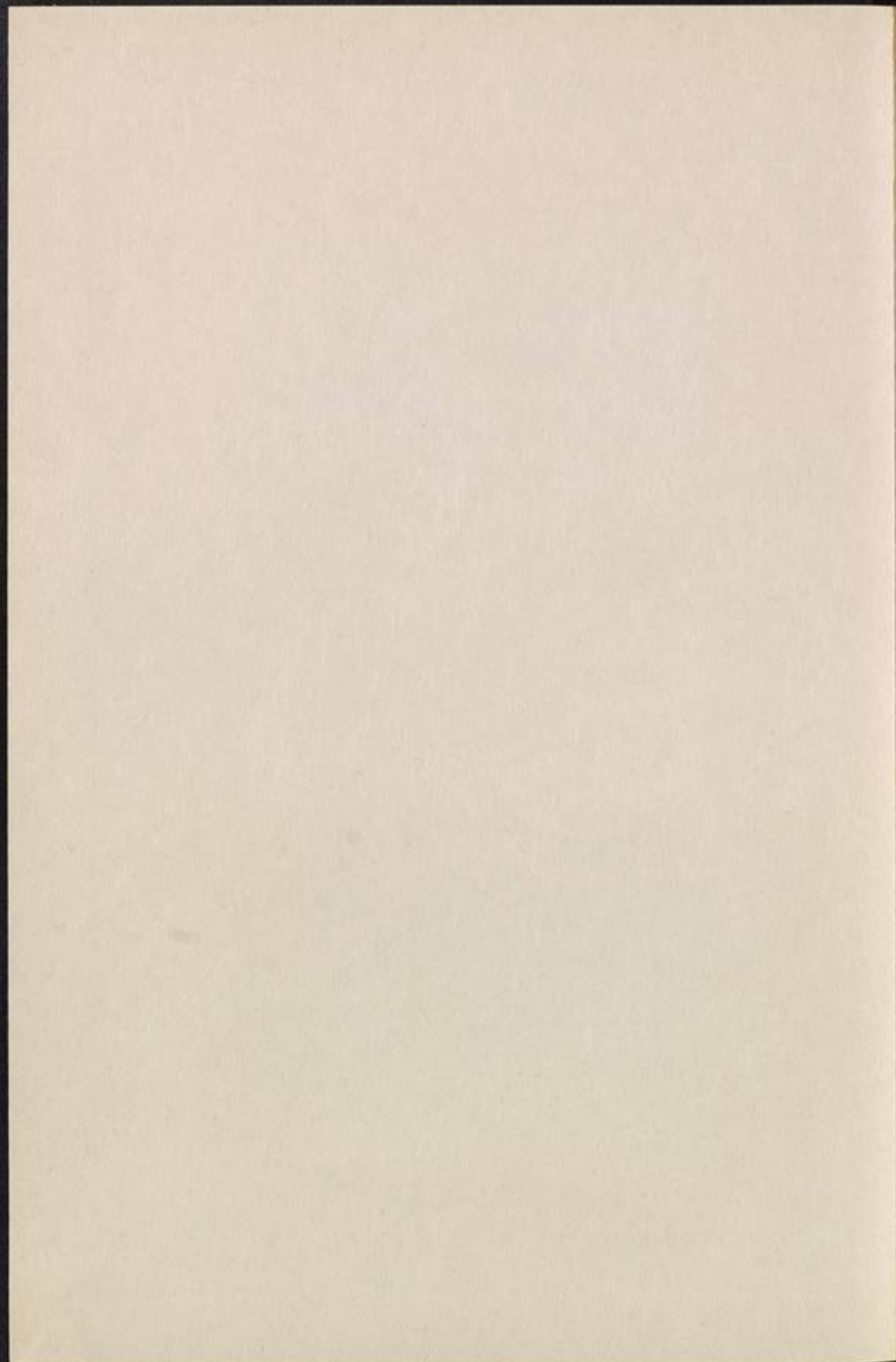


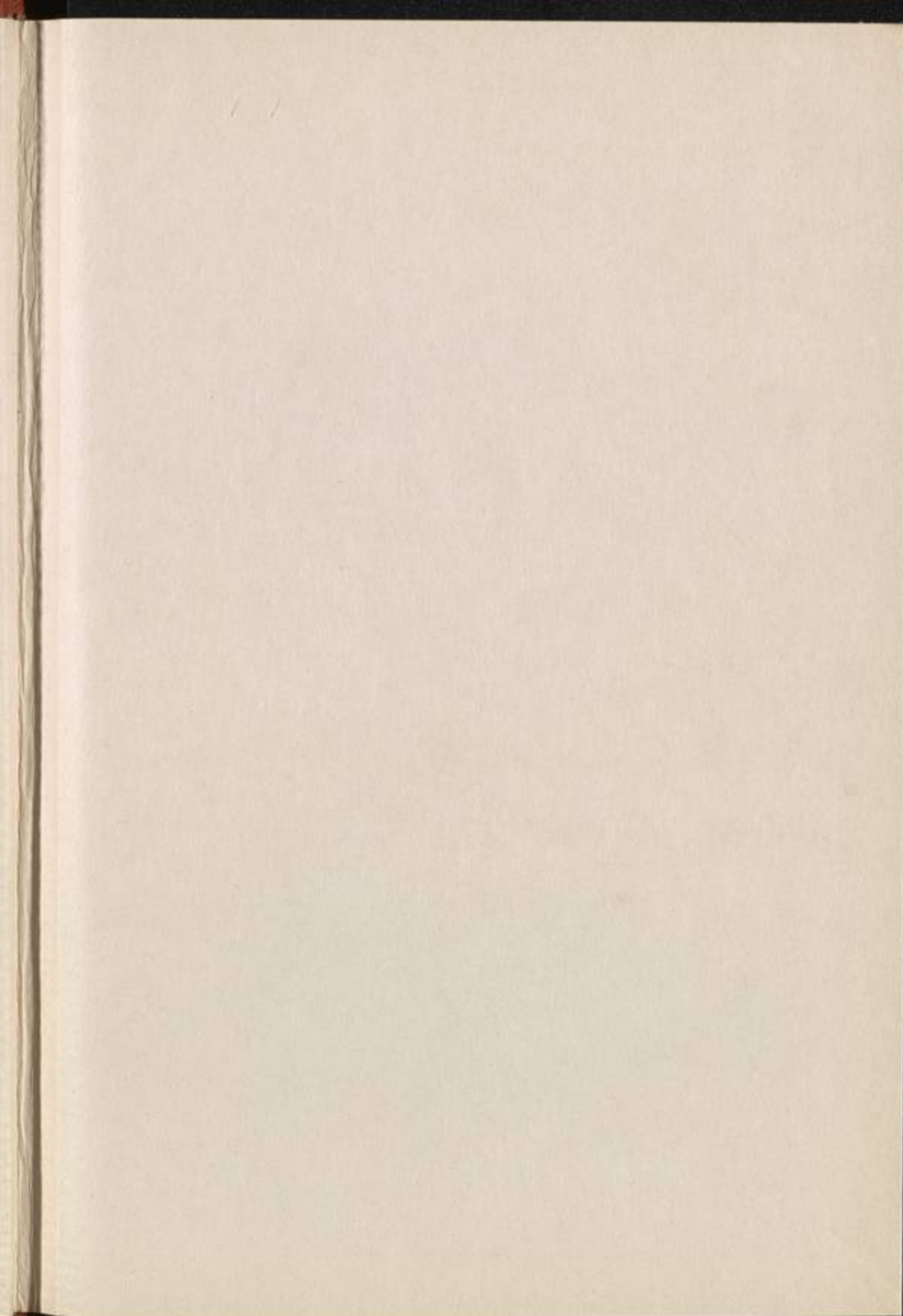
مكتبة المطبع والنشر
الكتاب العربي العالمي

ثمن النسخة ٢٦٥ قس او ما يعادلها









893.7J115

0

JUN 14 1963

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58871861

893.7J115 O

Ard al-sihr